ذاكرة الجسد
أحلام مستغانمي

إهداء...

إلى مالك حداد..
ابن قسنطينة الذي أقسم بعد استقلال الجزائر ألاَّ يكتب بلغة ليست لغته..
ومات متأثرا بسلطان صمته ليصبح فاغتالته الصفحة البيضاء..
وأول كاتب قرر أن يموت صمتاً وقهراً وعشقاً, شهيد اللغة العربية لها.
وإلى أبي...
فيقرأ له أخيراً هذا الكتاب, من يتقن العربية "هناك"عساه يجد كتابه.

أحلام

الفصل الأول

ما زلت أذكر قولك ذات يوم:
"والأدب هو كل ما لم يحدث. الحب هو ما حدث بيننا".
بعد ما انتهى كل شيء أن أقول, يمكنني اليوم:
إنها تصلح. هنيئا للأدب على فجيعتنا إذن فما اكبر مساحة ما لم يحدث اليوم لأكثر من كتاب.
وهنيئا للحب أيضا...

ما أجمل الذي لن ...ما أجمل الذي لم يحدث ...فما أجمل الذي حدث بيننا يحدث.

كنت اعتقد أننا لا يمكن أن نكتب عن حياتنا إلا عندما نشفى ,قبل اليوم منها.
دون أن نتألم مرة أخرى ,عندما يمكن أن نلمس جراحنا القديمة بقلم.

ودون حقد أيضا ,دون جنون ,عندما نقدر على النظر خلفنا دون حنين.

أيمكن هذا حقاً ؟
نحن لا نشفى من ذاكرتنا.
ولهذا يموت بعضنا أيضا ,ولهذا نحن نرسم ,ولهذا نحن نكتب.

أتريد قهوه ؟ -
وكأنه يطرح السؤال على شخص غيري ,يأتي صوت عتيقة غائبا.
على وجه للحزن لم أخلعه منذ أيام ,معتذرا دون اعتذار.

...يخذلني صوتي فجأة
أجيب بإشارة من رأسي فقط.

بصينية قهوة نحاسيه كبيرة عليها إبريق، ,فتنسحب لتعود بعد لحظات وصحن للحلويات ,ومرشّ لماء الزهر ,وسكريه ,وفناجين.
وضعت جواره مسبقاً معلقه ,في مدن أخرى تقدم القهوة جاهزة في فنجان وقطعة سكر.
ولكن قسنطينة مدينه تكره الإيجاز في كل شيء.
وتقول كل ما تعرف .تماما كما تلبس كل ما تملك.إنها تفرد ما عندها دائما.
ولهذا كان حتى الحزن وليمه في هذه المدينة.

لأترك مكاناً لفنجان القهوة وكأنني أفسح ,أجمع الأوراق المبعثرة أمامي مكانا لك..

وأخرى أوراق بيضاء تنتظر منذ أيام بعض الكلمات ,بعضها مسودات قديمة وتتحول من ورق إلى أيام ,كي تدب فيها الحياة ...فقط.

ولكن ,والذاكرة إلى النسيان ,أجتاز بها الصمت إلى الكلام ,كلمات فقط.. وارتشفت قهوتي مره كما عودني حبك ,تركت السكر جانبا.
شعرت ,ولحظتها فقط .فكرت في غرابه هذا الطعم العذب للقهوة المرّة ورحت أطارد دخان ,أنني قادر على الكتابة عنك فأشعلت سيجارة عصبيّة دون أن أطفئ حرائقها مرة فوق صفحه ,الكلمات التي أحرقتني منذ سنوات .

هل الورق مطفأة للذاكرة؟
. .وبقايا الخيبة الأخيرة ,نترك فوقه كل مرة رماد سيجارة الحنين الأخيرة

من منّا يطفئ أو يشعل الآخر ؟
.معك فقط سأبدأ الكتابة ...فقبلك لم اكتب شيئا يستحق الذكر ...لا ادري

فمن حقي أن أختار ,ولا بد أن أعثر أخيراً على الكلمات التي سأنكتب بها
.أنا الذي أختر تلك القصة .اليوم كيف أنكتب

عند ,لو لم يضعك القدر كل مره مصادفه ,قصه كان يمكن أن لا تكون قصتي
.منعطفات فصولها
من أين جاء هذا الارتباك؟

بتلك المساحة ,وكيف تطابقت مساحة الأوراق البيضاء المستطيلة
وما زالت مسنده جدار مرسم ..الشاسعة البياض للوحات لم ترسم بعد
كان مرسمي ؟

وتحول العالم إلى جهاز .وكيف غادرتني الحروف كما غادرتني قبلها الألوان
يبث الصور بالأسود والأبيض فقط ؟ ,تلفزيون عتيق

.كما تعرض أفلام السينما الصامتة ,ويعرض شريطا قديما للذاكرة

أولئك الرسامين الذين كانوا ينتقلون بين الرسم ,كنت أحسدهم دائماً
كأنهم .وكأنهم ينتقلون من غرفه إلى أخرى داخلهم ,والكتابة دون جهد
..ينتقلون بين امرأتين دون كلفة

!كان لا بد ألا أكون رجلا لامرأة واحدة

.الأكثر بوحا والأكثر جرحاً ..ها هوذا القلم إذن

ولا يعرف كيف توضع الظلال على الأشياء ,ها هو ذا الذي لا يتقن المراوغة
.ولا كيف ترش الألوان على الجرح المعروض للفرحة .

,موجعه كما أردتها ,عاريةً كما أردتها ,وها هي الكلمات التي حرمت منها
وتمنعني من الكتابة؟ ,فَلِمَ رعشة الخوف تشلّ يدي
وأن .تراني أعي في هذه اللحظة فقط ، أنني استبدلت بفرشاتي سكيناً
.كحبك ..الكتابة إليك قاتله

شعرت أنني على .بمتعه مشبوهة هذه المرّة ,ارتشفت قهوتك المرة
.ابدأ بها هذا الكتاب ,وشك أن اعثر على جمله أولى

جمله قد تكون في تلقائية كلمات رسالة.
كأن أقول مثلا:
ما زالت الطيور .وأصبحت أشبهها ,أكتب إليك من مدينه ما زالت تشبهك"
وأنا أصبحت جسرا آخر معلقاً هنا ,تعبر هذه الجسور على عجل.

لا تحبي الجسور بعد اليوم..".
أو شيئا آخر مثل:

أمام فنجان قهوة ذكرتك .."

لماذا كل هذه الصينية .كان لا بد أن تضعي ولو مرة قطعة سكر في قهوتي
من أجل قهوة مرّة ..؟.."

كان يمكن أن أقول أي شيء...
نكتبها خارج , ليست الروايات سوى رسائل وبطاقات ,ففي النهاية
لمن يهمهم أمرنا , لنعلن نشرتنا النفسية ..المناسبات المعلنة.

تلك التي تبدأ بجمله لم يتوقعها من عايش طقسنا وطقوسنا ,ولذا أجملها.
وربما كان يوما سببا في كل تقلباتنا الجوية.
كل تلك التي لم تتوقعيها .تتزاحم الجمل في ذهني.
وتمطر الذاكرة فجأة..
وأشرع نافذتي لأهرب منك إلى السماء الخريفية .فأبتلع قهوتي على عجل
إلى الشجر والجسور والمارة ..

بعدما أخذت لي موعدا معها .إلى مدينة أصبحت مدينتي مرة أخرى
لسبب آخر هذه المرة.

وها هو كل شيء أنت ..ها هي ذي قسنطينة.
من النافذة نفسها التي سبق أن دخلت منها منذ , وها أنت تدخلين إليّ
وخطى النساء الملتحفات , وصوت الباعة ,مع صوت المآذن نفسه .سنوات
والأغاني القادمة من مذياع لا يتعب , بالسواد...

خبريني وعلاش الناس والعة بيك ...يا التفاحة ..يا التفاحة "..
تستوقفني هذه الأغنية بسذاجتها.

تذكرني دون مجال للشك بأنني في مدينه .تضعني وجهاً لوجه مع الوطن
عربيه فتبدو السنوات التي قضيتها في باريس حلماً خرافياً.

هل التغزل بالفواكه ظاهره عربية؟ أم وحده التفاح الذي ما زال يحمل نكهة
شهيّ لحدّ التغنّي به، في أكثر من بلد عربي , خطيئتنا الأولى.

وماذا لو كنت تفاحه؟
.لا لم تكوني تفاحه

كنت تمارسين معي فطرياً .كنت المرأة التي أغرتني بأكل التفاح لا أكثر لأكون معك ,ولم يكن بإمكاني أن أتنكر لأكثر من رجل يسكنني .لعبة حواء !أنت بالذات في حماقة آدم

؟..واش راك اليوم ..أهلا سي خالد-

,وفاجأه وقوفي الصباحي .تسلّقت نظراته طوابق حزني ,يسلّم عليّ الجار .خلف شرفة للذهول

وما يليها من .خطواته المتجهة نحو المسجد المجاور ,أتابع في نظرة غائبة متجهة جميعها نحو ,وأخرى عجلى ,بعضها كسلى ,لمارة آخرين ,خطوات .المكان نفسه

.الوطن كله ذاهب للصلاة

.والمذياع يمجد أكل التفاحة

يقف مقابلا المآذن يرصد القنوات ,وأكثر من جهاز هوائي على السطوح _أكثر من طريقه ,الأجنبية، التي تقدم لك كل ليله على شاشة تلفزيونك !لأكل التفاح _عصريه

.أكتفي بابتلاع ريقي فقط
.ولا كان أمر التفاح يعنيني بالتحديد .في الواقع لم أكن أحب الفواكه

وما ذنبي إن جاءني حبك في شكل خطيئة؟ .كنت أحبك أنت

.يسألني جار ويمضي للصلاة ..كيف أنت
.فيجيب لساني بكلمات مقتضبة، ويمضي في السؤال عنك
كيف أنا؟
فكيف أنتِ ؟ ..أنا ما فعلته بي سيدتي
ملامح مدينه وتضاريس ,يا امرأة كساها حنيني جنوناً، وإذا بها تأخذ تدريجيا .وطن

وكأنني اسكن غرف ذاكرتي المغلقة ,وإذا بي اسكنها في غفلة من الزمن .من سنين
كيف حالك؟
.يا شجرة توت تلبس الحداد وراثيا كل موسم

....يا قسنطينية الأثواب
أجيبي أين تكونين الآن؟ ..والأفراح والأحزان والأحباب ...يا قسنطينية الحب
.

...ها هي ذي قسنطينه
.مجنونة الأطوار, محمومة الشفاه .باردة الأطراف والأقدام
!لو تدرين ...كم تشبهينها اليوم أيضا ..ها هي ذي
.!دعيني أغلق النافذة
:كان مارسيل بانيول يقول
. "أشياء يمكن أن تحدث أيضاً ..تعوّد على اعتبار الأشياء العادية "

والمرض, والزاج, والحب, تماما كالميلاد .أليس الموت في النهاية شيئا عاديا
وأشياء أخرى ؟ ,والغربة والجنون ,والشيخوخة ,

.حتى تحدث, فما أطول قائمة الأشياء العادية التي نتوقعها فوق العادة
وأن الحياة لسبب أو لآخر ستوفر, والتي نعتقد أنها لا تحدث سوى للآخرين
.حتى نجد أنفسنا يوما أمامها, علينا كثيرا منها

أجد أن لقائي بك هو الشيء الوحيد الخارق, عندما ابحث في حياتي اليوم
.الشيء الوحيد الذي لم أكن لأتنبأ به، أو أتوقع عواقبه عليّ .للعادة حقاً
قد تجر معها أيضا كثيرا من, لأنَّني كنت اجهل وقتها أن الأشياء غير العادية
.الأشياء العادية

....ورغم ذلك
أين أضع حبك اليوم ؟ ,ما زلت أتساءل بعد كل هذه السنوات
أفي خانة الأشياء العادية التي قد تحدث لنا يوما كأية وعكه صحية أو زلة
أو نوبة جنون؟ ..قدم
أضعه حيث بدأ يوماً؟ ..أم

أو زلزال. .لم يتوقع وجوده الفلكيون, كهدية من كوكب, كشيء خارق للعادة
.لم تتنبأ به أية أجهزة للهزات الأرضية
.أم زلة قدر ؟ ..أكنتِ زلة قدم

غيّر مسار حياتي "عادي"أقلّب جريدة الصباح بحثا عن أجوبة مقنعه لحدث
.وجاء بي إلى هنا

.فيعلق الوطن حبراً أسود بيدي, أتصفح تعاستنا بعد كل هذه الأعوام

هناك صحف يجب أن تغسل يديك إن تصفحتها وإن كان ليس للسبب نفسه
وأخرى أكثر تألقا تنقل ..فهنالك واحده تترك حبرها عليك .في كل مرة
.عفونتها إليك

تبدو لي جرائدنا وكأنها تستيقظ كل يوم, ألأنّ الجرائد تشبه دائما أصحابها بملامح متعبه وبوجه غير صباحي غسلته على عجل، ونزلت به إلى, مثلنا أو وضع ربطة, هكذا دون أن تكلف نفسها مشقة تصفيف شعرها .الشارع أو إغرائنا بابتسامة ..عنق مناسبة.

25 أكتوبر 1988 .
وقليل من الحياء .كثير من الدم .كثير من الحبر الأسود ..عناوين كبرى.
ببدلة جديدة كل مره ..هناك جرائد تبيعك نفس صور الصفحة الأولى.
....تبيعك نفس الأكاذيب بطريقة أقل ذكاء كل مرّة ..هنالك جرائد
.لا غير ..وهنالك أخرى، تبيعك تذكرة للهروب من الوطن
ولأذهب لغسل يدي ..فلأغلق الجريدة إذن ,وما دام ذلك لم يعد ممكنا.

كان ذلك منذ شهرين تقريبا ,آخر مره استوقفتني فيها صحيفة جزائرية.
وإذا بصورتك تفاجئني على نصف ,عندما كنت أتصفح عن طريق المصادفة
مرفقه بحوار صحافي بمناسبة صدور كتاب جديد لك, صفحه بأكملها.

وعبثا رحت أفكّ رموز .يومها تسمَّر نظري أمام ذلك الإطار الذي كان يحتويك
وكأنني أنا الذي كنت .على عجل ,كنت أقرأك مرتبكاً، متلعثماً .كلامك
عن قصة ربما, ولست أنت التي كنت تتحدثين للآخرين ,أتحدث إليك عني
.لم تكن قصتنا
كيف لم أتوقع بعد تلك السنوات أن !أي موعد عجيب كان موعدنا ذلك اليوم
.في مجلة لا اقرأها عادة, تحجزي لي موعدا على ورق بين صفحتين

إنّه قانون الحماقات، أليس كذلك؟ أن أشتري مصادفة مجلة لم أتعوّد
شراءها، فقط لأقلب حياتي رأساً على عقبٍ
وأين العجب؟
.وتهجر وتعود علي ورق .تحب وتكره على ورق .ألم تكوني امرأة من ورق
.وتقتل وتحيي بجرّة قلم
وكيف لا تعود تلك الرعشة المكهربة لتسري في .فكيف لا أرتبك وأنا أقرأك
جسدي، وتزيد من خفقان قلبي، وكأنني كنت أمامك، ولست أمام صورة
.لك

تساءلت كثيراً بعدها، وأنا أعود بين الحين والآخر لتلك الصورة، كيف عدتِ
هكذا لتتربصي بي، أنا الذي تحاشيت كل الطرق المؤدية إليك؟

وكاد القلب المؤثث بذكراك أن يفرغ .بعدما كاد الجرح أن يلتئم ..كيف عدت
منك شيئاً فشيئاً وأنت تجمعين حقائب الحبّ، وتمضين فجأة لتسكني قلباً
.آخر

..غادرت قلبي إذن
كلّ شيء موقوت .كما يغادر سائح مدينة جاءها في زيارة سياحية منظمة فيها مسبقاً، حتى ساعة الرحيل، ومحجوز فيها مسبقاً، حتى المعالم السياحية التي سيزورها، واسم المسرحية التي سيشاهدها، وعنوان المحلات التي سيشتري منها هدايا للذكرى.
فهل كانت رحلتك مضجرة إلى هذا الحد؟
ها أنا أمام نسخة منك، مدهوش مرتبك، وكأنني أمامك.
شعرك القصير الذي كان شالاً يلف وحشة .تفاجئني تسريحتك الجديدة ماذا تراك فعلت به؟ ..ليلي

أبحث فيهما عن ذكرى هزيمتي الأولى أمامك .أتوقف طويلاً عند عينيك.

فما أشقاني وما .لم يكن أجمل من عينيك سوى عينيك ..ذات يوم أسعدني بهما!
أم أن نظرتي هي التي تغيرت؟ أواصل البحث في ..هل تغيرت عيناك أيضاً أكاد لا أعرف شفاهك ولا ابتسامتك .وجهك عن بصمات جنوني السابق وحمرتك الجديدة.

كيف تصورتك تلبسين ثوبها .أن وجدت فيك شبهاً بأمي ..كيف حدث يوماً العنابي، وتعجنين بهذه الأيدي ذات الأظافر المطلية الطويلة، تلك الكسرة التي افتقدت مذاقها منذ سنين؟

وأية حماقة ..أيّ جنون كان لك!
هل غيّر الزواج حقاً ملامحك وضحكتك الطفولية، هل غيّر ذاكرتك أيضاً، ومذاق شفاهك وسمرتك الغجرية؟

الذي سرقوا منه الوصايا العشر وهو في "النبي المفلس"وهل أنساك ذلك فجاءك بالوصية الحادية عشرة فقط ..طريقه إليك.

ولبست وجهاً .لقد اخترت طريقاً آخر .ها أنت ذي أمامي، تلبسين ثوب الردّة وجهاً كذلك الذي نصادفه في المجلات والإعلانات، لتلك .آخر لم أعد أعرفه النساء الواجهة، المعدات مسبقاً لبيع شيء ما، قد يكون معجون أسنان، أو مرهماً ضد التجاعيد.

أم تراك لبست هذا القناع، فقط لتروّجي لبضاعة في شكل كتاب، أسميتها بضاعة قد تكون قصتي معك "منعطف النسيان"..

دون أن تتركي بصماتك ,وقد تكون آخر طريقه وجدتها لقتلي اليوم من جديد على عنقي.

عندما سألتك مرة لماذا اخترتِ الرواية بالذات .يومها تذكرت حديثاً قديماً لنا.

.وإذا بجوابك يدهشني
:قلت يومها بابتسامة لم أدرك نسبة الصدق فيها من نسبة التحايل

وأتخلص من بعض الأثاث ..كان لا بد أن أضع شيئا من الترتيب داخلي "
إنَّ أعماقنا أيضا في حاجة إلى نفض كأيّ بيت نسكنه ولا يمكن أن .القديم
..أبقي نوافذي مغلقه هكذا على أكثر من جثة
وننتهي من الأشخاص الذين أصبح ,إننا نكتب الروايات لنقتل الأبطال لا غير
وامتلأنا بهواء ...فكلما كتبنا عنهم فرغنا منهم .وجودهم عبئاً على حياتنا
. "...نظيف

:وأضفت بعد شيء من الصمت

وربما .هي جريمة ما نرتكبها تجاه ذاكرة ما ,في الحقيقة كل رواية ناجحة "
ووحده يدري أنَّ تلك .علي مرأى من الجميع بكاتم صوت ,تجاه شخص ما
الكلمة الرصاصة كانت موجّهة إليه
...
لا بد أن تسحب من ,ليست سوى جرائم فاشلة ,والروايات الفاشلة
وقد ,بحجة أنهم لا يحسنون استعمال الكلمات ,أصحابها رخصة حمل القلم
بعدما يكونون قد قتلوا ,بمن في ذلك أنفسهم ..يقتلون خطأ بها أيّ احد
.".ضجراً ...القراء

وكيف لم أتوقع كل جرائمك ..كيف لم تثر نزعتك الساديّة شكوكي يومها
والتي جربت فيها أسلحتك الأخرى؟ ,التي تلت ذلك اليوم

.لم أكن أتوقع يومها انك قد توجهين يوما رصاصك نحوي

في ,فنحن لا نقاوم .وربما بدأ يومها انبهاري الآخر بك ,ولذا ضحكت لكلامك
!جنون الإعجاب بقاتلنا ,هذه الحالات

:قلت .ورغم ذلك أبديت لك دهشتي

..كنت اعتقد أن الرواية طريقه الكاتب في أن يعيش مرة ثانيه قصه أحبها _
.وطريقته في منح الخلود لمن أحب

:وكأنّ كلامي فاجأك فقلت وكأنك تكتشفين شيئا لم تحسبي له حسابا

.فنحن في النهاية لا نقتل سوى من أحببنا ,وربما كان صحيحا أيضا -
!أليس كذلك؟ .إنها صفقه عادلة .ونمنحهم تعويضا عن ذلك خلودا أدبيا
عادله ؟

من يناقش الطغاة في عدلهم أو ظلمهم؟ ومن يناقش نيرون يوم احرق روما

أما كنت مثله امرأة تحترف العشق ,وأنت .وعشقاً لشهوة اللهب ,حباً لها والحرائق بالتساوي؟

...أكنت لحظتها تتنبّأين بنهايتي القريبة، وتواسينني مسبقا على فجيعتي

,و وتتفرجين على وقعها عليّ ,أم كنت تتلاعبين بالكلمات كعادتك
في ,وانبهاري بقدرتك المذهلة ,وتسعدين سرّاً باندهاشي الدائم أمامك
.خلق لغة على قياس تناقضك

...كل الاحتمالات كانت ممكنه

وقررت ,والجثة التي حكمت عليها بالخلود ,فربما كنت أنا ضحية روايتك هذه
.كالعادة ...أن تحنطيها بالكلمات

فوحدك .ومراوغتك التي تشبه الصدق ,و ربما كنت ضحية وهمي فقط
بعناد ,تعرفين في النهاية الجواب على كل تلك الأسئلة التي ظلت تطاردني
.الذي يبحث عن الحقيقة دون جدوى

متى كتبتِ ذلك الكتاب؟

أم كتبته ..أم بعده؟ أكتبته عني ..أقبل زواجك أم بعده؟ أقبل رحيل زياد
أم لتحييه هو ؟ ..عنه؟ أكتبته لتقتليني به
كما تركتنا معاً من أجل رجل ...لم لتنتهي منّا معاً، وتقتلينا معاً بكتاب واحد
واحد ؟

لم أتوقع إطلاقاً أن تعودي فجأة بذلك .,عندما قرأت ذلك الخبر منذ شهرين
.ودائرة مغلقه أدور فيها وحدي ,ليصبح كتابك محور تفكيري ,الحضور الملحّ

أن اذهب للبحث عنه في ,فلا كان ممكنا يومها بعد كل الذي حدث
ولا كان ممكنا أيضا .لأشتري قصتي من بائع مقابل ورقه نقدية ,المكتبات
وكأن أمره لا يعنيني تماما ,أن أتجاهله وأواصل حياتي وكأنني لم اسمع به
.

الم أكن متحرقا إلى قراءة بقية القصة؟

تلك التي .دون أن أعرف فصولها الأخيرة ,قصتك التي انتهت في غفلة مني
حسب ,.أنا الذي كنت .بعدما كنت شاهدها الأول ,كنت شاهدها الغائب
الشاهد والشهيد دائما في قصة لم يكن فيها من .قانون الحماقات نفسه
.مكان سوى لبطل واحد

فتركته هنا على .لم يعد بإمكاني اليوم أن أقرأه ..ها هوذا كتابك أمامي

أستعين بحضوره الصامت, يتربص بي كقنبلة موقوتة ,طاولتي مغلقا كلغز واستفزاز الذاكرة ...لتفجير منجم الكلمات داخلي.

..عنوانه الذي اخترته بمراوغه واضحة ..كل شيء فيه يستفزني اليوم ونظرتك المحايدة التي تعاملني وكأنني .وابتسامتك التي تتجاهل حزني لا يعرف الكثير عنك, قارىء.

حتى اسمك ..كل شيء.
فهو مازال يقفز إلى الذاكرة قبل أن, وربما كان اسمك الأكثر استفزازا لي تقفز حروفه المميزة إلى العين.

لا يُقرأ وإنما يُسمع كموسيقى تُعزف على آلة واحدة من ..اسمك الذي أجل مستمع واحد.
وكتبها, وهو فصل من قصة مدهشه كتبتها الصدفة ,كيف لي أن أقرأه بحياد قدرنا الذي تقاطع يوما؟

يقول تعليق على ظهر كتابك إنه حدث أدبي.
..وأقول وأنا أضع عليه حزمة من الأوراق التي سودتها في لحظة هذيان فما أعجب ما يحدث .أو تصمت إلى الأبد أيها الرجل ..حان لك أن تكتب " "!هذه الأيام

ويزحف ليل قسنطينة نحوي من نافذة, يحسم البرد الموقف ..وفجأة وانزلق بدوري تحت غطاء الوحدة, فأعيد للقلم غطاءه .للوحشة.

الليل الذي يشبهها والذي, مذ أدركت أن لكل مدينةٍ الليل الذي تستحق قررت أن أتحاشى, ويعري في العتمة ما تخفيه في النهار ,وحده يفضحها النظر ليلا من هذه النافذة.

حتى, وتفضح للغرباء أسرارها, كل المدن تمارس التعري ليلا دون علمها عندما لا تقول شيئا.
وحتى عندما توصد أبوابها.
يحدث لبعضهن أن يجعلننا نستعجل قدوم الصباح ,ولأن المدن كالنساء ...ولكن

"soirs, soirs.que de soirs pour un seul matin .."

ورحت اردده على نفسي "هنري ميشو"كيف تذكرت هذا البيت للشاعر بأكثر من لغة..

"أمسيات كم من مساء لصباح واحد ..أمسيات "

تراني كنت أتوقع منذ سنين أمسيات ..ومتى تراني حفظته؟ ,كيف تذكرته لن يكون لها سوى صباح واحد ؟ ,بائسة كهذه

وإذا ,أنقب بعض الشيء في ذاكرتي عن القصيدة التي اخذ منها هذا البيت "الشيخوخة"بعنوانها ..

فهل .فيخيفني اكتشافي فجأة وكأنني أكتشف معه ملامح وجهي الجديدة وبعتمة داخليه تجعلنا .تزحف الشيخوخة هكذا نحونا حقاً بليل طويل واحد دون اتجاه محدد؟ ,ونسير ببطء ,نتمهل في كل شيء

أيكون الملل والضياع والرتابة جزءا من مواصفات الشيخوخة أم من مواصفات هذه المدينة ؟

أم ترى الوطن بأكمله هو الذي يدخل ..تراني أنا الذي ادخل الشخوخة اليوم سن اليأس الجماعي؟

على جعلنا نكبر ونهرم في بضعة ,أليس هو الذي يملك هذه القدرة الخارقة وأحيانا في بضعة أسابيع فقط ؟ ,اشهر
وكان مرسمي ,كان حبّك شبابي ,قبل اليوم لم أكن اشعر بثقل السنين يخجل الواحد ,وكانت باريس مدينه أنيقة ,طاقتي الشمسية التي لا تنضب وأطفأوا ,ولكنهم طاردوني حتى مربع غربتي .أن يهمل مظهره في حضرتها .وجاؤوا بي حتى هنا ...شعلة جنوني

,ولم يعد في وسعنا ,الآن نحن نقف جميعا على بركان الوطن الذي ينفجر اليوم لا ...وننسى نارنا الصغيرة ,إلا أن نتوحد مع الجمر المتطاير من فوهته الوطن نفسه أصبح لا يخجل أن .شيء يستحق كل تلك الأناقة واللياقة !يبدو أمامنا في وضع غير لائق

في العمر الذي يكون فيه الآخرون قد انتهوا من ,لا أصعب من أن تبدأ الكتابة .قول كل شيء
شيء شهواني وجنوني شبيه بعودة ...الكتابة ما بعد الخمسين لأول مرة .المراهقة
وريشة ,شبيه بعلاقة حب بين رجل في سن اليأس ,شيء مثير وأحمق .حبر بكر
!والثانية عذراء لا يرويها حبر العالم ...الأول مرتبك وعلى عجل
وفائض شهوة ,مجرد استعداد للكتابة فقط ,سأعتبر إذن ما كتبته حتى الآن .لهذه الأوراق التي حملت منذ سنين بملئها ...

.ربما غدا ابدأ الكتابة حقا
يكون غمزة ....أحب دائما أن ترتبط الأشياء الهامة في حياتي بتاريخ ما .لذاكره أخرى

وأنا استمع إلى الأخبار هذا المساء, أغرتني هذه الفكرة من جديد
...أن غدا سيكون أول نوفمبر, واكتشف، أنا الذي فقدت علاقتي بالزمن
لأبدأ به هذا الكتاب ؟, فهل يمكن لي ألا أختار تاريخا كهذا

,سنه على انطلاق الرصاصة الأولى لحرب التحرير 34غدا ستكون قد مرت
ومثل ذلك من الزمن على, ويكون قد مر على وجودي هنا ثلاثة أسابيع
...سقوط آخر دفعه من الشهداء
.كان احدهم ذلك الذي حضرت لأشيّعه بنفسي وادفنه هنا

وتغير ..تغيرت الأهداف, تغيرت الصدور, وآخر رصاصه, بين أول رصاصه
.الوطن
.ولذا سيكون الغد يوما للحزن مدفوع الأجر مسبقا
ولا من تبادل, ولا من استقبالات, لن يكون هناك من استعراض عسكري
....تهاني رسميه
.ونكتفي بزيارة المقابر ...سيكتفون بتبادل التهم
.لا أريد أن أتقاسم حزني مع الوطن .غدا لن ازور ذلك القبر
.وكبرياء صمته, أفضل تواطؤ الورق

لن, واشعر أنني قد اكتب أخيرا شيئا مدهشا ..كل شيء يستفزني الليلة
..أمزقه كالعادة

,بعد كل هذه السنوات إلى هنا, فما أوجع هذه الصدفة التي تعود بي
.بتوقيت الذاكرة الأولى, لأجد جثة من أحبهم في انتظاري, للمكان نفسه

.يستدرجني إلى دهاليز الذاكرة .مربكا ...يستيقظ الماضي الليلة داخلي
هل يمكن لي أن أقاوم ذاكرتي هذا المساء ؟, ولكن, فأحاول أن أقاومه
..أغلق باب غرفتي واشرع النافذة
...وإذا النافذة تطل علي .أحاول أن أرى شيئا آخر غير نفسي
وتزحف نحوي قسنطينه ملتحفه ملاءتها, تمتد أمامي غابات الغاز والبلوط
وكل تلك الأدغال والجروف والممرات السرية التي كنت يوما اعرفها, القديمة
,فتوصلك مسالكها المتشعبة, والتي كانت تحيط بهذه المدينة كحزام أمان
وكأنها تشرح لك شجرة, إلى القواعد السرية للمجاهدين, وغاباتها الكثيفة
.ومغارة بعد أخرى, بعد شجره
.تؤدي إلى الصمود, إنّ كل الطرق في هذه المدينة العربية العريقة
.وإنّ كل الغابات والصخور هنا قد سبقتك في الانخراط في صفوف الثورة
...هنالك مدن لا تختار قدرها
...ألا تستسلم, كما حكمت عليها الجغرافيا, فقد حكم عليها التاريخ
.ولذا لا يملك أبناؤها الخيار دائما

فهل عجبٌ أن أشبه هذه المدينة حد التطرف ؟

واخترت أن تكون تلك ,ذات يوم منذ أكثر من ثلاثين سنه سلكت هذه الطرق الجبال بيتي ومدرستي السرية التي أتعلم فيها المادة الوحيدة الممنوعة وان ,وكنت ادري انه ليس من بين خريجيها من دفة ثالثه .من التدريس والموت ..قدري سيكون مختصرا بين المساحة الفاصلة بين الحرية.

ذلك الموت الذي اخترنا له اسما آخر أكثر إغراءً، لنذهب دون خوف وربما وكأننا نذهب لشيء آخر غير حتفنا ,بشهوة سريه.

لماذا نسينا يومها أن نطلق على الحرية أيضا أكثر من اسم؟ وكيف اختصرنا في مفهومها الأول ؟ ....منذ البدء حريتنا

وينام ويأخذ كسرته معنا على عجل ,كان الموت يومها يمشي إلى جوارنا. والسعادة المبهمة التي لا تفارقنا ..تماما مثل الشوق والصبر والإيمان.

لا تختلف ,وكانت الأيام تعود قاسيه دائما ..كان الموت يمشي ويتنفس معنا الذين لم يكن يتوقع احد موتهم على ,عما سبقتها سوى بعدد شهدائها ,هم بالذات ,أن تكون نهايتهم ,أو لم يكن يتصور لسبب أو لآخر ..الغالب وكان ذلك منطق الموت .ومفجعه إلى ذلك الحد ..قريبه إلى ذلك الحد الذي لم أكن قد أدركته بعد.

وكأنَّ .ما زلت اذكرهم أولئك الذين تعودنا بعد ذلك أن نتحدث عنهم بالجملة وإنما لحقهم علينا ,الجمع في هذه الحالة بالذات، ليس اختصارا للذاكرة. كان هناك من .كان كل واحد منهم شهيدا على حده ..لم يكونوا شهداء وكأنه جاء خصيصا للشهادة ,استشهد في أول معركة.
بعدما قضى ,وهناك من سقط قبل زيارته المسروقة إلى أهله بيوم واحد والإعداد لها ,عدة أسابيع في دراسة تفاصيلها.
ليموت متزوجا ..وهناك من تزوج وعاد.
ولم يعد ...وهناك من كان يحلم أن يعود يوما لكي يتزوج.
إنّ الأتعس هم أولئك ,ليس الذين يموتون هم التعساء دائما ,في الحروب ومعطوبي أحلام ,يتامى ,الذين يتركونهم خلفهم ثكالى.

..اكتشفت هذه الحقيقة باكراً، شهيداً بعد آخر، وقصة بعد أخرى
واكتشفت في المناسبة نفسها، أنني ربما كنت الوحيد الذي لم يترك خلفه سوى قبر طريّ لأم ماتت مرضاً وقهراً، وأخٍ فريد يصغرني بسنوات، وأب مشغول بمطالب عروسه الصغيرة.

وحده ..إن الذي مات أبوه لم يتيتَّم"لقد كان ذلك المثل الشعبي على حقّ الذي ماتت أمه يتيم".

فالجوع إلى الحنان، .وكنت يتيماً، وكنت أعي ذلك بعمق في كل لحظة

شعور مخيف وموجع، يظل ينخر فيك من الداخل ويلازمك حتى يأتي عليك بطريقة وبطريقة أو بأخرى.

أكان التحاقي بالجبهة آنذاك محاولة غير معلنة للبحث عن موت أجمل خارج تلك الأحاسيس المرضية التي كانت تملأني تدريجياً حقداً على كل شيء؟

كانت الثورة تدخل عامها الثاني، ويتمي يدخل شهره الثالث، ولم أعد أذكر الآن بالتحديد، في أية لحظة بالذات أخذ الوطن ملامح الأمومة، وأعطاني ما لم أتوقّعه من الحنان الغامض، والانتماء المتطرِّف له.

من حينا بسيدي المبروك منذ بضعة أشهر، دور في حسم القضية، واستعجالي في أخذ ذلك القرار المفاجئ. "سي الطاهر"وربما كان لاختفاء فلم يكن يخفى على أحد أنه انتقل إلى مكان سري في الجبال المحيطة بقسنطينة ليؤسس من هناك مع آخرين إحدى الخلايا الأولى للكفاح المسلح.

الليلة ليزيد من ارتباكي، ومن منكما استدرجني للآخر؟ "سي طاهر"من أين عاد اسم.
وهل غاب حقاً، وعلى بعد شارعين مني شارع مازال يحمل اسمه؟ ..من أين عاد

"سلطة الاسم"هناك شيء اسمه.
وهناك أسماء عندما تذكرها، تكاد تصلح من جلستك، وتطفئ سيجارتك.
تكاد تتحدث عنها وكأنك تتحدث إليها بنفس تلك الهيبة وذلك الانبهار الأول.

لم تقتله العادة ولا المعاشرة، هيبته عندي (سي طاهر)ظلّ لاسم ..ولذا ولم تحوله تجربة السجن المشترك، ولا سنوات النضال، إلى اسم عاديّ فالرموز تعرف دائماً كيف تحيط نفسها بذلك الحاجز لصديق أو لجار. اللامرئي، الذي يفصل بين العادي والاستثنائي، والممكن والمستحيل، في كل شيء.
ها أنذا أذكره في ليلة لم أحجزها له..

وبينما أسحب نفساً من سيجارة أخيرة، يرتفع صوت المآذن معلناً صلاة الفجر. ومن غرفة بعيدة يأتي بكاء طفل أيقظ صوته أنحاء كل البيت..
فأحسد المآذن، وأحسد الأطفال الرضّع، لأنهم يملكون وحدهم حق الصراخ والقدرة عليه، قبل أن تروض الحياة حبالهم الصوتية، وتعلّمهم الصمت.

يقضي الإنسان سنواته الأولى في تعلم النطق، وتقضي "لا أذكر من قال الأنظمة العربية بقية عمره في تعليمه الصمت!".
وكان يمكن للصمت أن يصبح نعمة في هذه الليلة بالذات، تماماً كالنسيان. فالذاكرة في مناسبات كهذه لا تأتي بالتقسيط، وإنما تهجم عليك شلالاً

.يجرفك إلى حيث لا تدري من المنحدرات
وكيف لك لحظتها أن توقفها دون أن تصطدم بالصخور، وتتحطم في زلّة ذكرى؟
وها أنت ذا، تلهث خلفها لتلحق بماضٍ لم تغادره في الواقع، وبذاكرة تسكنها لأنها جسدك.
.جسدك المشوه لا غير

وتدري أنّ هناك من يلهثون الآن من منبر إلى آخر، بحجة أو بأخرى، ليدينوا عساهم يلحقون بالموجة الجديدة، قبل أن يجرفهم .تاريخاً كانوا طرفاً فيه فلا تملك إلا أن تشفق عليهم .الطوفان.

وألا ..خارجاً لتوه من مستنقع ..ما أتعس أن يعيش الإنسان بثياب مبللة يصمت قليلاً في انتظار أن تجف!

.الليلة (سي طاهر)صامتاً يأتي
.صامتاً كما يأتي الشهداء
.كعادته ..صامتاً

.وها أنت ذا مرتبك أمامه كعادتك

.لقد كانت دائماً الخمس عشرة سنة التي تفصلكما، أكبر من عمر السنوات كانت عمراً بحد ذاتها، ورمزاً بحد ذاتها، لرجل كان يجمع إلى جانب الفصاحة التي كان يتميز بها كل من اختلط بجمعية العلماء، ودرس في قسنطينة، هي فصاحة الحضور ..فصاحة أخرى.

ويعرف كيف يتكلم، .يعرف متى يبتسم، ومتى يغضب (سي طاهر)كان وكانت الهيبة لا تفارق وجهه ولا تلك الابتسامة .ويعرف أيضاً كيف يصمت الغامضة التي كانت تعطي تفسيراً مختلفاً لملامحه كل مرة.

"وقليل من الناس أولئك ..إن الابتسامات فواصل ونقاط انقطاع الذين ما زالوا يتقنون وضع الفواصل والنقط في كلامهم".*

كان .(سي طاهر)كان موعدي النضالي الأول مع (الكديا)في سجن ..موعداً مشحوناً بالأحاسيس المتطرفة، وبدهشة الاعتقال الأول، بعنفوانه وبخوفه.

الذي استدرجني إلى الثورة يوماً بعد آخر، يدري أنه (سي طاهر)وكان وربما كان يشفق سراً على سنواتي .مسؤول عن وجودي يومها هناك التي كان يعرفها جيداً، (أمّا)الست عشرة، على طفولتي المبتورة، وعلى ويعرف ما يمكن أن تفعله بها تجربة اعتقالي الأول.
لقد " :ولكنه كان يخفي عنّي كل شفقته تلك، مردداً لمن يريد سماعه

".خلقت السجون للرجال

وقتها، ككل سجون الشرق الجزائري يعاني فجأة من (الكديا)وكان سجن التي قدّمت فيها قسنطينة 1945ماي 8فائض رجولة، إثر مظاهرات وسطيف وضواحيها أول عربون للثورة، متمثلاً في دفعة أولى من عدّة آلاف من الشهداء سقطوا في مظاهرة واحدة، وعشرات الآلاف من المساجين الذين ضاقت بهم الزنزانات، مما جعل الفرنسيين يرتكبون أكبر حماقاتهم، وهو يجمعون لعدة أشهر بين السجناء السياسيين، وسجناء الحق العام، .في زنزانات يجاوز أحياناً عدد نزلائها العشرين معتقلاً

وهكذا، جعلوا عدوى الثورة تنتقل إلى مساجين الحق العام الذين وجدوا فرصة للوعي السياسي، ولغسل شرفهم بالانضمام إلى الثورة التي ومازال بعضهم حتى الآن على .استشهد بعد ذلك من أجلها الكثير منهم قيد الحياة، يعيش بتكريم ووجاهة القادة التاريخيين لحرب التحرير، بعدما بينما وجد .لعذريته الأولى ..تكفّل التاريخ بإعادة سجلّ سوابقهم العدلية فرصة للتعرف _في تلك الحماقة الاستعمارية _بعض السجناء السياسيين والتخطيط ..على بعض، ووقتاً كافياً للتشاور والتفكير في أمور الوطن .للمرحلة القادمة

عندما أذكر تلك التجربة، تبدو لي لكثافتها ودهشتها، وكأنها أطول ..اليوم قضيتها .رغم أنها لم تدم بالنسبة لي سوى ستة أشهر فقط .مما كانت هناك قبل أن يطلق سراحي أنا واثنين آخرين لصغر سننا ولأنه كان هناك .من يهمهم أمرهم، أكثر منّا

وهكذا عدت إلى ثانوية قسنطينة، بعدما أخلفت هاماً دراسياً، لأجد البرنامج ..نفسه وكتب الفلسفة نفسها والأدب الفرنسي في انتظاري
وحدهم بعض رفاق الدارسة كانوا ما يزالون ضمن المتغيّبين، بين مساجين .وشهداء
أغلبهم طلبة في الصفوف العليا التي كان مقرراً أن تتخرج منها أول دفعة .من المثقفين والموظفين الجزائريين المفرنسين

وكان ذلك شرفهم، أولئك الذين راهن البعض على خيانتهم، فقط لأنهم اختاروا الثانويات والثقافة الفرنسية، في مدينة لا يمكن لأحد فيها أن .يتجاهل سلطة اللغة العربية، وهيبتها في القلوب والذاكرة

فهل عجب أن يكون من بين الذين سجنوا وعذّبوا بعد تلك المظاهرات، الكثير منهم، هم الذين كانوا بحكم ثقافتهم الغربية يتمتعون بوعي .وفائض أحلام ..سياسي مبكر، وبفائض وطنية

والذين أدركوا، والحرب العالمية تنتهي لصالح فرنسا والحلفاء، أنّ فرنسا استعملت الجزائريين، ليخوضوا حرباً لم تكن حربهم، وأنهم دفعوا آلاف

.الموتى في معارك لا تعنيهم، ليعودوا بعد ذلك إلى عبوديتهم

في الزنزانة نفسها شيء (سي الطاهر)كان في مصادفة وجودي مع أسطوري بحد ذاته، وتجربة نضالية ظلّت تلاحقني لسنوات بكل تفاصيلها، فهناك رجال عندما تلتقي بهم .وربما كان لها بعد لك أثر في تغيّر قدري .تكون قد التقيت بقدرك

استثنائياً في كلِّ شيء، وكأنه كان يعد نفسه منذ (سي الطاهر)كان .البدء، ليكون أكثر من رجل

كان فيه شيء من سلالة طارق بن زياد، والأمير عبد .لقد خلق ليكون قائداً .الطارق، وأولئك الذين يمكنهم أن يغيروا التاريخ بخطبة واحدة

.وكان الفرنسيون الذين عذّبوه وسجنوه لمدة ثلاث سنوات يعرفون ذلك جيداً سيأخذ بثأره منهم بعد ذلك (سي الطاهر)ولكنهم كانوا يجهلون أنّ بسنوات، ويصبح الرأس المطلوب بعد كل عملية يقوم بها المجاهدون في .الشرق الجزائري

سي)أن يعود القدر بعد عشر سنوات تماماً، ليضعني مع ..أيّ صدفة !في تجربة كفاحية مسلحة هذه المرّة (طاهر

.وفي شهر أيلول بالذات، التحقت بالجبهة ..1955سنة
كان رفاقي يبدأون سنة دراسية ستكون الحاسمة، وكنت في عامي .الخامس والعشرين أبدأ حياتي الأخرى
لم يسألني عن أيّة .لي فاجأني وقتها (سي طاهر)أذكر أنَّ استقبال لم يسألني حتى كيف أخذت قرار .تفاصيل خاصة عن حياتي أو دراستي ظلَّ يتأملني قبل أ، .التحاقي بالجبهة، ولا أيّ طريق سلكت لأصل إليه .يحتضنني بشوق وكأنَّه كان ينتظرني هناك منذ سنة
:ثم قال
!..جئت -
:وأجبته بفرح وبحزن غامض معاً
!جئت -

هكذا أحياناً، يكون موجزاً حتَّى في فرحته؛ فكنت موجزاً (سي الطاهر)كان .معه في حزني أيضاً

بالتحديد، فأجبته أنها توفيت (أمّا)سألني بعدها عن أخبار الأهل، وأخبار وأعتقد أنه فهم كلّ شيء، فقد قال وهو يربت على .منذ ثلاثة أشهر
:كتفي، وشيء شبيه بالدمع يلمع في عينيه
.رحمها الله، لقد تعذبت كثيراً -
..ثم ذهب في تفكيره بعيداً إلى حيث لا أدري

بعدها حسدت تلك الدمعة المفاجئة في عينيه، والتي رفع بها أمي إلى يبكي سوى (سي الطاهر)فلم يحدث لي أن رأيت .مرتبة الشهداء وتمنيت طويلاً بعد ذلك أن أمدد جثماناً بين يديه، لأتمتع .الشهداء من رجاله ولو بعد موتي بدمعة مكابرة في عينيه.

ألكلّ هذا تقلصت عائلتي فجأة في شخصه، ورحت أتفانى في إثبات على موتي؛ ,بطولتي له، وكأنني أريد أن أجعله شاهداً على رجولتي أ شاهداً على أنني لم أعد أنتسب إلى أحد غير هذا الوطن، وأنني لم أترك خلفي سوى قبر لامرأة كانت أمي، وأخ يصغرني اختار له أبي مسبقاً امرأة ستصبح أمه.

كنت ألقي بنفسي على الموت في كل مرّة، وكأنني أتحداه أو كأنني أريد بذلك أن يأخذني بدل رفاقي الذين تركوا خلفهم أولادهم وأهلهم ينتظرون عودتهم.
وكنت كل مرة أعود أنا ويسقط آخرون، وكأن الموت قرر أن يرفضني..
بعد أكثر من معركة ناجحة اشتركت فيها، قد بدأ تدريجياً (سي طاهر)وكان يعتمد عليّ في المهمات الصعبة، ويكلفني بالمهمات الأكثر خطورة، تلك ورفعني بعد سنتين إلى رتبة ملازم .التي تتطلب مواجهة مباشرة مع العدو لأتمكن من إدارة بعض المعارك وحدي، وأخذ القرارات العسكرية التي يقتضيها كل ظرف.

بدأت وقتها فقط أتحول على يد الثورة إلى رجل، وكأن الرتبة التي كنت وطفولتي ..أحملها قد منحتني شهادة بالشفاء من ذاكرتي.
وكنت آنذاك سعيداً وقد بلغت أخيراً تلك الطمأنينة النفسية التي لا تمنحنا إياها سوى راحة الضمير.
لم أكن أعي أنّ طموحاتي لا علاقة لها بالمكتوب وأنّ القدر كان يتربص بي في ذلك الوقت الذي كنت أعتقد فيه أن لا شيء بعد اليوم يمكن أن يعيدني إلى حزني السابق.

لتقلب يوماً كل "باتنة"وجاءت تلك المعركة الضارية التي دارت على مشارف شيء..
فقد فقدنا فيها ستة مجاهدين، وكنت فيها أنا من عداد الجرحى بعدما اخترقت ذراعي اليسرى رصاصتان، وإذا بمجرى حياتي يتغير فجأة، وأنا أجد نفسي من ضمن الجرحى الذين يجب أن ينقلوا على وجه السرعة إلى سوى بتر ذراعي ..ولم يكن العلاج بالنسبة لي .الحدود التونسية للعلاج ولم يكن هناك من مجال للنقاش .اليسرى، لاستحالة استئصال الرصاصتين كان النقاش فقط، حول الطرق الآمنة التي يمكن أن نسلكها حتى .أو التردد تونس، حيث كانت القواعد الخلفية للمجاهدين.

وها أنذا أمام واقع آخر..

ها هو ذا القدر يطردني من ملجأي الوحيد، من الحياة والمعارك الليلية، ويخرجني من السرية إلى الضوء، ليضعني أمام ساحة أخرى، ليست وشرفة أتفرج منها على ما ..ساحة للألم فقط .للموت وليست للحياة يومها، (سي طاهر)فلقد بدا واضحاً من كلام .يحدث في ساحة القتال .أنني قد لا أعود إلى الجبهة مرّة ثانية

أن يحافظ على نبرته الطبيعية، (سي طاهر)في ذلك اليوم الأخير، حاول ولكن هذه المرة كان .وراح كما كان يودعني كل مرة قبل معركة جديدة .يدري أنه يعدّني لتحمل معركتي مع القدر

لأنه ليس هناك من تعليمات ..غير أنه كان موجزاً على غير عادته، ربما وربما لأنه كان يتكبد يومها أكبر خسارة ..خاصة تعطى في هذه الحالات .بشرية ويفقد في معركة واحدة عشرة من خيرة رجاله بين جرحى وقتلي وكان يدري، والثورة مطوقة من كل جانب، قيمة كلّ مجاهد وحاجة الثورة .إلى كل رجل على حدة

..ولم أقل له شيئاً ذلك اليوم

.كنت أشعر، لسبب غامض، أنني أصبحت يتيماً مرة أخرى
كنت أنزف، وكان ألم ذراعي ينتقل .كانت دمعتان قد تجمدتا في عينيّ ..غصّة الخيبة والألم .تدريجياً إلى جسدي كله، ويستقر في حلقي غصة .والخوف من المجهول

كانت الأحداث تجري مسرعة أمامي، وقدري يأخذ منحىً جديداً بين ساعة وهو يعطي تعليماته الأخيرة، كان يصل (سي طاهر)وأخرى، ووحده صوت .إليّ حيث كان، ليصبح صلتي الوحيدة مع العالم

وبرغم ذلك، مازلت أذكر تماماً حضوره الأخير، عندما جاء يتفقدني قبل سفري بساعة، ووضع ورقة صغيرة في جيبي وبعض الأوراق النقدية، وقال :وهو ينحني عليّ وكأنه يودعني سراً
أتمنى أن تذهب لزيارتهم حين تشفى ..لقد قُدّر لك أن تصل إلى هناك"
لتشتري به هدية للصغيرة، وأود أيضاً أن تقوم (أمّا)وتسلّم هذا المبلغ إلى فقد يمر وقت طويل قبل أ، ..بتسجيلها في دار البلدية لو استطعت ذلك ".."..أتمكن من زيارتهم
وعاد بعد لحظات وكأنه نسي شيئاً ليضيف شبه مرتبك وهو يلفظ ذلك ..الاسم لأول مرة

"..لقد اخترت لها هذا لاسم ..
"..(أمّا)وسلّم كثيراً على

سمعته وأنا في لحظة نزيف بين ..كانت تلك أول مرة سمعت فيها اسمك

الموت والحياة، فتعلقت في غيبوبتي بحروفه، كما يتعلق محموم في لحظة هذيان بكلمة..
كما يتعلق رسول بوصية يخاف أن تضيع منه..
كما يتعلق غريق بحبال الحلم.
بين ألف الألم وميم المتعة كان اسمك.
فكيف لم أحذر اسمك الذي ولد وسط .ولام التحذير ..تشطره حاء الحرقة
كيف لم أحذر اسماً يحل .الحرائق الأولى، شعلة صغيرة في تلك الحرب
الجمع _كيف لم أحذر هذا الاسم المفرد .الألم واللذة معاً "آح"ضده ويبدأ بـ
!كاسم هذا الوطن، وأدرك منذ البدء أن الجمع خلق دائماً ليقتسم

:بين الابتسام والحزن، يحدث اليوم أن أستعيد تلك الوصية

وأضحك من القدر، وأضحك من نفسي، ومن غرابة "..قبّلها عني"
.المصادفات

ثمَّ أعود وأخجل من وقار صوته، ومن مسحة الضعف النادرة التي غلّفت جملته تلك، هو الذي كان يريد أن يبدو أمامنا دائماً، رجلاً مهيباً لا هموم له سوى هموم الوطن، ولا أهل له غير رجاله..

لقد اعترف لي أنَّه رجل ضعيف؛ يحنّ ويشتاق وقد يبكي ولكن، في حدود .فليس من حقّ الرموز أن تبكي شوقاً .الحياء، وسراً دائماً
تراه لم يحنّ إليها، هي العروس التي لم يتمتع بها ..إنه لم يذكر أمكِ مثلاً .غير أشهر مسروقة من العمر وتركها حاملاً
ولماذا هذا الاستعجال المفاجئ؟ لماذا لا ينتظر بعض الوقت ليرتِّب قضية غيابه لأيام، ويقوم هو نفسه بتسجيلكِ؟

..ولماذا أنا بالذات ..لقد انتظر ستة أشهر، فلماذا لا ينتظر أسابيع أخرى

أيّ قدر جعلني أحضر إلى هناك بتوقيتك؟

.كلما طرحت على نفسي هذا السؤال، دهشت له وآمنت بالمكتوب
برغم مسؤولياته أن يهرب ليوم أو ليومين إلى (سي طاهر)فقد كان بإمكان ولم تكن قضية عبور الحدود بحراستها المشددة ودورياتها وكمائنها .تونس المكهرب والمفروش بالألغام، (خط موريس)لتخيفه، ولا حتى اجتياز والممتد بين الحدود التونسية الجزائرية من البحر إلى الصحراء، والذي اجتازه فيما بعد ثلاث مرات، وهو رقم قياسي بالنسبة لعشرات المجاهدين .الذين تركوا جثثهم على امتداده

للانضباط، واحترامه للقوانين هو الذي خلق عنده (سي طاهر)أكان حبّ ذلك الشعور بالقلق بعد ميلادك، وهو يكتشف عاجزاً أنه أب منذ شهور لطفلة لم يمنحها اسماً، ولم يتمكن حتى من تسجيلها؟

أم كان يخاف، هو الذي انتظرك طويلاً، أن تضيعي منه إن هو لم يرسخ وجودك وانتسابك له على ورقة رسمية عليها ختم رسمي؟

أكان يتشاءم من وضعك القانوني هذا، ويريد أن يسجل أحلامه في دار وأنَّ القدر لن يعود ليأخذها منه، ..البلدية، ليتأكد من أنها تحولت إلى حقيقة هو الذي كان حلمه في النهاية أن يصبح أباً كالآخرين بعد محاولة زواج فاشلة لم يرزق منها ذرّية؟

..في أعماقه يفضّل لو كان مولوده صبيّاً (سي الطاهر)ولا أدري إذا كان أدري فقط، كما علمت فيما بعد، أنه حاول أن يتحايل على القدر وأن يترك وربما فعل .قبل سفره اسماً احتياطياً لصبي،متجاهلاً احتمال مجيء أنثى فقد كانت ..ذلك أيضاً بعقلية عسكرية، وبهاجس وطني دون أن يدري أحاديثه وخططه العسكرية تبدأ غالباً بتلك الجملة التي كثيراً ما سمعته "..لازمنا رجال يا جماعة"يردِّدها

يبدو سعيداً ومتفائلاً في كلّ شيء في تلك (سي طاهر)إذن، لهذا كان ..الفترة

.أصبح أكثر مرونة وأكثر دعابة في أوقات فراغه .فجأة تغيّر الرجل الصلب شيء ما كان يتغير تدريجياً داخله، ويجعله أقرب إلى الآخرين، وأكثر تفهماً .لأوضاعهم الخاصة
فقد أصبح يمنح البعض بسهولة أكثر تسريحات لزيارة خاطفة يقومون بها لقد غيّرته الأبوّة المتأخرة، .إلى أهلهم، هو الذي كان يبخل بها على نفسه ..التي جاءت رمزاً جاهزاً لمستقبل أجمل

.كانت أنتِ ..معجزة صغيرة للأمل

* الجمل المكتوبة بخط مميز مأخوذة عن تواطؤ شعري من روايتي مالك "سأهبك غزالة"حداد

..طلع صباح آخر
وها هو ذا النهار يفاجئني بضجيجه الاعتيادي، وبضوئه المباغت الذي يدخل .النور إلى أعماقي غصباً عني، فأشعر أنه يختلس شيئاً مني
.أكره هذا الجانب الفضولي والمحرج للشمس ..في هذه اللحظة
قصتي معك شريط مصور أخاف أن يحرقه .أريد أن أكتب عنك في العتمة

..الضوء ويلغيه، لأنك امرأة نبتت في دهاليزي السرية
..لأنك امرأة امتلكتها بشرعية السرية
.لا بد أن أكتب عنك بعد أن أسدل كلّ الستائر، وأغلق نوافذ غرفتي

يسعدني في هذه اللحظة منظر الأوراق المكدسة أمامي، ..ورغم ذلك
فقد أهديتها لك مغلّفة بصورة .والتي ملأتها البارحة، في ليلة نذرتها للجنون
..مهذبة في كتاب

..وأدري
وأن لا شيء ..وأنَّك أنانية جداً ..أدري أنَّك تكرهين الأشياء المهذّبة جداً
.وجسدك أنت ..يعنيك في النهاية، خارج حدودك أنت
.ولكن قليلاً من الصبر سيّدتي

صفحات أخرى لا بد .ثم أعرِّي أمامك ذاكرتي الأخرى ..صفحات أخرى فقط
..فالكتب كوجبات الحبّ .وندماً وجنوناً ..وشهوة ..منها، قبل أن أملأك غروراً
ليست "المقدمات"وإن كنت أعترف أنّ ..لا بدّ لها من مقدّمات أيضاً
.مشكلتي الآن بقدر ما يربكني البحث عن منطلق لهذه القصة

من أين أبدأ قصتي معك؟
.ولقصتك معي عدّة بدايات، تبدأ مع النهايات غير المتوقعة ومع مقالب القدر
عمّن تراني أتحدَّث؟ أعن طفلة كانت تحبو يوماً عند ..وعندما أتحدث عنك
أم عن امرأة ..أم عن صبية قلبت بعد خمس وعشرين سنة حياتي ..قدمي
.. "منعطف النسيان"تكاد تشبهك، أتأملها على غلاف كتاب أنيق عنوانه
أنتِ؟ ..أتراها حقاً :وأتساءل

وعندما أسميك فبأي اسم؟
تُرى أدعوك بذلك الاسم الذي أراده والدك، وذهبت بنفسي لأسجله نيابة
عنه في سجلات البلدية، أم باسمك الأول، ذلك الذي حملته خلال ستة
أشهر في انتظار اسم شرعي آخر؟

.."حياة"

..إنه أحد أسمائك فقط .ليس هذا اسمك على كل حال ..سأدعوك هكذا
فلأسمينَّك به إذن مادام هذا الاسم الذي عرفتك به، والاسم الذي أنفرد
اسمك غير المتداول على الألسنة، وغير المسجّل على صفحات .بمعرفته
.الكتب والمجلات، ولا في أيّ سجلات رسمية

الاسم الذي مُنحته لتعيشي وليمنحك الله الحياة والذي قتلته أنا ذات يوم،
وأنا أمنحك اسماً رسمياً آخر، ومن حقي أن أحييه اليوم، لأنه لي ولم يُنادِكِ
.رجل قبلي يه

اسمك الطفولي الذي يحبو على لساني، وكأنك أنت منذ خمس وعشرين سنة. تقول لي كلاماً لا أفهمه..
وكلما لفظته، عدت طفلة تجلس على ركبتي وتعبث بأشيائي
فأغفر لك لحظتها كلّ خطاياك.
وإذا بك ..كلما لفظته تدحرجت إلى الماضي، وعدت صغيرة في حجم دمية ابنتي.
هل أقرأ كتابك لأعرف كيف تحولت تلك الطفلة الصغيرة إلى امرأة؟ ولكنَّني أعرف مسبقاً أنك لن تكتبي عن طفولتك ولا عن سنواتك الأولى..

أنت تملئين ثقوب الذاكرة الفارغة بالكلمات فقط، وتتجاوزين الجراح بالكذب، وربما كان هذا سر تعلقك بي؛ أنا الذي أعرف الحلقة المفقودة من عمرك، وأعرف ذلك الأب الذي لم تريه سوى مرَّات قليلة في حياتك، وتلك المدينة التي كنت تسكنينها ولا تسكنك، وتعاملين أزقَّتها دون عشق، وتمشين وتجيئين على ذاكرتها دون انتباه.

وأنا الذي تعلّقت بك لأنسى ..أنت التي تعلقتِ بي لتكتشفي ما تجهلينه أكان ممكناً لحبنا أن يدوم؟ ..ما كنت أعرفه

طرفاً ثالثاً في قصتنا من البدء حتى عندما لا نتحدث عنه، (سي طاهر)كان كان بيننا حاضراً بغيابه، فهل أقتله مرة ثانية لأتفرَّد بك؟

لو تدرين ما أثقل حمل الوصايا، حتَّى بعد ربع قرن، وما أوجع ..آه لو تدرين الشهوة التي يواجهها أكثر من مستحيل وأكثر من مبدأ فلا يزيدها في اشتهاء ...النهاية إلا!

..كان السؤال منذ البداية
مرذاكرتي، وألغي عمره من عمري، لأمنح (سي طاهر)كيف لي أن ألغي حبّنا فرصة ولادة طبيعية؟
ما الذي سيبقى وقتها، لو أخرجتك من ذاكرتنا المشتركة وحولتك ..ولكن إلى فتاة عادية؟
وقائداً فوق العادة ..كان والدك رفيقاً فوق العادة.
فهل أنسى ذلك؟ .كان استثنائياً في حياته وفي موته
لم يكن من المجاهدين الذين ركبوا الموجة الأخيرة، لضمنوا مستقبلهم، ولا كان من شهداء المصادفة، الذين .وأبطال المعارك الأخيرة (62)مجاهدي فاجأهم الموت في قصف عشوائي، أو في رصاصة خاطئة.

كان من طينة ديدوش مراد، ومن عجينة العربي بن مهيدي، ومصطفى بن بولعيد، الذين كانوا يذهبون إلى الموت ولا ينتظرون أن يأتيهم.

وسؤالك الدائم يعيد لاسمه هيبته حياً وشهيداً؟ ..فهل أنسى أنّه والدك حدثني " ...ويبقى صدى سؤالك مائلاً .فيرتبك القلب الذي أحبّك حدّ الجنون

"..عنه

تاريخهم جاهز .فلا أسهل من الحديث عن الشهداء ..سأحدثك عنه حبيبتي ونهايتهم تغفر لهم ما يمكن أن يكونوا قد ارتكبوا .ومعروف مسبقاً كخاتمتهم من أخطاء.
..(سي طاهر)سأحدِّثك عن

.فوحده تاريخ الشهداء قابل للكتابة، وما تلاه تاريخ آخر يصادر الأحياء
فهناك علامات ..وسيكتبه جيل لم يعرف الحقيقة ولكنه سيستنتجها تلقائياً لا تخطئ.
لا شيء في يده غير .طاهراً على عتبات الاستقلال (سي طاهر)مات
لا شيء على أكتافه ..لا شيء في جيوبه غير أوراق لا قيمة لها .سلاحه سوى وسام الشهادة.
..الرموز تحمل قيمتها في موتها
ووحدهم الذين ينوبون عنهم، يحملون قيمتهم في رتبهم وأوسمتهم الشرفيّة، وما ملأوا به جيوبهم على عجل من حسابات سرّية.

ست ساعات من الحصار والتطويق، ومنن القصف المركّز لدشرة بأكملها ليتمكن قتلته من نشر صورته على صفحات جرائد الغد كدليل على الذين أقسمت فرنسا "الفلّاقة"انتصاراتهم الساحقة على أحد المخرّبين و أن تأتي عليهم..

أكان حقاً موت ذلك الرجل البسيط انتصاراً لقوة عظمى، كانت ستخسر بعد بضعة أشهر الجزائر بأكملها؟!

.، دون أن يتمتع بالنصر ولا بقطف ثماره1960استشهد هكذا في صيف
ها هو رجل أعطى الجزائر كلّ شيء، ولم تعطه حتى فرصة أن يرى ابنه يمشي إلى جواره..
.أو يراك أنت ربما طبيبة أو أستاذة كما كان يحلم
!كم أحبّك ذلك الرجل

بحنان الذي كان يخفي خلف صرامته الكثير من ..بجنون أبوّة الأربعين الحنان، بأحلام الذي صودرت منه الأحلام، بزهو المجاهد الذي أدرك وهو يرى مولده الأول، أنه لن يموت تماماً بعد اليوم.

مازلت أذكر المرّات القليلة التي كان يحضر فيها إلى تونس لزيارتكم خلسة ليوم واحد أو ليومين.
وكنت وقتها أسرع إليه متلهِّفاً لسماع آخر الأخبار، وتطورات الأحداث على الجبهة. وأنا أجهد نفسي في الوقت نفسه حتى لا أسرق منه تلك الساعات القليلة النادرة، التي كان يغامر بحياته ليقضيها برفقة عائلته الصغيرة.

.كنت أندهش وقتها، وأنا أكتشف فيه رجلاً آخر لا أعرفه
رجل بثياب أخرى، بابتسامة وكلمات أخرى، وبجلسة يسهل له فيها
.إجلاسك على ركبته طوال الوقت لملاعبتك

كان يعيش كل لحظة بأكملها، وكأنه يعتر من الزمن الشحيح كل قطرات السعادة؛ وكأنه يسرق من العمر مسبقاً، ساعات يعرفها معدودة؛ ويمنحك
.مسبقاً من الحنان زادك لعمر كامل
وكان حضر ليشهد أهم .1960كانت آخر مرة رأيته فيها، في يناير سنة
، فقد كانت أمنيته "ناصر"حدث في حياته؛ ليتعرف على مولوده الثاني
..وحدَّثته قليلاً ..يومها لسبب غامض تأملته كثيراً .السرية أن يُرزق يوماً بكر
وعندما عدت في الغد، .وفضّلت أن أتركه لفرحته تلك، ولسعادته المسروقة
.قيل لي إنّه عاد إلى الجبهة على عجل مؤكداً أنه سيعود قريباً لمدة أطول
..ولم يعد
بعد بضعة (سي طاهر)فقد استشهد .انتهى بعد ذلك كرم القدر البخيل
.أشهر دون أن يتمكن من رؤية ابنه مرّة ثانية
.كان ناصر آنذاك ينهي شهره الثامن، وأنت تدخلين عامك الخامس

وتتقاطع مع موته .بركاناً يموت ويولد كلّ يوم 1960وكان الوطن في صيف
..وميلاده، أكثر من قصة، بعضها مؤلم وبعضها مدهش
.وبعضها يأتي متأخراً كما جاءت قصتي التي تقاطعت يومها معك
قصة فرعية، كتبت مسبقاً وحولت مسار حياتي بعد عمر بأكمله، بحكم
..شيء قد يكون اسمه القدر، وقد يكون العشق الجنوني
.ذاك الذي يفاجئنا من حيث لا نتوقع، متجاهلاً كلّ مبادئنا وقيمنا السابقة
في تلك اللحظة التي لا نعود ننتظر فيها شيئاً؛ وإذا به ..والذي يأتي متأخراً
.يقلب فينا كلّ شيء
فهل يمكن لي اليوم، بعدما قطعت بيننا الأيام جسور الكلام، أن أقاوم هذه الرغبة الجنونية لكتابة هاتين القصتين معاً، كما عشتهما معك ودونك، بعد
..ذلك بسنوات

.وفجائع حدّ الموت ..وخيبةً ..وغيرةً ..وحقداً ..وحلماً ..وعشقاً ..رغبةً

..أنت التي كنت تحبّين الاستماع إليّ
.وتقلبينني كدفتر قديم للدهشة

كان لا بد أن أكتب من أجلك هذا الكتاب، لأقول لك ما لم أجد متَّسعاً من
.العمر لأقوله

سأحدثك عن الذين أحبّوك لأسباب مختلفة، وخنتهم لأسباب مختلفة أخرى
.

سأحدثك حتى عن زياد، أما كنت تحبِّين الحديث عنه وتراوغين؟

.لقد اختار كلّ منا قدره ..لم يعد من ضرورة الآن للمراوغة

سأحدثك عن تلك المدينة التي كانت طرفاً في حبّنا، والتي أصبحت بعد
.ذلك سبباً في فراقنا، وانتهي فيها مشهد خرابنا الجميل

فعمّ تراك ستتحدثين؟
عن أيّ رجل منَّا تراك كتبت؟ مَنْ منَّا أحببت؟
منّا ستقتلين؟ ..ومن
ولمن تراك أخلصت، أنت التي تستبدلين حبّاً بحبّ، وذاكرة بأخرى،
ومستحيلاً بمستحيل؟
وأين أنا في قائمة عشقك وضحاياك؟
تراني أشغل المكانة الأولى، لأنني أقرب إلى النسخة الأولى؟
تلك التي لم يحوّلها الاستشهاد إلى (سي طاهر)تراني النسخة المزورة لـ
نسخة طبق الأصل؟
أم الحب المزوّر؟ ..تراني الأبوة المزورة
.دون جهد ..تحترفين تزوير الأوراق وقلبها _كهذا الوطن_أنت التي

:يقول "مونتيرلان"كان
أنت تعهّر :إذا كنت عاجزاً عن قتل من تدّعي كراهيته، فلا تقل إنَّك تكرهه"
".!هذه الكلمة

دعيني أعترف لك أنني في هذه اللحظة أكرهك، وأنّه كان لا بدّ أن أكتب
..دعيني أجرّب أسلحتك .هذا الكتاب لأقتلك به أيضاً
ماذا لو كانت الروايات مسدّسات محشوّة بالكلمات ..فربما كنت على حق
.القاتلة لا غير؟
ولو كانت الكلمات رصاصاً أيضاً؟
.ولكنَّني لن أستعمل معك مسدساً بكاتم صوت، على طريقتك
.لا يمكن لرجل يحمل السلاح بعد هذا العمر، أن يأخذ كلّ هذه الاحتياطات
..أريد لموتك وقعاً مدوياً قدر الإمكان
فأنا أقتل معك أكثر من شخص، كان لا بد أن يجرؤ أحد على إطلاق النار
.عليهم يوماً
فاقرأي هذا الكتاب حتى النهاية، بعدها قد تكفّين عن كتابة الروايات
.الوهمية
..وطالعي قصتنا من جديد
دهشة بعد أخرى، وجرحاً بعد آخر، فلم يحدث لأدبنا التعيس هذا، أن عرف
..قصة أروع منها
.ولا شهد خراباً أجمل

الفصل الثاني

..كان يوم لقائنا يوماً للدهشة
أليس هو .لم يكن القدر فيه هو الطرف الثاني، كان منذ البدء الطرف الأول الذي أتى بنا من مدن أخرى، من زمن آخر وذاكرة أخرى، ليجمعنا في قاعة بباريس، في حفل افتتاح معرض للرسم؟

.يومها كنت أنا الرسام، وكنت أنت زائرة فضولية على أكثر من صعيد

ولا كنت أنا رجلاً يشعر .لم تكوني فتاة تعشق الرسم على وجه التحديد فما الذي قاد خطاك هناك ذلك .بضعف تجاه الفتيات اللائي يصغرنه عمراً وما الذي أوقف نظري طويلاً أمام وجهك؟ ..اليوم؟

كنت رجلاً تستوقفه الوجوه، لأن وجوهنا وحدها تشبهنا، وحدها تفضحنا، .ولذا كنت قادراً على أن أحبّ أو أكره بسبب وجه
.وبرغم ذلك، لست من الحماقة لأقول إنني أحبتك من النظرة الأولى
.يمكنني أن أقول إنني أحبتك، ما قبل النظرة الأولى

كان فيك شيء ما أعرفه، شيء ما يشدني إلى ملامحك المحببة إليّ أو كأنني كنت مستعداً منذ .مسبقاً، وكأنني أحببت يوماً امرأة تشبهك .الأزل لأحبّ امرأة تشبهك تماماً
كان وجهك يطاردني بين كلّ الوجوه، وثوبك الأبيض المتنقّل من لوحة إلى ..أخرى، يصبح لون دهشتي وفضولي

.بأكثر من زائر وأكثر من لون ..واللون الذي يؤنّث وحده تلك القاعة الملأى

_!هل يولد الحبّ أيضاً من لونٍ لم نكن نحبّه بالضرورة -
وفجأة اقترب اللون الأبيض منّي، وراح يتحدث بالفرنسية مع فتاة أخرى لم ..ألاحظها من قبل

ربَّما لأن الأبيض عندما يلبس شعراً طويلاً حالكاً، يكون قد غطَّى على كل ..الألوان

:قال الأبيض وهو يتأمل لوحة

- Je prefere l'abstrait..!

وأجاب اللون الذي لا لون له:

- moi je prefere comprendre ce que je vois.

ولم تدهشني حماقة اللون الذي لا لون له، عندما يفضّل أن يفهم كلّ ما يرى..

فليس من طبعه أن يفضّل الغموض ..أدهشني اللون الأبيض فقط!

قبل ذلك اليوم، لم يحدث أن انحزت للون الأبيض.
فأنا أكره الألوان الحاسمة ..لم يكن يوماً لوني المفضل.
ولكنني آنذاك انحزت إليك دون تفكير.
ووجدتني أقول لتلك الفتاة، وكأنني أواصل جملة بدأتها أنتِ:

- وليس بالضرورة كلّ ما نفهمه ..الفن هو كل ما يهزنا!

نظرتما إليّ معاً بشيء من الدهشة، وقبل أن تقولي شيئاً، كانت عيناك تكتشفان في نظرة خاطفة، ذراع جاكيتي الفارغة والمختبئ كمّه بحياء في جيب سترتي.

كانت تلك بطاقة تعريفي وأوراقي الثبوتية.

مددت نحوي يدك مصافحة وقلت بحرارة فاجأتني:

- كنت أريد أن أهنّئك على هذا المعرض..

كان نظري قد توقَّف عند ذلك السوار الذي يزين ..وقبل أن تصلني كلماتك معصمك العاري الممدود نحوي.

كان إحدى الحليّ القسنطينية التي تُعرف من ذهبها الأصفر المضفور، ومن التي لم يكن يخلو منها في الماضي، "الخلاخل"تلك .نقشتها المميزة جهاز عروس ولا معصم امرأة من الشرق الجزائري.

وفي عمر لحظة، عادت .مددت يدي إليك دون أن أرفع عيني تماماً عنه الذي لم يفارقه هذا السوار قط (أمّا)إلى معصم .ذاكرتي عمراً إلى الوراء.

وداهمني شعور غامض، منذ متى لم يستوقف نظري سوار كهذا؟
ربَّما منذ أكثر من ثلاثين سنة ..لم أعد أذكر!
بكثير من اللباقة سحبت يدك التي كنت أشدّ عليها ربَّما دون أن أدري، وكأنني أمسك بشيء ما، استعدتِه فجأة.
وابتسمت لي..

رفعت عيني نحوك لأول مرة.
تقاطعت نظراتنا في نصف نظرة.
كنت تتأملين ذراعي الناقصة، وأتأمل سواراً بيدك.
كان كلانا يحمل ذاكرته فوقه..

ولكن كنت لغزاً لا .وكان يمكن لنا أن نتعرف على بعضنا بهذه الطريقة فقط أتفحصك مأخوذاً .فرحت أراهن على اكتشافك .تزيده التفاصيل إلا غموضاً كأنني أعرفك وأتعرف عليك في آن واحد ..مرتبكاً.

لم تكوني جميلة ذلك الجمال الذي يبهر، ذلك الجمال الذي يخيف ويربك.

كنت فتاة عاديّة، ولكن بتفاصيل غير عادية، بسرٍّ ما يكمن في مكان ما من ربَّما في جبهتك العالية وحاجبيك السميكين والمتروكين على ..وجهك وربّما في ابتسامتك الغامضة وشفتيك المرسومتين .استدارتهما الطبيعية بأحمر شفاه فاتح كدعوة سريّة لقبلة.
أو ربما في عينيك الواسعتين ولونهما العسليّ المتقلّب.
وكنت أعرف هذه التفاصيل..
ولكن كيف؟ وجاء صوتك بالفرنسية يخرجني من تفكيري قلت ..أعرفها:

- يسعدني أن يصل فنان جزائري إلى هذه القمة من الإبداع..
ثم أضفت بمسحة خجل:
- في الحقيقة ..في معارض فنية، ولم أزر إلا نادراً أنا لا أفهم كثيراً في الرسم، كنّا ..ولكن يمكنني أن أحكم على الأشياء الجميلة، ولوحاتك شي مميز لقد كنت أقول ...في حاجة إلى شيء جديد بنكهة جزائرية معاصرة كهذه هذا لابنة عمي عندما فاجأتنا.

وعندما تقدمت تلك الفتاة مني لتصافحني، وتقدِّم لي نفسها، وكأنها بذلك ستصبح طرفاً في وقفتنا، وذلك الحوار الذي وجدت نفسها خارجه بعدما تجاهلتها منذ البدء دون أن أدري..

قالت وهي تعرّفني بنفسها:

- إني سعيدة بلقائك .الآنسة عبد المولى..

انتفضت لسماع ذلك الاسم.
ونظرت مدهوشاً إلى تلك الفتاة التي صافحتني بحرارة لا تخلو من شيء من الغرور..
تفحصتها وكأنني أكتشف وجودها، ثم عدت لأتأملك عساني أجد في ملامحك جواباً لدهشتي.
عبد المولى ....عبد المولى..

..وراحت الذاكرة تبحث عن جواب لتلك المصادفة
.كنت أعرف عائلة عبد المولى جيداً
استشهد منذ اكثر من عشرين (سي طاهر)أحدهما .إنهما أخوان لا أكثر
.سنة، وترك صبياً وبنتاً فقط
تزوج قبل الاستقلال، و قد يكون له اليوم عدة أولاد (سي الشريف)والآخر
..وبنات
تلك التي حملتُ اسمها وصية من الجبهة ...(سي الطاهر)فمن منكما ابنة
ونبت عن أبيها في دار البلدية، لتسجيلها رسمياً في سجلٍّ ..حتى تونس
الولادات؟
من منكما تلك الصغيرة التي قبّلتها نيابة عن أبيها، ولا عبتها ودلّلتها نيابة
عنه؟

أنتِ؟ ...من منكما

.لا تلك ..وبرغم بعض الخطوط المشتركة لملامحكما، كنت أشعر أنَّك أنتِ
.أو هكذا كنت أتمنى، وأنا أحلم قبل الأوان بقرابة ما تكون جمعتني بك
لقد .وأندهش لهذه المصادفة، وأجد فجأة تبريراً لوجهك المحبّب إليّ مسبقاً
.، نسخة أكثر جاذبية(سي طاهر)كنت نسخة عن

.كنت أنثى

أيعقل أن تكوني أنت الطفلة التي رأيتها لآخر مرة في تونس سنة ..ولكن
غداة الاستقلال، عندما رحت أطمئن عليكم كالعادة، وأتابع بنفسي (1962)
من (سي الشريف)تفاصيل عودتكم إلى الجزائر؟ بعدما اتصل بي
قسنطينة، ليطلب مني بيع ذلك البيت الذي لم يعد هناك ضرورة لوجوده،
منذ عدّة سنوات ليهرّب إليه أسرته الصغيرة، (سي الطاهر)والذي اشتراه
عندما أبعدته فرنسا عن الجزائر في الخمسينيات، بعد عدة أشهر من
.السجن قضاها بتهمة التحريض السياسي

كم كان عمرك وقتها؟
خلال ..وكبرت إلى هذا الحد ..أيعقل أن تكوني تغيرت إلى هذا الحدّ
!عشرين سنة؟

رحت أتأملك مرة أخرى، وكأنني أرفض أن أعترف بعمرك، وربما أرفض أن
أعترف بعمري وبالرجل الذي أصبحته منذ ذلك الزمن الذي يبدو لي اليوم
.غابراً

وإلى هذه القاعة في هذا الزمن وهذا ..ما الذي أوصلك إلى هذه المدينة
اليوم بالذات؟
..يوم انتظرته طويلاً لسبب لا علاقة له بك
..وحسبت له ألف حساب لم تكوني ضمنه

وتوقَّعت فيه كل المفاجآت إلا أن تكوني أنت مفاجأتي.

فجأة أذهلني اكتشافي، وخفت من مواجهة عينيك اللتين كانتا تتابعان بشيء من الدهشة ارتباكي. فقررت أن أطرح سؤالي بالمقلوب، وأنا أواصل حديثي مع الفتاة الأخرى التي قدّمت لي نفسها إذا كنت أعرف أنني عرفتها سينحل اللغز، وأعرف تلقائياً من منكما أنتِ..
فقد كان لإحداكما اسم أعرفه منذ خمس وعشرين سنة، وعليّ فقط أن أتعرف على صاحبته.

سألتها:

- هل لديك قرابة بسي الشريف عبد المولى؟
أجابت بسعادة وكأنها تكتشف أن أمرها يعنيني:
- لقد تعذر عليه الحضور اليوم بسبب وصول وفد من الجزائر ..إنه أبي
وقد أثار فضولنا لمعرفتك لدرجة قرّرنا أن نأتي لقد حدّثنا عنك كثيراً ..البارحة مكانه اليوم لحضور الافتتاح!

الأول أنها لم تكن كان كلام تلك الفتاة على تلقائيته يحمل لي جوابين. (سي الشريف)أنت، والثاني سبب تخلف.

كنت لاحظت غيابه وتساءلت عن سببه، هل كان المانع شخصياً، أم أم تراه كان لسببٍ ما يتحاشى الظهور معي؟ ..سياسياً

كنت أدري أنّ طرقنا تقاطعت منذ سنين عندما دخل دهاليز اللعبة السياسية، وأصبح هدفه الوحيد الوصول إلى الصفوف الأمامية. ورغم ذلك لم يكن بإمكاني أن أتجاهل وجوده معي في المدينة نفسها فقد كان جزءاً من شبابي وطفولتي..وكان بعض ذاكرتي.

ولذا، ولأسباب عاطفية محض، كان الشخصية الجزائرية الوحيدة التي دعوتها.

لم ألتق به منذ عدة سنوات، ولكن أخباره كانت تصلني دائماً منذ عُيِّن، قبل سنتين، ملحقاً في السفارة الجزائرية، وهو منصب ككل المناصب الخارجية"، يتطلب كثيراً من الوساطة والأكتاف العريضة"..

وكان بإمكان (سي الشريف)أن يشق طريقه إلى هذا المنصب ولأهم منه بماضيه فقط، وباسمه الذي خلّده سي الطاهر باستشهاده. ولكن يبدو أن ماضي لم يكن كافياً بمفرده لضمان الحاضر، وكان عليه أن يتأقلم مع كلّ الرياح للوصول..

خطر ببالي كلّ ذلك، وأنا أحاول بدوري أن أتأقلم مع كل المفاجآت

والانفعالات التي هزتني في بضع لحظات، والتي كانت بدايتها أنني وددت فإذا بي أسلّم على ..أن أسلم على فتاة جميلة تزور معرضي لا غير ذاكرتي!

..وعدت إلى دهشتي الأولى معك
إلى تلك اللوحة .إلى كل التفاصيل الأولى التي لفتت نظري إليك منذ البدء لقد كان هناك أكثر من قدر، أكثر من .بالذات التي توقفت طويلاً أمامها أكثر من مصادفة ..مكتوب.

..أنتِ
تتأملين بعضها، تتوقفين .في قاعة تتفرجين فيها على لوحاتي ..أكنت أنت عند بعضها الآخر، وتعودين إلى الدليل الذي تمسكيه بيدك لتتعرفي على أسماء اللوحات التي تلفت نظرك الأكثر؟

..أنتِ
نور آخر يضيء كل لوحة تمرين بها، فتبدو الأضواء الموجهة نحو ..تراك أنت وكأنك كنت اللوحة الأصلية ..اللوحات، وكأنها موجّهة نحوك.

..أنت إذن
تتأملينها بإمعان أكبر، تقتربين .تتوقفين أمام لوحة صغيرة لم تستوقف أحداً منها أكثر، وتبحثين عن اسمها في قائمة اللوحات.

واستيقظ فضول الرسّام .ولحظتها سرت في جسدي قشعريرة مبهمة المجنون داخلي..

؟..من تكونين، أنت الواقفة أمام أحبّ لوحاتي ليّ
وتقولين لرفيقتك كلاماً لا يصلني شيء ..رحت أتأملك مرتبكاً وأنت تتأملينها منه.
ما الذي أوقفك أمامها؟
لم تكن أجمل ما في القاعة من لوحات، كانت لوحتي الأولى وتمريني الأول في الرسم فقط..
ولكنني أصررت هذه المرة، على أن تكون حاضرة في معرضي الأهم هذا، لأنني اعتبرتها برغم بساطتها، معجزتي الصغيرة.
رسمتها منذ خمس وعشرين سنة، وكان مرَّ على بتر ذراعي اليسرى أقلّ من شهر.
كانت محاولة للحياة فقط، .لم تكن محاولة للإبداع ولا لدخول التاريخ والخروج من اليأس
ليجيب على ورقة الأستاذ:

."ارسم أقرب منظر إلى نفسك".

إنها الجملة التي قالها لي ذلك الطبيب اليوغسلافي الذي قدم مع بعض الأطباء من الدول الاشتراكية إلى تونس، لمعالجة الجرحى الجزائريين، والذي أشرف على عملية بتر ذراعي وظل يتابع تطوراتي الصحية والنفسية فيما بعد.

كان يسألني كل مرة أزوره فيها عن اهتماماتي الجديدة، وهو يلاحظ إحباطي النفسي المستمر.
لم أكن مريضاً ليحتفظ بي الطبيب في مستشفى، ولا كنت معافى بمعنى الكلمة لأبدأ حياتي الجديدة.

كنت أعيش في تونس، ابناً لذلك الوطن وغريباً في الوقت نفسه؛ حراً ومقيداً في الوقت نفسه؛ سعيداً وتعيساً في الوقت نفسه.

كنت كرة صوف متداخلة. كنت الرجل الذي رفضه الموت ورفضته الحياة..
فمن أين يمكن لذلك الطبيب أن يجد رأس الخيط الذي يحلّ به كلّ عقدي؟

وعندما سألني ذات مرّة، وهو يكتشف ثقافتي، هل كنت أحبّ الكتابة أو الرسم، تمسكت بسؤاله وكأنني أتمسّك بقشه قد تنقذني من الغرق، وأدركت فوراً الوصفة الطبية التي كان يعدها لي.

قال:
- إن العملية التي أجريتها عليك، أجريت مثلها عشرات المرّات على جرحى كثيرين فقدوا في الحرب ساقاً أو ذراعاً، وإذا كانت العملية لا تختلف، فإنّ تأثيرها النفسي يختلف من شخص إلى آخر، حسب عمر المريض ووظيفته وخاصة حسب مستواه الثقافي، فوحده المثقَّف يعيد وحياته الاجتماعية.. النظر في نفسه كلّ يوم، ويعيد النظر في علاقته مع العالم ومع الأشياء كلما تغيّر شيء في حياته..

لقد مرّت بي أكثر من حالة. لقد أدركت هذا من تجربتي في هذا الميدان من هذا النوع، ولذا أعتقد أن فقدانك ذراعك قد أخلّ بعلاقتك بما هو حولك. وعليكم أن تعيد بناء علاقة جديدة مع العالم من خلال الكتابة أو الرسم..

عليك أن تختار ما هو اقرب إلى نفسك، وتجلس لتكتب دون قيود كلّ ما يدور في ذهنك. المهم ولا تهمّ نوعية تلك الكتابات ولا مستواها الأدبي. الكتابة في حد ذاتها كوسيلة تفريغ، وأداة ترميم داخلي..

الرسم أيضاً قادر على أن يصالحك مع الأشياء ومع العالم الذي تغيّر في نظرك، لأنك أنت تغيّرت وأصبحت تشاهده وتلمسه بيدٍ واحدة فقط..

إنني أحبّ الكتابة، وأنها الأقرب وكان يمكن أن أجيبه ذلك اليوم بتلقائية..

إلى نفسي، مادمت لم أفعل شيئاً طوال حياتي، سوى القراءة التي تؤدي تلقائياً إلى الكتابة.
كان يمكن أن أجيبه كذلك، فقد تنبأ لي أساتذتي دائماً بمستقبل ناجح..
في الأدب الفرنسي!
ولهذا أجبته دون تفكير، أو ربما بموقف اكتشفت فيما بعد أنه كان جاهزاً في أعماقي:
أفضل الرسم -..

لم تقنعه جملتي المقتضبة فسألني إن كنت رسمت قبل اليوم..
قلت: "لا.."
قال: "ارسم أحبّ شي إليك ..إذن ابدأ برسم أقرب شيء إلى نفسك..".

وعندما ودّعني قال بسخرية الأطباء عندما يعترفون بعجزهم بلباقة: " ارسم
فقد لا تكون في حاجة إليّ بعد اليوم ..!".

عدت يومها إلى غرفتي مسرعاً أريد أن أخلو لنفسي بين تلك الجداران الذي كان الحبيب ثامر"البيضاء، التي كانت استمراراً لجدران مستشفى "حتى ذلك الوقت، المكان الذي أعرفه الأكثر في تونس.

رحت يومها أتأمل تلك الجدران على غير عادتي، وأنا أفكر في كل ما يمكن أن أعلق عليها من لوحات بعد اليوم ..كل وجوه من أحبّ. كلّ الأزقة التي أحب ..كلّ ما تركته خلفي هناك.

كان صوت ذلك الطبيب يحضرني .نمت في تلك الليلة قلقاً، وربما لم أنم كنت أستعيده داخل بدلته البيضاء، "ارسم"بفرنسيته المكسرة ليوقظني فتعبر قشعريرة غامضة جسدي وأنا "ارسم"يودعني وهو يشدّ على يدي يوم نزل جبرائيل عليه السلام على .أتذكر في غفوتي أول سورة للقرآن "ماذا أقرأ؟" ..فسأله النبي مرتعداً من الرهبة "اقرأ"محمد لأول مرة فقال له وراح يقرأ عليه أول سورة للقرآن "اقرأ باسم ربّك الذي خلق"فقال جبريل. وما .وعندما انتهى عاد النبي إلى زوجته وجسده يرتعد من هول ما سمع "دثريني ..دثريني..."كاد يراها حتى صاح.

كنت ذلك المساء أشعر برجفة الحمّى الباردة.
توتري النفسي يومها، وقلقي بعد ذلك اللقاء الذي كنت أعرف أنه آخر لقاء لي مع الطبيب .وربما أيضاً بسبب ذلك الغطاء الخفيف الذي كان غطائي الوحيد في أوج الشتاء القارس، والذي لم يمنحني مستأجري البخيل غيره.

الصوفية التي كانت "البطانية"وتلك .وكدت أصرخ وأنا أتذكر فراش طفولتي غطائي في مواسم البرد القسنطيني، كدت أصرخ في ليل غربتي.." ولكن لم أقل شيئاً ليلتها، لا لقسنطينة ولا "دثريني ..دثريني قسنطينة.." صعب على .احتفظت بحمَّاي وبرودتي لنفسي .لصاحب الغرفة البائس

..رجل عائد لتوه من الجبهة، أن يعترف حتى لنفسه بالبرد

انتظرت فقط طلوع الصباح لأشتري بما تبقى في جيبي من أوراق نقدية ما قنطرة "ووقفت كمجنون على عجل أرسم .أحتاج إليه لرسم لوحتين أو ثلاث ..في قسنطينة "الحبال

أكان ذلك الجسر أحبّ شيء إليّ حقاً، لأقف بتلقائية لأرسمه وكأنني وقفت لأجتازه كالعادة؟ أم تراه كان أسهل شيء للرسم فقط؟
..لا أدري
.أدري أنني رسمته مرات ومرات بعد ذلك، وكأنني أرسمه كل مرة لأول مرة .وكأنه أحب شيء لدي كل مرة

"خمس وعشرون سنة، عمر اللوحة التي أسميتها دون كثير من التفكير لوحة لشاب في السابعة والعشرين من عمره، كان أنا بغربته ."حنين .وبحزنه وبقهره

ولكن بربع قرن إضافي، ..وها أنا ذا اليوم، في غربة أخرى وبحزن وبقهر آخر وقليل من الانتصارات ..كان لي فيه كثير من الخيبات والهزائم الذاتية .الاستثنائية

ها أنا اليوم أحد كبار الرسامين الجزائريين، وربما كنت أكبرهم على الإطلاق؛ كما تشهد بذلك أقوال النقاد الغربيين الذين نقلت شهادتهم .بحروف بارزة على بطاقات دعوة الافتتاح

نبيّ صغير نزل عليه الوحي ذات خريف في غرفة صغيرة ...ها أنا اليوم .بتونس "باب سويقة"بائسة، في شارع
وكيف لا ولا كرامة لنبي في وطنه؟ ..ها أنا نبي خارج وطنه كالعادة وأن يكون "ظاهرة"ظاهرة فنية؟، كيف لا وقدر ذي العاهة أن يكون "ها أنا جباراً ولو بفنه؟
..ها أنا ذا

فأين هو ذلك الطبيب الذي نصحني بالرسم ذات مرة؟ والذي صدقت نبوءته ولم احتاج إليه بعد ذلك اليوم؟ إنه الغائب الوحيد في هذه القاعة الشاسعة "أين هو الدكتور .التي لم يسبق لأيّ عربي أن عرض فيها لوحاته قبلي ..ليرى ماذا فعلت بيدٍ واحدة "كابوتسكي
!ذلك الذي لم أسأله يوماً ماذا فعل بيدي الأخرى

توقيعي (57تونس)لوحتي الأولى، وجوار تاريخ رسمها "حنين"وها هي تماماً كما وضعته أسفل اسمك، وتاريخ .الذي وضعته لأول مرة أسفل لوحة ، وأنا أسجّلك في دار البلدية 1957ميلادك الجديد، ذات خريف من سنة ..لأول مرة

ومن منكما حبيبتي؟ سؤال لم يخطر على بالي ذلك ..من منكما طفلتي ..اليوم، وأنا أراك تقفين أمام تلك اللوحة لأول مرة
وتصغرك في الواقع ..ببضعة أيام _رسمياً _تكبرينها ..لوحة في عمرك .ببضعة أشهر لا غير

مرة يوم أمسكت بفرشاة لأبدأ معها مغامرة ..لوحة كانت بدايتي مرتين ...ومرة يوم وقفت أنت أمامها، وإذا بي أدخل في مغامرة مع القدر ..الرسم

على مفكرة ملأى بمواعيد وعناوين لا أهمية لها، وضعت دائرة حول تاريخ قبل ذلك .، وكأنني أريد أن أميزه عن بقية الأيام1981نيسان :ذلك اليوم .اليوم، لم أجد في سنواتي الماضية ما يستحق التميز
.فقد كانت أيامي مثل أوراق مفكرتي ملأى بمسودات لا تستحق الذكر
وكنت املأها غالباً كي لا أتركها بيضاء، فقد كان اللون الأبيض يخيفني دائماً .عندما يكون على مساحة ورق

جميعها .ثماني مفكرات لثماني سنوات، لم يكن فيها ما يستحق الدهشة غربة كنت أحاول أن .صفحة واحدة لمفكرة واحدة لا تاريخ لها سوى الغربة أختصرها بعملية حسابية كاذبة، تتحول فيها السنوات إلى ثماني مفكرات لا مسجلة لا حسب ...غير، مازالت مكدسة في خزانتي الواحدة فوق الأخرى .إنما حسب أرقام سنوات هجرتي الاختيارية ..تواريخها الميلادية أو الهجرية

.أضع دائرة حول تاريخ ذلك اليوم، وكأنني أغلق عليك داخل تلك الدائرة .كأنني أطوقك وأطارد ذكراك لتدخلي دائرة ضوئي إلى الأبد

كنت أتصرف عن حدس مسبق، وكأن هذا التاريخ سيكون منعطفاً للذاكرة؛ وكنت أعي وقتها تماماً أن الولادة .كأنه سيكون ميلادي الآخر على يديك .على يدك كالوصول إليك أمر لن يكون سهلاً

يشهد على ذلك غياب رقمك الهاتفي وعنوانك من تلك الصفحة التي لم فهل كان من المنطقي أن اطلب .تكن تحمل في النهاية سوى تاريخ لقائك وبأي مبرر وبأية ..منك رقم هاتفك في لقائنا الأول أو صدفتنا الأولى تلك حجة سأفعل ذلك، وكلّ الأسباب تبدو ملفّقة عندما يطلب رجل من فتاة جميلة رقم هاتفها؟

..في التحدث والاستماع إليك ..كنت أشعر برغبة في الجلوس إليك ولكن كيف أقنعك بذلك؟ .عساني أتعرّف على النسخة الأخرى لذاكرتي كيف أشرح لك في لحظات أنني أعرف الكثير عنك، أنا الرجل الذي تقابلينه

..لأول مرة، والي تتحدثين إليه كما نتحدث بالفرنسية للغرباء بضمير الجمع
..فلا أملك إلا أن أجيبك بنفس كلام الغرباء بالجمع

..كانت الكلمات تتعثر يومها على لساني، وكأنني أتحدث لك بلغة لا أعرفها
أيعقل بعد عشرين سنة أن أصافحك وأسألك بلغة .بلغة لا تعرف شيئاً عنّا
..فرنسية محايدة

- Mais comment allez-vous mademoiselle?

:فتردين عليّ بنفس المسافة اللغوية

- Bien.. je vous remercie..

.تلك التي عرفتك طفلة تحبو ..وتكاد تجهش الذاكرة بالبكاء
تكاد ترتعش ذراعي الوحيدة وهي تقاوم رغبة جامحة لاحتضانك، وسؤالك
..بلهجة قسنطينية افتقدتها
؟..واشك -

كيف أنت أيتها الزائرة ..أيتها الصغيرة التي كبرت في غفلة منّي ..آه واشك
يا طفلة تلبس ذاكرتي، وتحمل في معصمها .الغريبة التي لم تعد تعرفني
سواراً كان لأمي؟

(سي الطاهر)أتأملك وأستعيد ملامح .دعيني أضمّ كلّ من أحببتهم فيك
ما .فما أجمل أن يعود الشهداء هكذا في طلّتك .في ابتسامتك ولون عينيك
وما .أجمل أن تعود أمّي في سوار بمعصمك؛ ويعود الوطن اليوم في مقدمك
!هي أنت ..أجمل أن تكوني أنت
..أتدرين
رغب في ..إذا صادف الإنسان شيء جميل مفرط في الجمال)
(..**البكاء**
.ومصادفتك أجمل ما حلّ بي منذ عمر
ونحن وقوف تتقاسمنا الأعين ..كيف أشرح لك كلّ هذا مرّة واحدة
والأسماع؟
أنني كنت انتظرك ..كيف أشرح لك أنني كنت مشتاقاً إليك دون أن أدري
دون أن أصدق ذلك؟
.وأنه لا بد أن نلتقي
..أجمع حصيلة ذلك اللقاء الأول
حماقة .تحدثت فيها أنا أكثر مما تحدثت أنت .ربع ساعة من الحديث أو أكثر
نسيت .كنت في الواقع أحاول أن أستبقيك بالكلمات .ندمت عليها فيما بعد
.أن أمنحك فرصة أكثر للحديث

كنت على استعداد لمناقشتي ..كنت سعيداً وأنا أكتشف شغفك بالفنّ

وأمَّا أنا فكنت لحظتها .طويلاً في كل لوحة، كان كل شيء معك قابلاً للجدل وحده وجودك كان يثير شهيتي للكلام .لا أرغب سوى في الحديث عنك.

ولأنه لم يكن في الوقت متسع لأسرد عليك فصول قصتي المتقاطعة مع وعن طفولتك ..قصتك، اكتفيت بجملتين أو ثلاث عن علاقاتي القديمة بأبيك !وعن لوحة قلت إنك أحببتها، وقلت لك إنها توأمك ..الأولى

تركت بين الكلمات .وكثير من الذكاء ..اخترت جملي بكثير من الاقتضاب .لإشعارك بثقل الصمت الذي لم تملأه الكلمات ..كثيراً من نقط الانقطاع

.لم أكن أريد أن أنفق ورقتي الوحيدة معك في يوم واحد على عجل .كنت أريد أن أوقظ فضولك لمعرفتي أكثر، لكي أضمن عودتك لي ثانية أدركت "هل ستكون موجوداً هنا طوال فترة المعرض؟"وعندما سألتني .أنني نجحت في أول امتحان معك، وأنا أجعلك تفكرين في لقائي مرة ثانية :ولكنني قلت بصوت طبيعي لا علاقة له بزلازلي الداخلية

ثم أضفت وأنا أكتشف أن "..سأكون هنا بعد الظهر في أغلب الأحيان" :جوابي قد لا يشجعك على زيارة قد أكون غائباً عنها
ومن الأرجح أن أكون هنا كل يوم، فستكون لي مواعيد كثيرة مع " .."..الصحافيين والأصدقاء

ولكنني لم أكن في الواقع مضطراً .كان في ذلك الكلام شيء من الحقيقة كنت فقط أحاول ألا أجعلك تعودين عن .للبقاء طوال الوقت في المعرض .قرارك لسبب ما
:قلت وأنت تتحدثين لي فجأة بطريقة الأصدقاء القدامى
إنه اليوم الذي لا دروس لي .. قد أعود لزيارة المعرض يوم الاثنين القادم" ويسعدني أن أتحدث ..في الحقيقة أنا حضرت اليوم عن فضول فقط .فيه ..".إليك أكثر

تدخلت ابنة عمك، وكأنها تعتذر، وربما تتحسر لأنها لن تكون طرفاً في ذلك :اللقاء
لن يمكنني أن أرافقك، ..إنه اليوم الأكثر مشاغل بالنسبة لي ..خسارة" :ثم التفت نحوي سائلة ".ولكن قد أعود أنا أيضاً في يوم آخر

"متى ينتهي المعرض؟"
:قلت
".."..أي بعد عشرة أيام ..نيسان 25في "
:صاحت
"..سأجد فرصة للعودة مرة أخرى ..عظيم"
.تنفست الصعداء
.المهم أن أراك مرة واحدة على انفراد، وبعدها سيصبح كلّ شيء أسهل

.تزودت منك بآخر نظرة، وأنت تصافحينني قبل أن تنسحبي
..كان في عينيك دعوة لشيء ما
..كان فيهما وعد غامض بقصة ما
وربما نظرة اعتذار مسبقة عن ..كان فيهما شيء من الغرق اللذيذ المحبب
.كل ما سيحل بي من كوارث بعد ذلك بسببهما

وكنت أعي في تلك اللحظة، وذلك اللون الأبيض يوليني ظهره ملتفّاً بشال ويبتعد عني تدريجياً ليختلط بأكثر من لون، أنني سواء رأيتك ..شعره الأسود .وانتهى الأمر ..أم لم أرك بعد اليوم، فقط أحببتك

..ضوءاً يشق الطريق انبهاراً عند مروره ..غادرت القاعة إذن مثلما جئتِ .متألقاً في انسحابه كما في قدومه

.وذيلاً من مشاريع الأحلام ..يجر خلفه أكثر من قوس قزح

ما الذي أعرفه عنك؟
أعدتهما على نفسي بعد ذلك عدة مرات، لأقنع نفسي ..شيئان أو ثلاثة عابراً كذاك الذي يضيء في الأمسيات الصيفية، "نجماً مذنباً"أنك لم تكوني ويختفي قبل أن يتمكن الفلكيون من مطاردته بمنظارهم، والذي يسمونه !"النجم الهارب" ..في قواميس الفلك

لن تهربي مني، وتختفي في شوارع باريس وأزقتها المتشعبة بهذه ..لا أعرف على الأقل أنك تعدين شهادة ما في المدرسة العليا .السهولة للدراسات، وأنك في السنة الأخيرة للدراسة، وأنك في باريس منذ أربع معلومات .سنوات، وتقيمين عند عمك منذ عينّ في باريس أي منذ سنتين .قد تكون هزيلة، ولكنها تكفي للعثور عليك بأية طريقة

كانت الأيام الفاصلة بين يوم الجمعة ويوم الاثنين تبدو طويلة وكأنها لا وكنت بدأت في العدّ العكسي منذ تلك اللحظة التي غادرت فيها .تنتهي تارة أعدّها .القاعة، رحت أعدّ الأيام الفاصلة بين يوم الجمعة ويوم الاثنين فتبدو لي أربعة أيام، ثم أعود وأختصر الجمعة الذي كان على وشك أن ينتهي، والاثنين الذي سأراك فيه، فتبدو لي المسافة أقصر وأبدو أقدر على .التحمل، إنها يومان فقط هما السبت والأحد

فتبدو لي ثلاث ليالٍ كاملة، هي الجمعة والسبت ..ثم أعود فأعدّ الليالي والأحد، أتساءل وأنا أتوقع مسبقاً طولها، كيف سأقضيها؟ ويحضرني ذلك :البيت الشعري القديم الذي لم أصدّقه من قبل

وقد عشت دهراً لا أعد الليالیا ***أعدّ الليالي ليلة بعد ليلة

ترى أهكذا يبدأ الحب دائماً، عندما نبدأ في استبدال مقاييسنا الخاصة، بالمقاييس المتفق عليها، وإذا بالزمن فترة من العمر، لا علاقة لها بالوقت؟

جاءت متأخرة كما .تدخل القاعة "كاترين"في ذلك اليوم، سعدت وأنا أرى داخل فستان أصفر ناعم، تطير داخله .أنيقة كما كنت أتوقع .كنت أتوقع :قالت وهي تضع قبلة على خدي .كفراشه

كان هناك ازدحام في الطريق كالعادة في مثل هذا ..لقد وصلت متأخرة - .الوقت

وكانت المواصلات تتضاعف .كانت كاترين تسكن الضاحية الجنوبية لباريس في نهاية الأسبوع، في تلك الطرقات الرابطة بين باريس وضواحيها، والتي كنت أعرف أنها تكره اللقاءات العامة، أو .لم يكن ذلك السبب الوحيد لتأخرها ربما تخجل أن يراها .تكره كما استنتجت أن تظهر معي في الأماكن العامة !بعض معارفها وهي مع رجل عربي، يكبرها بعشر سنوات، وينقصها بذراع

كانت تحب أن تلتقي بي، ولكن دائماً في بيتي أو بيتها، بعيداً عن الأضواء، وبعيداً عن العيون، هنالك فقط كانت تبدو تلقائية في مرحها وفي تصرفها ويكفي أن ننزل معاً لنتناول وجبة غداء في المطعم المجاور، ليبدو .معي .عليها شي من الارتباك والتصنع، ويصبح همّها الوحيد أن نعود إلى البيت

وهكذا تعودت عندما تحضر أن أشتري مسبقاً ما يكفينا من الأكل لقضاء يوم كان ذلك أوفر وأكثر .لم أعد أناقشها ولا أقترح عليها شيئاً .أو يومين معاً راحة لي، فلماذا كلّ هذا الجدل؟

قالت كاترين بصوت أعلى من العادة وهي تمسك ذراعي وتلقي نظرة على :اللوحات المعلقة التي كانت تعرفها جميعاً

- .أيها العزيز ..رائع كلّ هذا ..برافو خالد، أهنئك

تعجبت شيئاً ما، كانت تتحدث هذه المرة وكأنها تريد أن يعرف الآخرون أنها .أو أي شيء من هذا القبيل ..صديقتي أو حبيبتي

ما الذي غيّر سلوكها فجأة، هل منظر ذلك الحشد من الشخصيات الفنية أم أنها اكتشفت في هذا المكان، أنها ..والصحافيين الذين حضروا الافتتاح كانت منذ سنتين تضاجع عبقرياً دون أن تدري، وأنّ ذراعي الناقصة التي كانت تضايقها في ظروف أخرى، تأخذ هنا بعداً فنياً فريداً لا علاقة له بالمقاييس الجمالية؟

اكتشفت لحظتها، أنني خلال الخمس والعشرين سنة التي عشتها بذراع .واحدة، لم يحدث أنني نسيت عاهتي إلا في قاعات العرض

في تلك اللحظات التي كانت فيها العيون تنظر إلى اللوحات، وتنسى أن وقتها كان ..أو ربما في السنوات الأولى للاستقلال .تنظر إلى ذراعي كانوا .للمحارب هيبته، ولمعطوبي الحروب شيء من القداسة بين الناس ولم تكن مطالباً بتقديم أي شرح .يوحون بالاحترام أكثر مما يوحون بالشفقة .ولا أي سرد لقصتك

.كنت تحمل ذاكرتك على جسدك، ولم يكون ذلك يتطلب أيّ تفسير

، أنت تخجل من ذراع بدلتك الفارغ الذي تخفيه بحياء ..اليوم بعد ربع قرن في جيب سترتك، وكأنك تخفي ذاكرتك الشخصية، وتعتذر عن ماضيك لكل .من لا ماضي لهم

.تفقدهم شهيتهم .تفسد على البعض راحتهم .يدك الناقصة تزعجهم .ليس هذا الزمن لك، إنه زمن لما بعد الحرب
ولذا كثيراً ما تخجل .والبطون المنتفخة ..للبدلات الأنيقة والسيارات الفخمة من ذراعك وهي ترافقك في الميترو وفي المطعم وفي المقهى وفي تشعر أن الناس ينتظرون منك في كلّ مرّة أن .الطائرة وفي حفل تدعى إليه .تسرد عليهم قصتك

كلّ العيون المستديرة دهشة، تسألك سؤالاً واحداً تخجل الشفاه من ".كيف حدث هذا؟" :طرحه

ويحدث أن تحزن، وأنت تأخذ الميترو وتمسك بيدك الفريدة الذراع المعلقة :ثم تقرأ على بعض الكراسي تلك العبارة .للركاب

"..أماكن محجوزة لمعطوبي الحرب والحوامل".
شي من العزّة، من بقايا شهامة، تجعلك تفضّل .لا ليست هذه الأماكن لك .البقاء واقفاً معلقاً بيد واحدة

إنها أماكن محجوزة لمحاربين غيرك، حربهم لم تكن حربك، وجراحهم ربما .كانت على يدك
.فغير معترف بها هنا ..أما جراحك أنت
..ها أنت أمام جدلية عجيبة

وتنتمي لوطن، يحترم .تعيش في بلد يحترم موهبتك ويرفض جُروحك وأنت ..وأنت الرجل والجرح في آن واحد ..فأيهما تختار .جراحك ويرفضك أنت الذاكرة المعطوبة التي ليس هذا الجسد المعطوب سوى واجهة لها؟

أسئلة لم أكن أطرحها على نفسي في السابق
.فقط، والخلق المتواصل، وذلك الأرق الداخلي الدائم

كان داخلي شيء لا ينام، شيء يواصل الرسم دائماً وكأنه يواصل الركض بي ليوصلني إلى هذه القاعة، حيث سأعيش لأيام رجلاً عادياً بذراعين، أو بالأحرى رجلاً فوق العادة..
ويعيد عجن تضاريس الأشياء بيد .رجلاً يسخر من هذا العالم بيد واحدة واحدة.

وها هوذا جنوني معلّق للفرجة على ..ها أنا ذا في هذه القاعة إذن ولا أملك إلا أن ..تتفحصه العيون وتفسره الأفواه كيفما شاءت .الجدران وأتذكر قولاً ساخراً .أبتسم، وبعض تلك التعليقات المتناقضة تصل مسمعي "كونكور"لـ:

."!مثل لوحة في متحف ..لا شي يسمع الحماقات الأكثر في العالم"

جاء صوت كاترين خافتاً وكأنها تتحدث لي وحدي هذه المرة:
- عجيب ..إنني أرى هذه اللوحات وكأنني لا أعرفها، إنها هنا تبدو مختلفة..

كدت أجيبها وأنا أواصل فكرة سابقة:

"إنهم يتغيرون .إنها تماماً مثل الأشخاص ..إن للوحات مزاجها وعواطفها أيضاً
"!أول ما تضعينهم في قاعة تحت الأضواء
ولكنني لم أقل لها هذا.
قلت لها فقط:

- تحبّ الأضواء وتتجمل لها، تحب أن ندلّلها ونمسح ..اللوحة أنثى كذلك
تحبّ ...الغبار عنها، أن نرفعها عن الأرض ونرفع عنها اللحاف الذي نغطّيها به أن نعلقها في قاعة لتتقاسمها الأعين حتى ولو لم تكن معجبة بها..

إنها تكره في الواقع أن تعامل بتجاهل لا غير..
قالت وهي تفكر:
- صحيح ما تقوله ..من أين تأتي بهذه الأفكار؟ أتدري أنني أحب الاستماع إليك؟ لا أفهم كيف لا نجد أبداً وقتاً للحديث عندما نلتقي.

أضافت بنوايا أعرفها وهي ..وقبل أن أعلّق على سؤالها بجواب مقنع جداً تضحك..

- متى ستعاملني أخيراً كلوحة؟

ولشهيتها التي لا تشبع ..قلت وأنا أضحك لسرعة بداهتها:

- هذا المساء إذا شئت..

وعندما أخذت كاترين منّي مفاتيح البيت، وطارت كفراشة داخل فستانها الأصفر نحو الباب.

قالت وكأنها شعرت فجأة بالغيرة من كل تلك اللوحات المعلقة بعناية على الجدران، والتي ما زال بعض الزوار يتأملونها:

- سأسبقك ..أنا متعبة بعض الشيء.

أم ..أكانت حقاً متعبة إلى هذا الحد، أم أصبحت فجأة تغار عليّ أو تغار منّي كالعادة، لم أحاول أن أتعمق في فهمها .جاءتني بجوع مسبق؟.

كنت سعيداً أن أختصر معها يوماً أو .كنت أريد فقط أن أستعين بها لأنسى وكنت في حاجة إلى ليلة حبٍّ بعد شهر !انتظارك أنت ..يومين من الانتظار من الوحدة، والركض لإعداد كلّ تفاصيل هذا المعرض.

لحقت بكاترين بعد ساعة.
أحدها لقائي العجيب بك وكلّ ما عشته من .كنت متعباً لأسباب كثيرة هزّات نفسية ذلك اليوم.
قالت وهي تفتح لي الباب:
- إنك لم تتأخر كثيراً..
قلت وأنا أداعبها:
- الوحي لا ينتظر ..فعدت مسرعاً إلى البيت ..كان في ذهني مشروع لوحة كثيراً كما تعلمين!
ضحكنا..

كان بيننا تواطؤ جسدي ما، يشيع بيننا تلك البهجة الثنائية، تلك السعادة بشرعية الجنون ..السرية التي نمارسها دون قيود!

ولكن شعرت لحظتها وهي جالسة في الأريكة المقابلة لي تشاهد الأخبار، أحضرته معها، أنها امرأة كانت دائماً على وشك أن (سندويتشاً)وتلتهم لن تكونها _كذلك _تكون حبيبتي، وأنها هذه المرّة

هي امرأة تعاني من عجز عاطفي، "السندويتشات"إن امرأة تعيش على ولذا لا يمكنها أن تهب رجلاً ما يلزمه من أمان ..ومن فائض في الأنانية ليلتها، ادّعيت أنني لست جائعاً.
"السندويتشات"في الحقيقة كنت رافضاً وربما عاجزاً عن الانتماء لزمن وبرغم ذلك..
حاولت ألا أتوقف عند تلك التفاصيل التي كانت تستفزّ بداوتي في أول الأمر.

أن .تعوّدت منذ تعرفت على كاترين ألا أبحث كثيراً عن أوجه الاختلاف بيننا

بل إنني .أحترم طريقتها في الحياة، ولا أحاول أن أصنع منها نسخة منّي
.ربما كنت أحبها لأنها تختلف عني حدّ التناقض أحياناً

فلا أجمل من أن تلتقي بضدك، فذلك وحده قادر على أن يجعلك تكتشف
وأعترف أنني مدين لكاترين بكثير من اكتشافاتي، فلا شيء كان .نفسك
يجمعني بهذه المرأة في النهاية، سوى شهوتنا المشتركة وحبنا المشترك
.للفن

.وكان كافياً لنكون سعيدين معاً
في البدء .تعودنا مع مرور الزمن ألا نزعج بعضنا بالأسئلة ولا بالتساؤلات
تأقلمت بصعوبة مع هذا النمط العاطفي الذي لا مكان فيه للغيرة ولا
.للامتلاك

وعدم الالتزام بشيء تجاه ..ثمَّ وجدت فيه حسنات كثيرة، أهمها الحرّيّة
..أحد

كان يحدث أن نلتقي مرّة في الأسبوع، كما يحدث أن تمرّ عدة أسابيع قبل
.ولكن كنّا نلتقي دائماً بشوق وبرغبة مشتركة ..أن نلتقي

، ولهذا أجهدت نفسي "ينبغي ألا نقتل علاقتنا بالعادة"كانت كاترين تقول
حتى لا أتعود عليها، وأن أكتفي بأن أكون سعيداً عندما تأتي، وأن أنسى
.أنها مرّت من هنا عندما ترحل

في تلك المرة حاولت أن أستبقيها لقضاء كلّ نهاية الأسبوع معي، وسعدت
.أن تقبل عرضي بحماس

كنت في الوقع أخاف أن أبقى وحيداً مع ساعتي الجدارية في انتظار يوم
.الاثنين

ورغم أنّ كاترين ظلّت معي حتى عشية يوم الأحد، فإن الوقت بدا لي
فقد بدأت فجأة أستعجل ذهابها .طويلاً، وربما بدا لي أكثر لأنها كانت معي
.وكأنني سأخلو بك عند ذلك
..كانت أفكاري تدور حول سؤال واحد
وكيف ..ماذا أقول لك لو انفردت بك يوم الاثنين؟ من أين أبدأ معك الحديث
أقصّ عليك تلك القصة العجيبة، قصّتنا؟
كيف أغريك بالعودة من جديد لسماع بقيّتها؟

اخترت بذوق ربطة .صباح الاثنين، لبست بدلتي الأجمل لموعدنا المحتمل
وضعت عطري المفضّل، واتجهت نحو قاعة المعرض نحو الساعة .عنقي
.العاشرة

كان أمامي متَّسع من الوقت لأشرب قهوتي الصباحية في مقهى مجاور.
فلم يكن يعقل أن تأتي قبل تلك الساعة، وحتى القاعة نفسها لم تكن تفتح أبوابها قبل العاشرة.

كان في الجو .عندما دخلت القاعة، كنت أول من يطأها في ذلك الصباح
لم يكن هناك من أضواء موجهة نحو اللوحات، ولا .شحنة غامضة من الكآبة
أيّ ضوء كهربائي يضيء السقف.
ألقيت نظرة خاطفة على الجدران.
ها هي لوحاتي تستيقظ كامرأة، بتلك الحقيقة الصباحية العارية دون زينة
رتوش"ولا مساحيق ولا".

هاهي امرأة تتثاءب على الجدران بعد أمسية صاخبة.
أتفقدها وكأنني أتفقدك "حنين"اتجهت نحو لوحتي الصغيرة.
يا حزني المعلّق منذ ..كيف أنت يا جسري المعلق ..صباح الخير قسنطينة"
ربع قرن؟".
ردّت عليّ اللوحة بصمتها المعتاد، ولكن بغمزة صغيرة هذه المرّة.
فابتسمت لها بتواطؤ.

البلدي يفهم من غمزة"إننا نفهم بعضنا أنا وهذه اللوحة"!
وكانت لوحة بلديّة مكابرة مثل صاحبها، عريقة مثله، تفهم بنصف غمزة!

رحت بعدها أتلهّى ببعض المشاغل التي كانت مؤجّلة منذ البارحة.
وكان صوت داخليّ .مثل أخرى لكسب الوقت، والتفرّغ لك فيما بعد
يلاحقني أثناء ذلك، ليذكرني أنك ستأتين، ويمنعني من التركيز على أي شيء.

ستأتي..
ومرّ صبح ومرّ مساء ولم تأتِ ..ردّد الصوت ساعة وساعتين وأكثر ..ستأتي.

حاولت أن أنشغل بلقاءات وتفاصيل يومية كثيرة، حاولت أن أنسى أنني هنا
لانتظارك..
كنت أترقّبك في .قابلت صحافياً وتحدثت لآخر دون أن تفارق عيناي الباب
كل خطوة..
وكلما تقدَّم الوقت زاد يأسي.

سي الشريف ..وفجأة فتح الباب ليدخل منه!

تذكَّرت أغنية فرنسية يقول .نهضت إليه مسلّماً وأنا أخفي عنه دهشتي
فرأيت أمّك كالعادة ..أردت أن أرى أختك"مطلعها"..

عاش من شافك ..ع السلامة يا سيدي -!

وأعترف برغم خيبتي أنه لم .قالها وهو يحتضنني ويسلّم عليّ بحرارة
.يحدث أن شعرت بسعادة وأنا أسلّم عليه مثل تلك المرة
وقبل أن أسأله عن أخباره قال وهو يقدّم لي ذلك الصديق المشترك الذي
:كان يرافقه

شفت شكون جبتلك معايَ؟ -

:صحت وأنا أنتقل من دهشة إلى أخرى

..واش هاذ الطلة ..أهلاً سي مصطفى واش راك -

:قال بمودة وهو يحتضنني بدوره

لو كان ما نجيوكش ما نشوفوكش وإلا كيفاش؟ ..واش آسيدي -

ز وأسأله بدوي عن أخباره وإن كنت أدري أنّ في مرافقة سي .رحت أجامله
الشريف له وفي مبالغته في تكريمه دليلاً على أنه مرشح لمنصب وزاري
.ما كما تقول الإشاعات

:عاتبني سي الشريف بودّ أحسسته صادقاً

أيعقل أن نسكن هذه المدينة معاً دون أن تفكّر في زيارتي مرّة ..يا أخي -
.أنا هنا منذ سنتين وعنواني معروف عندك .واحدة؟

:تدخّل سي مصطفى ليضيف بتلميح سياسي بين المزاح والجد

؟..وإلا كيفاش هاذا الغيبة ..واش راك مقاطعنا -

:أجبته بصدق

ولكن ليس من السهل على شخص سكنته الغربة أن يجمع ..لا أبداً -
"المنفى عادة سيّئة يتخذها الإنسان"في الحقيقة ..أشياءه هكذا ويعود
..وقد أصبحت لي أكثر من عادة سيئة هنا

وتشعّب بنا الحديث في مواضيع أخرى تطرقنا إليها عبوراً ومجاملة ..ضحكنا
..فقط
وكان لا بدّ أن يتوقّفا بعد ذلك أمام إحدى اللوحات وهما يقومان بجولة
لأفهم سرّ زيارة سي مصطفى لمعرضي، والتي تعود .لمشاهدة المعرض
:قال .لكونه يريد أن يشتري لوحة أو لوحتين منّي

ألا تذكر أنَّك بدأت الرسم يوم كنّا معاً ..أريد أن أحتفظ منك بشيء للذكرى - لقد كنت أول من أريته ..في تونس؟ مازلت أذكر حتَّى لوحاتك الأولى هل نسيت؟ ..لوحاتك وقتها

شعرت بشيء من .وكم كنت أتمنى لحظتها لو أستطيع ذلك ..لا لم أنسَ ..الإحراج وهو يستدرجني لتلك الفترة

.كان سي مصطفى صديقاً مشتركاً لي ولسي الشريف منذ أيام التحرير بل، .فقد كان ضمن المجموعة التي كانت تعمل تحت قيادة سي الطاهر وكان واحداً من الجرحى الذين نقلوا معي للعلاج إلى تونس، حيث قضى ثلاثة أشهر في المستشفى عاد بعدها إلى الجبهة، ليبقى حتى .الاستقلال في صفوف جيش التحرير، ويعود برتبة رائد

وكنت في الماضي أكنُّ له احتراماً .كان يومها بشهامة وأخلاق نضالية عالية كلما امتلأ رصيده الآخر بأكثر ..ثم تلاشى تدريجياً رصيده عندي .وودّاً كبيرين من طريقة وأكثر من عملة، مثله مثل من سبقوه إلى تلك المناصب الحلوب ..التي تناوب عليها البعض بتقسيم مدروس للوليمة

فقد كان رفيق سلاحي .ولكن كان أمره هو بالذات يعنيني ويحزنني وكان بيننا تفاصيل صغيرة جمعتنا في الماضي ولا يمكن ..لسنتين كاملتين .للذاكرة رغم كلّ شيء أن تتجاهلها

لعلّ أكثر تلك التفاصيل تأثيراً، تلك المصادفة التي جعلت الممرِّضة في تونس تعطيني وأنا أغادر المستشفى ثيابه التي وصل بها، والتي جف .عليها دمه منذ عدّة أيّام

كان في جيب سترته يومها بطاقة تعريفه التي تكاد لا تقرأ، من آثار بقع ولكنه عاد بعد ذلك ..والتي احتفظت بها لأعيدها إليه فيما بعد .الدم عليها إلى الجبهة دون أن يدري حتى أنها كانت في حوزتي، وربما دون أن يسأل .فقد كان ذاهباً إلى مكان لا يحتاج فيه إلى بطاقة تعريف .عنها

وكنت .عثرت مصادفة على تلك البطاقة ضمن أوراقي القديمة 1973سنة ..آنذاك أجمع أشيائي استعداداً للرحيل

تردّدت بين أن أحتفظ بها أو أعيدها إليه، فقد كنت أدري أنَّ تلك الهوية لم دون أيّ تعليق ..ولكنني كنت أريد أن أواجهه بالذاكرة .تعد في الواقع هويته .

وربما كنت أريد كذلك وأنا على أبواب المنفى أن أنهي علاقاتي بتلك من بلد إلى آخر، وكأنني أنهي علاقاتي 1975البطاقة التي رافقتني منذ ..بالوطن، وأضعه أخيراً هو وأشياءه خارج الذاكرة

يومها دهش سي مصطفى وأنا أخرج من جيب سترتي تلك البطاقة وأضعها أمامه، بعد ست عشرة سنة.
أم أنا؟ ..أهو الذي ارتبك لحظتها
شعرت فجأة وأنا أنفصل عنها أنني أعطيته شيئاً كان ملتصقاً بصدري؛ شيئاً منّي، ربما ذراعي الأخرى، أو أيّ شيء كان لي..
كان أنا!
وفي احتضانه لي بذلك العنفوان ..ولكنني وجدت آنذاك في فرحته عزائي الأول الذي جمعنا يوماً، مكافأة للذاكرة ووهماً ما بإمكانية إيقاظ ذلك الرجل الآخر داخله.

لقد مات فيه .ها هو سي مصطفى بعد سنوات، يتأمل لوحة لي وأتأمله فكيف راهنت يوماً عليه؟ .."الآخر"الرجل

في هذه اللحظة، لا شيء يعنيه سوى امتلاك لوحة لي؛ وربما كان فمن المعروف عنه أنه لا يحسب كثيراً .مستعداً أن يدفع أيّ ثمن مقابلها في هذه الحالات، مثله مثل بعض السياسيين والأثرياء الجزائريين الجدد الذين شاعت وسطهم عدوى اقتناء اللوحات الفنية، لأسباب لا علاقة لها وبهاجس الانتساب ..غالباً بالفنّ، وإنما بعقلية جديدة للنهب الفنيّ أيضاً للنخبة.

وربما كان أكثر سخاءً معي أنا بالذات، للأسباب نفسها التي تجعلني اليوم أكثر رفضاً له.
فهل ..يفاخر بها (أكواريل)لقد قرّر أن يستبدل بتلك البطاقة المهترئة، لوحة ولو بعد ربع قرن ..يتساوى الدم بالألوان المائية!

سعدت بعدها وأنا أتخلص منه ومن سي الشريف دون أن يأخذا على فلا .ودون أن أتنازل عن ذلك المبدأ الذي حدث أن جعت بسببه ..خاطرهما هناك من يولدون هكذا بهذه .يمكن لي أن آكل من الخبز الملوّث الحساسية التي لا شفاء منها تجاه كلّ ما هو قذر!

خشية أن تأتي ..أريد أن أنتهي منهما بسرعة .كنت في الواقع على عجل في تلك اللحظة ويكونا هناك.
وكنت قلقاً ومبعثراً بين الأحاسيس التي استدرجتني إليها سي مصطفى وبين هاجس قدومك، الذي أرهقني انتظاره منذ أيام ..بعد كلّ تلك السنوات لا أثناء ذلك ولا بعده ..ولكنك لم تأتي ..

من أين هجمت عليّ كلّ تلك الكآبة بعد ذلك؟
وإذا بقدميّ تقودانني بخطى مثقلة، محبطة، إلى البيت، بعدما كانتا قد حملتاني إلى هنا، على أجنحة الشوق الجارف.

.لو انتهى ذلك المعرض ولم تعودي؟ ..ماذا لو لم أرك مرّة أخرى
ماذا لو كان حديثك عن زيارتك المحتملة مجرد مجاملة، أخذتها أنا مأخذ الجد؟

كيف يمكن لي وقتها أن أطارد نجمك المذنّب الهارب؟

وحدها تلك البطاقة التي أعطاني إيّاها سي الشريف وهو يودّعني كانت فقد كنت أعرف أخيراً الأرقام السرية .تبعث شيئاً من الأمل في نفسي ولكنّ .التي توصلني إليك، فنمت وأنا أخطط لمبرر هاتفي قد يجمعني بك ولذا ما كدت ..الحب عندما يأتي لا يبحث له عن مبرر، ولا يأخذ له موعداً في اليوم التالي أدخل القاعة وأجلس في الصالون لأطالع جريدتي، حتى رأيتك تدخلين.

.كنت تتقدمين نحوي، وكان الزمن يتوقف انبهاراً بك
قد قرر أخيراً أن يهبني ..وكان الحبّ الذي تجاهلني كثيراً قبل ذلك اليوم ..أكثر قصصه جنوناً

الفصل الثالث

..التقينا إذن

:قالت

- ..آسفة، أتيت متأخرة عن موعدنا يوم ..مرحباً

:قلت

- .قد جئت متأخرة عن العمر بعمر ..لا تأسفي

:قالت

كم يلزمني إذن لتغفر لي؟ -

:قلت

!ما يعادل ذلك العمر من عمر -

.وجلس الياسمين مقابلاً لي

!عطراً أقل ..عطراً أقلّ حبيبتي ..يا ياسمينة تفتحت على عجل

.هو عطر الوطن ..لم أكن أعرف أنّ للذاكرة عطراً أيضاً

:مرتبكاً جلس الوطن وقال بخجل

يعيشك؟ ..عندك كأس ماء -

.وتفجرت قسنطينة ينابيع داخلي

ودعي لي مكانا هنا ..فكلّ هذا الحنين لكِ ..ارتوي من ذاكرتي سيدتي ..مقابلاً لكِ
.أحتسيك كما تُحتسى، على مهل، قهوة قسنطينية

ولكن ..لم يكن لنا الظمأ نفسه .وزجاجة كوكا جلسنا ..أمام فنجان قهوة .كانت لنا الرغبة نفسها في الحديث

:قلت معتذرة

أنا لم أحضر البارحة، لأنني سمعت عمّي يتحدث لشخص على الهاتف - ويتفق معه على زيارتك، ففضّلت أن أؤجّل زيارتي لك إلى اليوم حتى لا ..ألتقي بهما

:أجبتك وأنا أتأملك بسعادة من يرى نجمه الهارب أخيراً أمامه

..خفت ألا تأتي أبداً -

:ثم أضفت

أمّا الآن فيسعدني أنني انتظرتك يوماً آخر، إنّ الأشياء التي نريدها تأتي - !متأخرة دائماً

تراني قلت وقتها أكثر مما يجب قوله؟

عندما قلت وكأنك ..ساد شي من الصمت بيننا وارتباك الاعتراف الأول
:تريدين كسر الصمت، أو إثارة فضولي

أتدري أنني أعرف الكثير عنك؟ -

:قلت سعيداً ومتعجباً

وماذا تعرفين مثلاً؟ -

:أجبت بطريقة أستاذ يريد أن يحير تلميذه

..أشياء كثيرة قد تكون نسيتها أنت -

:قلت لك بمسحة حزن

!مشكلتي في الواقع أنني لا أنسى .لا أعتقد أن أكون نسيت شيئاً -

:أجبتني بصوت بريء، وباعتراف لم أعِ ساعتها كلّ عواقبه القادمة عليّ

البارحة مثلاً ..تصوّر ..أنسى كل شيء ..أمّا أنا فمشكلتي أنني أنسى -
ومنذ أسبوع نسيت مفتاح .نسيت بطاقة الميترو في حقيبة يدي الأخرى
..البيت داخل البيت، وانتظرت ساعتين قبل أن يحضر أحد ليفتح لي الباب
.إنها كارثة

:قلت ساخرا

!شكراً إذن لأنك تذكرت موعدنا هذا -

:أجبت باللهجة الساخرة نفسها

لا بدّ أن تعلم أنني أكره اليقين ..كان احتمال موعد فقط ..لم يكون موعداً -
الأشياء الأجمل، تولد ..أكره أن أجزم بشيء أو ألتزم به ..في كلّ شيء
.وربّما تبقى كذلك ..احتمالاً

:سألتك

؟.لماذا جئتِ إذن -

وراحت عيناك تتسكعان في ملامح وجهي، وكأنهما تبحثان عن ..تأمّلتني
..ثمّ قلت في نظرة مثقلة بالوعود والإغراء ..جواب لسؤال مفاجئ

- لأنك قد تكون يقيني المحتمل!

لم أكن أعرف بعد أنه _ضحكت لهذه الجملة التي تحمل تناقضاً أنثوياً صارخاً وقلت وقد ملأتني عيناك غروراً وزهواً رجالياً _سِمَتك:

- ولذا أجزم أنني سأكون يقينك ..أمّا أنا فأكره الاحتمالات.

قلت بإصرار أنثى على قول الكلمة الأخيرة:

- محتمل كذلك ..إنه افتراض!

وضحكنا كثيراً.

كنت أتوقع لنا بدايات .كنت سعيداً وكأنني أضحك لأول مرة منذ سنوات أخرى، وكنت قد أعددت جملاً ومواقف كثيرة لمبادرتك في هذا اللقاء الأول. ولكن اعترف أنني لم أكن أتوقع لنا بداية كهذه.
وتبعثرت لغتي أمام لغتك التي ..فقد تلاشى كلّ ما أعددته ساعة قدومك لم أكن أدري من أين تأتين بها.

كان هناك تلقائية .كان في حضورك شيء من المرح والشاعرية معاً وبساطة تكاد تجاور الطفولة، دون أن تلغي ذلك الحضور الأنثوي الدائم..
وكنت تملكين تلك القدرة الخارقة على مساواة عمري بعمرك، في جلسة كنت ما أزال .وكأن فتوّتك وحيويّتك قد انتقلتا إليّ عن طريق العدوى .واحدة تحت وقع تصريحاتك تلك، عندما فاجأني كلامك:

- كنت أريد أن أرى لوحاتك بتأنٍّ أكثر، لم أكن أريد أن أتقاسمها ..في الواقع أفضل أن ..عندما أحبّ شيئاً ..في ذلك اليوم مع ذلك الحشد من الناس أنفرد به!

وأجمل ما ..كانت هذه أجمل شهادة إعجاب يمكن أن تقولها زائرة لرسّام وقبل أن أذهب بعيداً في فرحتي أو .يمكن أن تقوليه لي أنت ذلك اليوم أشكرك أضفت:

- لقد كانت جدتي .كنت أود أن أتعرَّف عليك منذ زمن بعيد ..ما عدا هذا يبدو أنها كانت تحبك كثيراً .تحدثني أحياناً عنك عندما تذكر أبي..

سألتك بلهفة:

- إنني لم أرها منذ زمان(أمّا الزهرة)وكيف هي ؟.

قلت بمسحة حزن:

- لقد توفيت من أربع سنوات، وبعد وفاتها انتقلت أمي لتعيش مع أخي لقد غيّر موتها .وجئت أنا إلى باريس لمتابعة دراستي .ناصر في العاصمة فهي التي ربَّتنا في الواقع ..حياتنا بعض الشيء..

كان موتها شوكة أخرى انغرست في قلبي .حاولت أن أنسى ذلك الخبر ، من عطرها السري، من طريقتها في (أمّا)فقد كان فيها شيء من .يومها الفضّيّة "النفّة"تعصيب رأسها على جنب بالمحارم الحريرية، وإخفاء علبة وكانت لها تلك الحرارة التلقائية التي تفيض بها .في صدرها الممتلئ الأمهات عندنا، تلك الكلمات التي تعطيك في جملة واحدة ما يكفيك من الحنان لعمر بأكمله.

كنتِ معي أخيراً، وكان على الزمن أن يكون .ولكن الوقت لم يكن للحزن للفرح فقط.
قلت لك:

- لقد كنت أنا أيضاً أحبّها كثيراً ..رحمها الله..

خشية أن .تراك أردت عندئذ، أن تضعي نهاية لموجة الحزن التي فاجأتني تجرفنا معاً نحو ذاكرة لم نكن مهيأين بعد لتصفحها.
أم فقط كنت تريدين أن تطبّقي برنامج زيارتك عندما نهضت فجأة وقلت:

- أيمكنني أن ألقي نظرة على لوحاتك؟

وقفت لمرافقتك.

رحت أشرح لك بعضها والمناسبات التي رسمتها فيها عندما قلت وأنت تنقلين فجأة عينيك من اللوحات إليّ:

- أنا لا أقول لك هذا مجاملة، ولكن .أتدري أنني أحب طريقتك في الرسم؟ أشعر أننا نحن الاثنين نرى ..أعتقد أنني لو كنت أرسم لرسمت هكذا مثلك وقلّ ما أحسست بهذا تجاه إنتاج جزائري ..الأشياء بإحساس واحد.

أترى عيناك اللتان أصبح لهما فجأة لون آخر .ما الذي أربكني الأكثر لحظتها؟ تحت الضوء، واللتان كانتا تتأملان فجأة ملامحي وكأنهما تتأملان لوحة أخرى أم ما قلته قبل ذلك والذي شعرت أنه تصريح عاطفي وليس انطباعاً ..لي "نحن الاثنين"توقف سمعي عند كلمة .فنياً؛ أو هكذا تمنَّيت أو خيّل لي حتى إنها عنوان لمجلة ..إنها بالفرنسية تأخذ بعداً موسيقياً عاطفياً فريداً عاطفية تصدر لمن تبقى من رومنطيقيين في فرنسا (Nous deux) .

أخفيت ارتباكي بسؤال ساذج:

- وهل ترسمين؟

قلت:

- لا أنا أكتب.

- وماذا تكتبين؟

- أكتب قصصاً وروايات؟!

- قصصاً وروايات...!

فقلت وكأنكِ شعرت بإهانة من مسحة ..ردّدتها وكأنني لا أصدق ما أسمع العجب أو الشك في صوتي:

- لقد صدرت لي أول رواية منذ سنتين..

سألتك وأنا أنتقل من دهشة إلى أخرى:

- وبأي لغة تكتبين؟

قلت:

- بالعربية..

- بالعربية؟!

استفزتك دهشتي، وربما أسأت فهمها حين قلت:

- ولا يمكن أن ..كان يمكن أن أكتب بالفرنسية، ولكن العربية هي لغة قلبي نحن نكتب باللغة التي نحسّ بها الأشياء ..أكتب إلا بها.

- ولكنك لا تتحدثين بغير الفرنسية..

- إنها العادة..

قلتها ثم واصلت تأمل اللوحات قبل أن تضيفي:

- اللغة التي نتحدث بها لأنفسنا وليست تلك التي نتحدث بها ..المهم

!للآخرين

..رحت أتأملك مدهوشاً، وأنا أحاول أن أضع شيئاً من الترتيب في أفكاري

أيمكن أن تجتمع كلّ هذه المصادفات، في مصادفة واحدة؟ وكلّ هذه وأحلامي الوطنية الأولى، في امرأة ..الأشياء التي كانت قناعاتي الثابتة ابنة سي الطاهر لا غير؟ لو تصوَّرت ..وأن تكون هذه المرأة هي أنت ..واحدة إنها أكثر من .لقاء مدهشاً في حياتي، لما تصورت أكثر إدهاشاً من هذا .مصادفة، إنه قدر عجيب، أن تتقاطع طرقنا على هذا النحو، بعد ربع قرن

:أعادني صوتك إلى الواقع وأنت تتوقفين عند إحدى اللوحات

أنت قلّ ما ترسم وجوهاً، أليس كذلك؟ -

:وقبل أن أجيبك قلت

..سأغير عاداتك بعد اليوم ..لن نتحدث إلى بعض إلا بالعربية ..اسمعي -

:سألتني بالعربية

هل ستقدر؟ -

:أجبتك

..لأنني سأغير أيضاً عاداتي معك ...سأقدر -

:أجبتني عندئذ بفرح سري لامرأة اكتشفت فيما بعد أنها تحب الأوامر

ذكِّرني فقط لو حدث .وأحب إصرارك ..فأنا أحب هذه اللغة ..سأطيعك - .ونسيت

:قلت

!لأنك لن تنسي ذلك ..لن أذكرك -

وأنا أجعل تلك اللغة التي كان لي .وكنت أرتكب لحظتها أجمل الحماقات ..معها أكثر من صلة عشقية، طرفاً آخر في قصّتنا المعقّدة
:عدت لأسألك بالعربية

عمّ كنت تتحدثين منذ قليل؟ -

قلت:

- كنت أعجب ألا يوجد في معرضك سوى هذه اللوحة التي تمثّل وجهاً ألا ترسم وجوهاً؟ ..نسائياً

قلت:

- كنت في فترة أرسم وجوهاً ثم انتقلت إلى موضوعات أخرى في الرسم، كلما تقدم عمر الفنان وتجربته، ضاقت به المساحات الصغيرة وبحث عن طرق أخرى للتعبير.

أرسم فقط شيئاً يوحي ..في الحقيقة أنا لا أرسم الوجوه التي أحبها حقاً تلك .أو قطعة من حليّها ..طرفاً من ثوب امرأة ..تماوج شعرها ..طلّتها ..بها تلك التي تؤدي إليها دون أن .التفاصيل التي تعلق في الذاكرة بعدما نفارقها إنّ آلة تصويره ..فالرسام ليس مصوراً فوتوغرافياً يطارد الواقع ..تفضحها تماماً توجد داخله، مخفية في مكان يجهله هو نفسه، ولهذا هو لا يرسم بعينيه، وبأشياء أخرى ..وإنما بذاكرته وخياله.

قلت وعيناك تنظران لامرأة يطغى شقار شعرها على اللوحة ولا يترك مجالاً للون آخر سوى حمرة شفتيها غير البريئتين:

- لماذا رسمت لها لوحة واقعية إلى هذا الحدّ؟ ..وهذه المرأة إذن

ضحكت وقلت:

- هذه امرأة لا ترسم إلا بواقعية..

- ولماذا أسميت لوحتها "اعتذار"؟

- لأنني رسمتها اعتذاراً لصاحبتها..

قلت فجأة بلهجة فرنسية وكأن غضبك أو غيرتك السرّيّة قد ألغت اتفاقنا السابق:

- فاللوحة جميلة حقاً ..أتمنى أن يكون قد أقنعها هذا الاعتذار.

ثم أضفت بشيء من الفضول النسائي:

- ولكن هذا يعود إلى نوع الذنب الذي اقترفته في حقها!

لم أكن أشعر بأيّة رغبة في أن أقصّ عليك قصة تلك اللوحة، في لقائنا الأول

كنت أخاف أن يكون لتلك القصة تأثير سلبي على علاقتنا، أو على نظرتك لي. فحاولت أن أتهرب من تعليقك الذي يستدرجني بحيلة إلى مزيد من التوضيح، وأتجاهل عنادك في الوقوف طويلاً أمام تلك اللوحة بالذات.

هل يمكن أن تقاوم فضول أنثى تصرّ على معرفة شيء؟ ..ولكن

أجبتك:

- لهذه اللوحة قصة طريفة شيئاً ما، تكشف عن جانب من عقدي ورواسبي القديمة، وهي هنا ربّما لهذا السبب.

ورحت أقصّ لأول مرة قصة تلك اللوحة التي رسمتها ذات يوم، بعدما حضرت مرة، كما أفعل بين الحين والآخر، إحدى جلسات الرسم في مدرسة الفنون الجميلة، حيث يدعوني هناك بعض أصدقائي الأساتذة، كما يفعلون عادة مع بعض الرسّامين، لألتقي بالطلبة والرسامين الهواة.

وبينما كان جميع الطلبة متفرغين لرسم ذلك الجسد من زواياه المختلفة، كنت أنا أفكّر مدهوشاً في قدرة هؤلاء على رسم جسد امرأة بحياد جنسيّ، وبنظرة جمالية لا غير، وكأنهم يرسمون منظراً طبيعياً أو مزهرية على طاولة، أو تمثالاً في ساحة.

فقد كنت أرى، من الواضح، أنني كنت الوحيد المرتبك في تلك الجلسة لأول مرة، امرأة عارية هكذا تحت الضوء تغير أوضاعها، تعرض جسدها بتلقائية، ودون حرج أمام عشرات العيون؛ وربما في محاولة لإخفاء ارتباكي ولكن ريشتي التي تحمل رواسب عقد رجل من جيلي، رحت أرسم أيضاً بل راحت ترسم شيئاً ..رفضت أن ترسم ذلك الجسد، خجلاً أو كبرياء لا أدري ..آخر، لم يكن في النهاية سوى وجه تلك الفتاة كما يبدو من زاويتي وعندما انتهت تلك الجلسة، وارتدت تلك الفتاة التي لم تكن سوى إحدى الطالبات ثيابها، وقامت بجولة كما هي العادة لترى كيف رسمها كلّ واحد، قالت بلهجة فوجئت وهي تقف أمام لوحتي، بأنني لم أرسم سوى وجهها أهذا كلّ " :فيها شيء من العتاب وكأنها ترى في تلك اللوحة إهانة لأنوثتها لا، لقد ألهمتني كثيراً من الدهشة، " :فقلت مجاملاً "ما ألهمتك إيّاه؟ أنت أوّل ولكني أنا أنتمي لمجتمع لم يدخل الكهرباء بعد إلى دهاليز نفسه ..امرأة أشاهدها عارية هكذا تحت الضوء، رغم أنني رجل يحترف الرسم إن فرشاتي تشبهني، إنها تكره أيضاً أن تتقاسم مع الآخرين فاعذريني ."!حتى في جلسة رسم ..امرأة عارية

كنت تستمعين إليّ مدهوشة، وكأنك تكتشفين فيّ فجأة رجلاً آخر لم كان في عينيك فجأة شيء جديد، نظرة غامضة ما، تحدثك عنه جدّتك شيء من الإغراء المتعمّد، ربما سببه غيرة نسائية من امرأة مجهولة،

سرقت في يوم ما اهتمام رجل لم يكن حتى الآن مهماً بالنسبة إليك.

كنت سعيداً أن تثير فيك .رحت أتلذّذ بذلك الموقف العجيب الذي لم أتعمده الغيرة هذا الصمت المفاجئ، وهذه الحمرة الخفيفة التي علت وجنتيك، لم ..فاحتفظت لنفسي ببقية القصة .وجعلت عينيك تتّسعان بغضب مكبوت أخبرك أن هذه الحادثة تعود لسنتين، وأنَّ صاحبتها ليست سوى كاترين، يبدو أنه كان مقنعاً ..وأنه كان عليّ فيما بعد أن أقدم لجسدها اعتذاراً آخر الدرجة أنها لم تفارقني منذ ذلك الحين!

أذكر اليوم بشيء من السخرية، ذلك المنعطف الذي أخذته علاقتنا فجأة كنت أتوقع أن !عجيب هو عالم النساء حقاً ..بعدما حدّثتك عن تلك اللوحة تقعي في حبي، وأنت تكتشفي تلك العلاقة السرية التي تربطك بلوحتي وإذا بك تتعلقين بي بسبب .لوحة في عمرك وفي هويتك ."حنين"الأولى لوحة أخرى لامرأة أخرى، تعبر الذاكرة خطأ!

انتهى موعدنا الأول عند الظهر.

كنت أشعر أننا .ربما غداً ..كان عندي إحساس ما إنني سأراك مرة أخرى كان هناك كثير من الأشياء التي .في بداية شيء ما، وأننا كلينا على عجل نحن أغرينا بعضنا فقط بحديث .لم نقلها بعد، بل إننا لم نقل شيأً في النهاية كنّا، عن سذاجة أو عن ذكاء، نمارس اللعبة نفسها معاً، ولذا لم .محتمل أتعجب كثيراً عندما سألتني وأنت تودّعينني:

- هل ستكون هنا غداً صباحاً؟

قلت لك بسعادة من ربح الرهان:

- طبعاً.

قلت:

- سأعود إذن غداً في الوقت نفسه تقريباً، سيكون لنا متَّسع أكثر للحديث. ..لقد مرّ الوقت بسرعة اليوم دون أن ننتبه لذلك

ولذا .كنت أدري أن لا مقياس للوقت سوى قلبينا .لم أعلّق على كلامك فالوقت لا يركض بنا إلا عندما يركض بنا القلب لاهثاً أيضاً من فرحة إلى ولذا وجدت في كلامك اعترافاً بفرح ..أخرى، ومن دهشة إلى أخرى توقعت أن يتكرّر ..مشترك سرّي.

أذكر أنني قلت لك يومها وأنا أودِّعك عند باب القاعة:

- أريد أن أقرأك ..لا تنسي كتابك غداً.

قلت متعجبة:

- أتتقن العربية؟

قلت:

- سترين ذلك بنفسك ..طبعاً.

قلتِ:

- سأحضره إذن..

ثم أضفت بابتسامة لا تخلو من كيدٍ نسائي محبّب:

- لن أحرمك من هذه المتعة ..مادمت تصرّ على معرفتي!

وانغلق الباب خلف ابتسامتك تلك، دون أن أفهم ما كنت تعنيه بالتحديد.

وبقيت عند عتبة ذلك .نفسه ..ذهبت بالغموض الضبابي الذي جئت به الباب الزجاجي، أتأملك تندمجين بخطى المارة وتختفين مرة أخرى كنجمٍ ترانا التقينا حقاً؟ ..و أنا أتسال بشيء من الذهول ..هارب!

***

التقينا إذن..
الجبال وحدها لا تلتقي"الذين قالوا ..أخطأوا.
والذين بنوا بينها جسوراً، لتتصافح دون أن تنحني أو تتنازل عن شموخها ..لا
يفهمون شيئاً في قوانين الطبيعة.
الجبال لا تلتقي إلا في الزلازل و الهزات الأرضية الكبرى، وعندما لا تتصافح، وإنما تتحول إلى تراب واحد.
التقينا إذن..

وحدثت الهزة الأرضية التي لم تك متوقّعة، فقد كان أحدنا بركاناً، وكنت أنا الضحية.

ويا جبلاً بركانياً جرف كلّ شيء في طريقه، وأحرق .يا امرأة تحترف الحرائق آخر ما تمسَّكت به.

من أين أتيت بكل تلك الأمواج المحرقة من النار؟ وكيف لم أحذر تربتك المحمومة، كشفتيْ عاشقة غجرية.

كيف لم أحذر بساطتك وتواضعك الكاذب، وأتذكّر درساً قديماً في الجغرافية: فهل يمكن "..الجبال البركانية لا قمم لها؛ إنها جبال في تواضع هضبة" للهضاب أن تفعل كلّ هذا؟

كلّ الأمثلة الشعبية تحذّرنا من ذلك النهر المسالم الذي يخدعنا هدوؤه وإذا به يعمينا ..وذلك العود الصغير الذي لا نحتاط له .فنعبره، وإذا به يبتلعنا.

ولكن كلّ ."يؤخذ الحذر من مأمنه"أكثر من مثل يقول لن بأكثر من لهجة تحذيراتها لن تمنعنا من ارتكاب المزيد من الحماقات، فلا منطق للعشق وكلما ازددنا عشقاً كبرت حماقاتنا .خارج الحماقات والجنون.

تعرف أنك عاشق عندما تبدأ في التصرف ضد " (برنارد شو)ألم يقل "!مصلحتك الشخصية

وكانت حماقاتي الأولى، أنني تصرفت معك مثل سائح يزور صقلّية لأول ، ويصلّي ليستيقظ البركان النائم بعين واحدة (إتنا)مرة، فيركض نحو بركان من نومه، ويغرق الجزيرة ناراً، على مرأى من السواح المحملين بالآلات والدهشة ..الفوتوغرافية.

وتشهد جثث السواح التي تحولت إلى تراب أسود أنه لا أجمل من بركان يتثاءب، ويقذف ما في جوفه من نيران وأحجار، ويبتلع المساحات الشاسعة في بضع لحظات.

بشيء شبيه ..وأنّ المتفرج عليه يصاب دائماً بجاذبية مغناطيسية ما يحاول أن .بشهوة اللهب، يشدّه لتلك السيول النارية، فيظل منبهراً أمامها يتذكّر في ذهول كلّ ما قرأه عن قيام الساعة، وينسى بحماقة عاشق، أنه !قيام ساعته ..يشهد ساعتها

حتى ..يشهد الدمار حولي اليوم، أنني أحببتك حتى الهلاك؛ وأشتهيك هناك أراض محروقة تمنحك "وصدَّقت جاك بريل عندما قال .الاحتراق الأخير وراهنت على ربيع هذا ."من القمح ما لا يمنحك نيسان في أوج عطائه ونيسان هذه السنوات العجاف .العمر القاحل.

ألم يكن جنوناً أن أزايد على جنون ..يا بركاناً جرف من حولي كلّ شيء فأنقل بيتي عند سفحك، وأضع ..السواح والعشاق، وكلّ من أحبوك قبلي

لأرسمك ..ذاكرتي عند أقدام براكينك، وأجلس بعدها وسط الحرائق.

أن أرفض الاستعانة بنشرات الأرصاد الجوية، والكوارث ..ألم يكن جنوناً نسيت وقتها أن .الطبيعية، وأقنع نفسي أنني أعرف عنك أكثر مما يعرفون المنطق ينتهي حيث يبدأ الحبّ، وأنّ ما أعرفه عنك لا علاقة له بالمنطق ولا بالمعرفة.

والتقينا ..التقت الجبال إذن.
ربع قرن من الصفحات الفارغة البيضاء التي لم تمتلئ بك.
ربع قرن من الأيام المتشابهة التي أنفقتها في انتظارك.
ربع قرن على أوّل لقاء بين رجل كان أنا، وطفلة تلعب على ركبتي كانت أنت.
ربع قرن على قبلة وضعتها على خدك الطفولي، نيابة عن والد لم يرك.

أنا الرجل المعطوب الذي ترك في المعارك المنسيّة ذراعه، وفي المجن المغلقة قلبه..

لم أكن أتوقع أن تكوني المعركة التي سأترك عليها جثّتي، والمدينة التي واللوحة البيضاء التي ستستقيل أمامها فرشاتي، ..سأنفق فيها ذاكرتي تحمل في لونها كلّ الأضداد .وجبّارة مثلك ..لتبقى عذراء.

كيف حدث كلّ هذا؟ لم أعد أدري.

كان الزمن يركض بنا من موعد إلى آخر، والحبّ ينقلنا من شهقة إلى أخرى، وكنت أستسلم لحبك دون جدل.
وربما كان حتفي، فهل من قوة تقف في وجه القدر؟ ..كان حبك قدري

كان لقاؤنا يتكرر كل يوم تقريباً، كنّا نلتقي في تلك القاعة نفسها في ساعات مختلفة من النهار، فقد شاءت المصادفات أن يصادف معرضي عطلة فلم .وكنت تملكين ما يكفي من الوقت لزيارتي كلّ يوم .الربيع المدرسية يكن لك أيّ دوام جامعي.

كان عليك فقط أن تتحايلي على الآخرين بعض الشيء، وربما على ابنة عمك أكثر، حتى لا ترافقك لسبب أو لآخر

ترانا نرتكب أكبر :"إلى الغد"كنت أتساءل كل مرة وأنا أودعك مردداً تلقائياً، وربما لأنني كنت أكبرك سنّاً، كنت .الحماقات ويزداد تعلقنا ببعض كلّ يوم أشعر أنني تحمل وحدي مسؤولية ذلك الوضع العاطفي الشاذ وانحدارنا السريع والمفجع نحو الحب.

ولكن عبثاً كنت أحاول الوقوف في طريق ذلك الشلال الذي كان يجرفني

إليك بقوة حبّ في الخمسين، بجنون حبّ في الخمسين، بشهية رجل لم يعرف الحبّ قبل ذلك اليوم.

كان حبك يجرفني بشبابه وعنفوانه، وينحدر بي إلى أبعد نقطة في اللامنطق.. تلك التي يكاد يلامس فيها العشق، في آخر المطاف، الجنون أو الموت..

وكنت أشعر وأنا أنحدر معك إلى تلك المتاهات العميقة داخلي، إلى تلك الدهاليز السرية للحب والشهوة، وإلى تلك المساحة البعيدة الأغوار التي لم تطأها امرأة قبلك، أنني أنزل أيضاً سلّم القيم تدريجياً، وأنني أتنكَّر دون أن أدري لتلك المثل التي آمنت بها بتطرّف، ورفضت عمراً بأكمله أن أساوم عليها.

لقد كانت القيم بالنسبة لي شيئاً لا يتجزأ، ولم يكن هناك في قاموسي من فرق بين الأخلاق السياسية، وبقية الأخلاق.. وكنت أعي أنني، معك، بدأت أتنكَّر لواحدة لأقنعك بأخرى.
تساءلت كثيراً آنذاك..

تراني كنت أخون الماضي، وأنا أنفرد بك في جلسة شبه بريئة، في قاعة تؤثثها اللوحات والذاكرة؟
تراني أخون أعزّ مَنْ عرفت من رجال، وأكثرهم نخوة ومروءة، وأكثرهم شجاعة ووفاءً؟

فأدنّس سأخون سي الطاهر قائدي ورفيقي وصديق عمر بأكمله. تراني سأخون ووصيّته الأخيرة؟ ..ذكراه وأسرق منه زهرة عمره الوحيدة

أيمكن أن أفعل كلّ ذلك باسم الماضي، وأنا أحدِّثك عن الماضي!

أكنت حقّاً أسرق منك شيئاً، في تلك الجلسات التي كنت أحدِّثك ..ولكن فيها طويلاً عنه؟.

كانت لم يحدث هذا أبداً، كانت هيبة اسمه حاضرة في ذهني دائماً ..لا. كانت جسراً وحاجزاً في تربطني بك وتفصلني عنك في الوقت نفسه. الوقت نفسه..

أن أفتح لك دفاتر وكانت متعتي الوحيدة وقتها، أن أودعك مفاتيح ذاكرتي. وكأنني أكتشفها معك وأنا صفحة ..الماضي المصفرّة، لأقرأها أمامك صفحة أستمع لنفسي، أقصها لأول مرة.

كنت أنا الماضي الذي كنا نكتشف بصمت أننا نتكامل بطريقة مخيفة. تجهلينه، وكنتِ أنت الحاضر الذي لا ذاكرة له، والذي أحاول أن أودعه بعض

ما حمّلتني السنوات من ثقل.

كنتِ فارغة كإسفنجة، وكنت أنا عميقاً ومثقلاً كبحر.

رحت تمتلئين بي كلّ يومٍ أكثر..
كنت أجهل ساعتها أنني كنت كلما فرغت امتلأت بك أيضاً، وأنني كلما وإذا بنا نحمل ذاكرة .وهبتك شيئاً من الماضي، حوّلتك إلى نسخة منّي فقد كنَّا معاً .مشتركة، طرقاً وأزقة مشتركة، وأفراحاً وأحزاناً مشتركة كذلك معطوبي حرب، وضعتنا الأقدار في رحاها التي لا ترحم، فخرجنا كلٌّ بجرحه.

لقد بتروا ذراعي، وبتروا .كان جرحي واضحاً و جرحك خفياً في الأعماق كنَّا أشلاء ..وأخذوا من أحضانك أبا ..اقتلعوا من جسدي عضواً .طفولتك وتمثالين محطّمين داخل أثواب أنيقة لا غير ..حرب.

أذكر ذلك اليوم الذي طلبت فيه مني لأول مرة، أن أحدَّثك عن أبيك.
بهذه النية فقط ..واعترفت بشيء من الارتباك، أنَّك جئت لزيارتي من البدء شي من المرارة التي اكتشفتها ..كان في صوتك شيء من الحزن المكابر فيك لأول مرة.

قلت:

- ما فائدة أن يمنح اسم أبي لشارع كبير، وأن أحمل ثقل اسمه الذي يردده أمامي المارة والغرباء عدة مرات في اليوم. أعرف لا كنت إذا ذلك فائدة ما عنه أكثر مما يعرفون، وإذا كان لا يوجد بينهم شخص واحد قادر على أن يحدّثني عنه حقاً؟

قلت لك متعجباً:

- ألم يحدثك عنه عمّك مثلاً؟

قلت:

- وعندما يحدث أن يذكره أمامي، يأتي كلامه وكأنه ..عمّي لا وقت له لهذا أقرب لخطبة تأبينية يتوجه بها لغرباء يستعرض أمامهم مآثر أخيه، ولا يتوجه فيها إليّ ليحدثني عن رجل هو أبي قبل كلّ شي..

الذي أريد أن أعرفه عن أبي، ليس تلك الجمل الجاهزة لتمجيد الأبطال والشهداء، والتي تقال في كلّ مناسبة عن الجميع؛ وكأنَّ الموت سوّى فجأة بين كلّ الشهداء، فأصبحوا جميعاً نسخة طبق الأصل.

أخطاءه وحسناته ..بعض تفاصيل حياته ..يهمني أن أعرف شيئاً عن أفكاره..

لا أريد أن أكون ابنة لأسطورة، الأساطير .هزائمه السرية ..طموحاته السرية
أريد أن أكون ابنة لرجل عادي بقوّته وبضعفه، بانتصاراته .بدعة يونانية
ففي حياة كلّ رجل خيبة ما وهزيمة ما، ربما كانت سبباً في .وبهزائمه
.انتصار آخر

..حلّ شيء من الصمت بيننا
رحت أبحث عن الحدّ الفاصل بين .كنت أتأملك وأغوص في أعماق نفسي
لم أكن في تلك اللحظة نبيّاً، ولا كنت أنت آلهة .هزائمي وانتصاراتي
كنّا فقط تمثالين أثريين قديمين محطمَي الأطراف، يحاولان ترميم ..إغريقية
فرحت أستمع إليك وأنت ترمّمين ما في أعماقك من .أجزائهما بالكلمات
.دمار

:قلت

- يحدث أن أشعر أنني ابنة لرقم فقط، رقم بين مليون ونصف مليون رقم آخر
ربما كان بعضها أكبر أو أصغر، ربما كتب اسم بعضها بخط أكبر أو أصغر من .
.خطّ آخر، ولكنها جميعاً أرقام لمأساة ما

:وأضفتِ

- لقد أورثني مأساة .أن يكون أبي أورثني اسماً كبيراً، هذا لا يعني شيئاً
في ثقل اسمه، وأورث أخي الخوف الدائم من السقوط، والعيش مسكوناً
بهاجس الفشل، وهو الابن الوحيد للطاهر عبد المولى الذي ليس من حقه
.أن يفشل في الدراسة ولا في الحياة، لأنه ليس من حق الرموز أن تتحطم
والنتيجة، أنه تخلى عن دراسته الجامعية وهو يكتشف عبثية تكديس
ربما كان على حق، .الشهادات، في زمن يكدّس فيه الآخرون الملايين
.فالشهادات هي آخر ما يمكن أن يوصلك اليوم إلى وظيفة محترمة

لقد رأى أصدقاءه الذين تخرجوا قبله، ينتقلون مباشرة إلى البطالة أو إلى
ورغم أنني .موظَّفين برواتب وأحلام محدودة، فقرَر أن ينتقل إلى التجارة
أشاطره رأيه، إلا أنه يحزنني أن يتحول أخي وهو في عزّ شبابه، إلى تاجر
.صغير يدير محلاً تجارياً وشاحنة وهبتها له الجزائر كامتياز بصفته ابن شهيد
!لا أعتقد أن أبي كان يتوقَّع له مستقبلاً كهذا

:قاطعتك في محاولة لتخفيف تذمرك

- لقد ذهبت أبعد من أحلامه؛ إنك .إنه لم يتوقع أيضاً لكِ مستقبلاً كهذا
كان رجلاً يقدّس العلم والمعرفة، ويعشق .الوريثة لكلّ طموحاته ومبادئه
العربية، ويحلم بجزائر لا علاقة لها بالخرافات والعادات البالية التي أرهقت
إنك لا تعين أن يكون لك اليوم هذا الحظ الاستثنائي، في .جيله وقضت عليه
وطن يمنحك فرصة أن تكوني فتاة مثقَّفة، يمكنها الدراسة والعمل وحتى

..الكتابة

:أجبت بشيء من السخرية

- قد أكون مدينة للجزائر بثقافتي أو بعلمي، ولكن الكتابة شيء آخر لم يمنّ كنت ..نحن نكتب لنستعيد ما أضعناه وما سرق خلسة منّا .به أحد عليّ أفضِل أن تكون لي طفولة عادية وحياة عادية، أن يكون لي أب وعائلة ولكن أبي أصبح .كالآخرين؛ وليس مجموعة من الكتب وجزمة من الدفاتر !ولن يأخذها منّي أحد ..ملكاً لكل الجزائر، ووحدها الكتابة أصبحت ملكي

أحزنني، ولكنه لم يوصلني .ملأني بأحاسيس متناقضة .أذهلني كلامك إنها دائماً تثير .إنَّ امرأة ذكية لا تثير الشفقة .إلى حد الشفقة عليك وكنت معجباً بك، بجرحك المكابر، بطريقتك .الإعجاب حتى في حزنها كنت تشبهينني أنا الذي كنت أرسم .الاستفزازية في تحدّي هذا الوطن بيد لأستعيد يدي الأخرى
لأقوم بأشياء عادية يومية، ولا أتحول إلى عبقري بذراع واحدة، لا تتأبط غير .الرسوم واللوحات

لم أجاهد من .لم يكن حلمي أن أكون عبقرياً ولا نبياً ولا فناناً رافضاً ومرفوضاً كان حلمي أن تكون لي زوجة وأولاد، ولكن القدر أراد لي حياة .أجل هذا لقد بتروا أيضاً ..أخرى، فإذا بي أب لأطفال آخرين وزوج للغربة والفرشاة .أحلامي

:قلت لك

- .إن ما في أعماقنا هو لنا ولن تطوله يد أحد ..لن يأخذ أحد منك الكتابة

:قلتِ

- ولكن ليس في أعماقي شيء سوى الفراغات المحشوة بقصاصات .بنشرات الأخبار، وبكتب ساذجة ليس بيني وبينها من قرابة ..الجرائد

:ثم أضفت وكأنك تودعينني سراً

- وأكثر حتى من ..أتدري لماذا كنت أحبّ جدّتي أكثر من أي شخص آخر أمّي؟ إنها الوحيدة التي كانت تجد متسعاً من الوقت لتحدّثني عن كلّ كانت .كانت تعود إلى الماضي تلقائياً، وكأنها ترفض الخروج منه ..شيء .ولا تطرب سوى لسماع أغانيه ..تأكل الماضي ..تلبس الماضي

ولذا .كانت تحلم بالماضي في زمن كان الآخرون يحلمون فيه بالمستقبل كثيراً ما تحدّثني عن أبي دون أن أطلب منها ذلك، فقد كان أجمل ما في

وكانت لا تتعب من الحديث عنه، كأنها تستعيده .ماضيها الأنثوي العابر كانت تفعل ذلك بحسرة الأم التي ترفض أن تنسى .بالكلمات وتستحضره ولكنها لم تكن تقول لي عنه أكثر مما تقوله أم ..أنها فقدت بكرها إلى الأبد هو الابن البارّ الذي لم ..هو الأروع ..كان الطاهر هو الأجمل .عن ابنها يجرحها يوماً بكلمة.

لماذا تبكين وقد ..أمّا"سألتها .يوم الاستقلال بكت جدّتي كما لم تبك يوماً كنت في الماضي أنتظر الاستقلال ليعود لي " :قالت "استقلَّت الجزائر؟ الطاهر، اليوم أدركت أنني لم أعد أنتظر شيئاً".

يوم مات أبي لم تزغرد جدّتي كما في قصص الثورة الخياليّة التي قرأتها وقفت في وسط الدار وهي تشهق بالبكاء وتنتفض عارية الرأس .فيما بعد آه الطاهر أحنَاني لمن ..يا سوادي ..يا وخيدتي " :مرددة بحزن بدائي نروح عليك أطراف ..خلّيتني".

وكانت أمي تبكي بصمت وهي تحاول تهدئتها، وكنت أنا أتفرج عليهما رجلاً كان ..وأبكي دون أن أفهم تماماً أنني أبكي رجلاً لم أره سوى مرَّات أبي.

يثير دائماً فيّ تلك العواطف الغامضة، التي (أمّا الزهرة)لماذا كان ذكرك لـ كانت جميلة ودافئة قبل ذلك اليوم، والتي أصبحت فجأة موجعة حدّ البكاء؟

مازلت أذكر ملامح تلك العجوز الطيبة التي أحبّتني بقدر ما أحببتها والتي كان لتلك المرأة طريقة .قضيت طفولتي وصباي متنقلاً بين بيتها وبيتنا واحدة في الحبّ، اكتشفت بعدها أنها طريقة مشتركة لكلّ الأمهات عندنا. إنها تحبّك بالأكل، فتعد من أجلك طبقك المفضل وتلاحقك بالأطعمة، وتحمّلك بالحلويات، وبالكسرة والرخسيس الذي انتهت لتوِّها من إعداده.

لقد كانت تنتمي لجيل من النساء نذرن حياتهنَّ للمطبخ، ولذا كنّ يعشن الأعياد والأعراس كوليمة حبّ، يهبن فيها من جملة ما يهبن فائض أنوثتهنَّ.. وحنانهنَ وجوع سرّي لم يجد له من تعبير آخر خارج الأكل.

"ترّاس"وأكثر من ..لقد كنَّ في الوقع يطعمن كل يوم أكثر من مائدة.. اكتشفت وينمن كل ليلة دون أن ينتبه أحد إلى جوعهنّ المتوارث من عصور عاجزاً عن حبّ _هذه الحقيقة مؤخراً فقط، يوم وجدت نفسي ربَّما وفاءً لهنَّ امرأة تعيش على الأكل الجاهز، ولا وليمة لها غير جسدها!

سألتك وأنا أهرب من تلك الذكريات هربي من خدوش طفولتي البعيدة:

إنك لم تحدّثيني عنها أبداً كيف عاشت بعد وفاة سي الطاهر؟ ..وأمك -

قلتِ:

- ربّما كانت في أعماقها تعتب على الذين زوجوها منه، فقد كانوا يزفّونها لشهيد وليس لرجل..لقد كانت قليلة الحديث عنه..

كانت تعرف مسبقاً نشاطه السياسي، وتدري أنه سيلتحق بالجبهة بعد الزواج، وسيدخل في الحياة السرّيّة، ولن يزورها إلا خلسة بين الحين والآخر، وقد لا يعود إليها إلا جثماناً، فلماذا هذا الزواج إذن؟ ولكن كان لا بدّ فقد كان أهلها فخورين .لذلك الزواج أن يتمّ؛ كان في الجوّ رائحة صفقة ما ولا بأس أن .بمصاهرة الطاهر عبد المولى، صاحب الاسم والثروة الكبيرة وربما كانت جدتي تعرف أنه خلق .تكون أمي زواجه الثاني أو أرملته القادمة ليستشهد فراحت تزور الأولياء والصالحين متضرّعة باكية لابنها أخيراً ذريّة..تماماً كما كانت تزور سابقاً يوم كانت حبلى به طالبة آنذاك أن يكون مولودها صبيّاً..

سألتك:

- من أين تعرفين كلّ هذه القصص؟

قلت:

- تصور أنها يوم كانت حبلى بأبي لم تفارق مزار .ومن أمي أيضاً ..منها هي ولذا سمّته ..بقسنطينة، حتى إنها كادت تلده هناك (سيدي محمد الغراب) تباركاً به أيضاً (محمد الشريف)ثمّ سمّت عمي ..تباركاً به (محمد الطاهر) وأنّ أهل تلك ..بعدها عرفت أنّ نصف رجال تلك المدينة أسماؤهم هكذا .. المدينة يولون اهتماماً كبيراً للأسماء، وأنَ معظمهم يحمل أسماء الأنبياء أو تباركاً بالسيدة المنوبيّة "السيدة"وهكذا كادت تسمِيني .الأولياء الصالحين التي كانت تزورها في تونس كلّ مرة محملة بالشمع والسجاد والدعوات، ربما سمعت به، ذلك .(سيدي عمر الفاياش)متنقلة بين ضريحها ومزار وهو ما جعل السلطات ..الولي الذي كان يعيش عارياً تماماً من كل شيء التونسية تقوم بربط قدمه إلى سلسال حديدي حتى لا يغادر البيت عارياً وهكذا كان يعيش مقيداً، يدور ويصرخ وسط غرفة فارغة، ..كما تعوّد أن يفعل وأخريات لمجرد ..إلا من النساء اللاتي يتسابقن لزيارته، بعضهن للتبارك به ولفضول النساء الملتحفات بـ ..اكتشاف رجولته المعروضة للفرجة والمتظاهرات بالحشمة الكاذبة (السفساري)!..

سألتك ضاحكاً..

- وهل زرته أنت؟.

قلتِ:

- "لقد زرته بعد ذلك مع كلّ واحدة منهنَّ على انفراد؛ وزرت أيضاً ..طبعاً ، المرأة التي كدت أحمل اسمها، لولا أنَّ أمي أنقذتني "السيدة المنوبية في انتظار مجيء أبي، الذي "حياة"من تلك الكارثة، وقررت أن تسميني .يعود إليه القرار الأخير في اختيار اسمي

تعثّر اللسان وهو .وركضت الذاكرة إلى الوراء ..توقَّف القلب عند هذا الاسم :يلفظ هذا الاسم بعد ربع قرن تماماً وفاجأك سؤالي

- "هل يسعدك أن أناديك "حياة"؟

..قلت متعجبة

- لماذا ..ألا يعجبك اسمي الحقيقي ..ألم أجمل؟!

:قلت

- إنه حقا أجمل ..حتى إنني تعجّبت وقتها كيف خطر اسم كهذا في بال كنت أسمعه لأول مرة ولم يكن في حياته آنذاك ما يمكن أن يوحي .والدك لأنني قد أكون "حياة"وبرغم ذلك أحبّ أن أسمِّيك ..باسم جميل كهذا أريد أن يكون بيننا ككلمة .الوحيد مع والدتك الذي يعرف اليوم هذا الاسم .طفلتي بطريقة ما ..سرّ، ليذكّرك بعلاقتنا الاستثنائية، وبأنك أيضاً

:قلتِ ..ضحكتِ

- أتدري أنك لم تخرج أبداً من فترة الثورة، ولذا أنت تشعر برغبة في أن وكأنك ستدخلني بذلك في .تعطيني اسماً حركياً حتى قبل أن تحبني أيّة مهمة تراك تعد لي؟ ..العمل السري

تراك بدأت تعرفينني إلى .ضحكت بدوري لملاحظتك التي فاجأتني بواقعيتها هذا الحد؟

:قلت

- لنكلِّف أحداً .اعلمي أيتها الثوريّة المبتدئة أنه لا بدّ من أكثر من اختبار ولذا سأبدأ في مرحلة أولى بدراستك، ومعرفة استعدادتك .بمهمة فدائية !الخاصّة

***

أحسست لحظتها، أنّ الوقت قد أصبح مناسباً، لأقصّ عليك أخيراً قصّة يومي الأخير في الجبهة، ذلك اليوم الذي لفظ فيه سي الطاهر اسمك أمامي لأول مرة، وهو يودّعني ويكلّفني إذا ما وصلت إلى تونس على قيد الحياة أن أقوم بتسجيلك نيابة عنه.

وتلك الليلة التي عبرت فيها الحدود الجزائرية التونسية، بجسد محموم وذراع تنزف، وأنا أردّد لنفسي بهذيان الحمّى، اسمك الذي أصبح وسط إجهادي ونزيفي، وكأنه اسم لعملية أخيرة كلفني بها سي الطاهر، كنت أريد أن أحقق طلبه الأخير، وأطارد حلمه الهارب، فأمنحك اسماً شرعياً رسمياً.. لا علاقة له بالخرافات والأولياء..

أذكر ذلك اليوم الذي وقفت فيه لأول مرة أدق باب بيتكم في شارع التوفيق بتونس. أذكر تلك الزيارة بكل تفاصيلها وكأن ذاكرتي كانت تقرأ مسبقاً ما سيكتب لي معك، فأفرغت مساحة كافية لها.

في ذلك اليوم الخريفيّ من شهر أيلول، انتظرت أمام بابكم الحديديّ الباب بعد لحظات بدت لي طويلة (أمّا الزهرة)الأخضر، قبل أن تفتح..

مازلت أذكر تلك الشهقة في نظرتها، كأنها كانت تنتظر شخصاً آخر غيري.

توقفت مدهوشة أمامي، تفحّصت معطفي الرمادي الحزين ووجهي النحيل وذراع الشاحب. توقفت عند ذراعي الوحيدة التي تمسك علبة الحلوى، وذراع معطفي الأخرى الفارغة التي تختبئ لأول مرة بحياء داخل جيب معطفي. وقبل أن أنطق بأية كلمة اغرورقت عيناها بالدموع، وراحت تبكي دون أن تفكّر حتى في دعوتي إلى دخول البيت.

بالشوق الذي حمّلني ..بشوق السنوات التي لم أرها فيها ..انحنيت أقبّلها التي لم أتعوّد بعد سنتين ونصف على فجيعتها (أمّا)وبشوق ..إياه ابنها..

- واشك أمّا الزهرة؟

زاد بكاؤها وهي تحتضنني وتسألني بدورها..

- واش راك يا ولدي؟..

أكان بكاؤها فرحاً بلقائي، أم حزناً على حالتي، وعلى ذراعي التي تراها

أم فقط ..أكانت تبكي لأنها توقعت أن ترى ابنها ورأتني ..مبتورة لأول مرة لأن أحداً قد دقّ هذا الباب، ودخل حاملاً في يده البهجة، وشيئاً من الأخبار، لبيت ربَّما لم يدخله رجل منذ شهور؟

- جوز يا ولدي جوز ..ع السلامة..

ثم أعادت وهي .قالتها وهي تشرع باب الدار أخيراً وتمسح دموعها بصوت عالٍ كإشارة موجهة لأمك التي ركضت عند "..جوز..جوز"تسبقني سماع هذه الكلمات، ولم أرَ غير ذيل ثوبها يسبقني، ويختفي خلف باب مغلق على عجل.

بدوالي العنب التي تتسلّق جدران حديقته الصغيرة، ..أحببت ذلك البيت وتمتد لتتدلى عناقيد ثريات سوداء على وسط الدار.

شجرة الياسمين التي ترتمي وتطلّ من السور الخارجي، كامرأة فضولية ضاقت ذرعاً بجدران بيتها، وراحت تتفرج على ما يحدث في الخارج، لتغري ورائحة الطعام ..أو جمع ما تبعثر من الياسمين أرضاً ..المارة بقطف زهرها التي تنبعث منه، فتبعث معها الطمأنينة، ودفء غامض يستبقيك هناك.
إلى غرفة تطل على وسط الدار مرددة (أمّا الزهرة)سبقتني:

- اقعد ..اقعد يا ولدي..

قالتها وهي تأخذ منّي علبة الحلوى وتضعها على الصينية النحاسية المستديرة والموضوعة على مائدة خشبية.

وما كدت أجلس أرضاً على ذلك المطرح الصوفي حتى ظهرت أنت في طرف الغرفة صغيرة كدمية، وحبوت مسرعة نحو العلبة البيضاء تحاولين سحبها قد أخت منك (أمّا الزهرة)وقبل أن أتدخل أنا كانت .إلى الأرض وفتحها العلبة وذهبت بها إلى مكان آخر وهي تقول: "يعطيك الصحة يا وليدي..
..وجهك يكفينا ..وعلاش عييت روحك يا خالد يا بني".

ثم عادت ونهرتك، وأنت تتجهين نحو الشّياحة الخشبية، الموضوعة على شكل قبّة صغيرة فوق كانون، والتي كانت ثيابك الصغيرة البيضاء منثورة وعندها حبوت تحوي في خطوتين مترددتين، ويداك ..فوقها كي تجفّ الصغيرتان أمامك تستنجدان بي.

لحظتها شعرت بهول ما حلّ بي، وأنا أمدّ نحوك يدي الفريدة في محاولة للإمساك بك .لقد كنت عاجزاً عن التقاطك بيدي الوحيدة المرتبكة، ووضعك في حجري لملاعبتك دون أن تفلتي مني.

أليس عجيباً أن يكون لقائي الأول بك هو امتحاني الأول وعقدتي الأولى،

وأن أنهزم على يدك في أصعب تجربة مررت بها منذ أصبحت رجل الذراع !..من عشرة أيام لا أكثر ..الواحدة

:"الطمّينة"بصينية القهوة وبصحن (أمّا الزهرة)عادت

واش راه الطاهر؟ ..قل لي يا خالد يا ابني وراسك -

.كان في سؤالها مذاق الدمع ..قالتها قبل أن تجلس حتى على المطرح أخبرتها .فرحت أطمئنها ..وفي حلقها غصّة السؤال الذي يخاف الجواب أنني كنت تحت قيادته وأنه الآن في منطقة الحدود وأن صحته جيدة ولكنه .لا يستطيع الحضور هذه الأيام، لصعوبة الأوضاع ولمسؤولياته الكثيرة

لم أخبرها أن المعارك تشتد كل يوم، وأن العدو قرر أن يطرق المناطق وأنه ..الجبلية، ويحرق كل الغابات، حتى تتمكن طائراته من مراقبة تحركاتنا تم إلقاء القبض على مصطفى بن بولعيد، ومعه مجموعة من كبار القادة والمجاهدين، وأن ثلاثين منهم قد صدر في حقهم الحكم بالإعدام، وأنني أتيت للعلاج مع مجموعة من الجرحى والمشوهين الذين مات اثنان منهم ..قبل أن يصلا

لقد قال لها منظري أكثر مما تتحمله امرأة في سنها، فرحت أغيّر مجرى أمددتها بتلك الأوراق النقدية التي أرسلها معي سي الطاهر، ..الحديث وطلبت منها حسب وصيته أن تشتري لك بها هدية، ووعدتها أن أعود قريباً لتسجيلك، بذلك الاسم الذي اختاره لك، والذي رددته أمّا الزهرة بصعوبة، فقد كان لما يقوله سي الطاهر .وبشي من الدهشة، ولكن دون تعليق .بالنسبة لها صفة القداسة

وكأنك انتبهت فجأة أن الحديث يعنيك، فتسلّقت ركبتي وجئت فجأة لتجلسي في حجري بتلقائية طفولية، ولم أتمالك لحظتها احتضانك بيدي ضممتك إليّ، وكأنني أضمّ الحلم الذي أضعت من أجله ذراعي ..الوحيدة الثانية؛ كأنني أخاف أن يهرب مني وتهرب معه أحلام ذلك الرجل الذي لم .يسعد بعد باحتضانك

رحت أقبلك وسط دموعي وفرحتي وألمي وكلّ تناقضي، نيابة عن سي طاهر وعن رفاق لم يروا أولادهم منذ التحقوا بالجبهة، ونيابة عن آخرين، ماتوا وهم يحلمون بلحظة بسيطة كهذه، يحتضنون فيها بدل البنادق، .أطفالهم الذين ولدوا وكبروا في غفلة منهم

نيابة عن .وأن أبكي أمامك نيابة عني ..نسيت يومها أن أقبِّلك نيابة عني نسيت أن أسجّل جوار .الرجل الذي سأتحول إليه على يدك بعد ربع قرن وأعوامك القادمة ..وأن أطلب ذاكرتك مسبقاً ..اسمك اسمي مسبقاً أن أحجز عمرك، وأوقف عدّاد السنوات الذي كان يركض بي نحو ..مسبقاً

!وأنت تدخلين شهرك السابع ..السابعة والعشرين

نسيت أن أستبقيك هكذا على حجري إلى الأبد، تلعبين وتعبثين
.ولا تفهمينه ..وبأشيائي، وتقولين لي كلاماً لا أفهمه

لم تقاطعيني مرة واحدة، وأنا أقصّ عليك تلك القصة بإيجاز متعمّد، وأترك
.تفاصيلها المتشعبة لي
الذي وقفت فيه لأكتب على 1957أيلول 15توقفت فقط عند ذلك اليوم
.سجلّ رسمي اسمك النهائي

لم تسأليني أيّ سؤال توضيحي، ولا علَّقت يومها بكلمة واحدة، على قصّة
ربما لأن لا أحد وجد في تلك القصة ما يستحق .لم يقصها عليك أحد قبلي
.التوقف

وراحت غيوم مكابرة تحجب نظرتك .استمعت إليَّ بذهول، وبصمت مخيف
كنت تبكين أمامي لأول مرة، أنت التي ضحكت معي في ذلك ..عني
.المكان نفسه كثيراً
ترانا أدركنا لحظتها، أننا كنا نضحك لنتحايل على الحقيقة الموجعة، على
شيء ما كنا نبحث عنه، ونؤجّله في الوقت نفسه؟

كنت أودُّ لحظتها، لو احتضنتك بذراعي ..نظرت إليك خلف ضباب الدمع
ولكنني بقيت في .الوحيدة، كما لم أحضن امرأة، كما لم أحضن حلماً
جبلين مكابرين، بينهما جسر ..مكاني، وبقيت في مكانك، متقابلين هكذا
.وكثير من الغيوم التي لم تمطر ..سرّي من الحنين والشوق

استوقفتني كلمة جسر، وتذكّرت تلك اللوحة، وكأنني تذكرت الفصل الأهم
.من قصة، كنت أرويها لك وربما أرويها لنفسي أيضاً، عساني أصدّق غرابتها
:وقفت وقلت

- تعالي سأريك شيئاً.

.تبعتني دون سؤال
:قلت لك وأنت تنتظرين مدهوشة ما سأقوله .وقفت أمام تلك اللوحة

- يوم رأيتك تقفين أمام هذه اللوحة، في ذلك اليوم الأول، سرت ..أتدرين
.شعرت أن بينك وبين هذه اللوحة قرابة ما أجهلها .قشعريرة في جسدي
ولكنني كنت متأكداً منها، ولذا أتيت لأسلّم عليك عساني أكتشف خطأ
.أو صوابه ..حدسي

:قلت متعجبة

- وهل كنت مصيباً في حدسك؟

:قلت

- ألم تلاحظي التاريخ المكتوب على هذه اللوحة؟

..أجبت وأنت تبحثين عنه أسفلها

- لا..

:قلت

_ أنت تكبرين هذه اللوحة بأسبوعين .إنه قريب من تاريخ ميلادك الرسمي
!إنها توأمك إذا شئتِ .فقط

:قلت مدهوشة

!عجيب كل هذا ..عجيب -

:نظرت إلى اللوحة وكأنك تبحثين فيها عن نفسك، فقلت

- أليست هذه قنطرة الحبال؟

:أجبتك

- وهذه هي القرابة الأخرى التي .إنها قسنطينة ..إنها أكثر من قنطرة
.تربطك بهذه اللوحة
..يوم دخلت هذه القاعة، دخلت قسنطينة معك -
.وفي سوار كنت تلبسينه ..في لهجتك ..في مشيتك ..دَخَلَت في طلّتك -
:فكرت قليلاً ثم قلت -
..يحدث أحياناً أن ألبسه في بعض المناسبات .."المقياس"تعني ..آ - -
.ولكنه ثقيل يوجع معصمي

:قلت

- عدة سنوات متتالية،ولم تشك "أمّا"لقد لبسته .لأن الذاكرة ثقيلة دائماً
!إنها العادة فقط ..ماتت وهو في معصمها .من ثقله

كنت .كان في صوتي حسرة، ولكن لم أقل لك شيئاً .لم أعتب عليك

ولذا اختصر الأثواب العربية القديمة .تنتمين لجيل يثقل عليه حمل أي شيء واختصر الصيغة والحليّ القديمة، بحلي .بأثواب عصرية من قطعة أو قطعتين واختصر التاريخ والذاكرة كلها بصفحة أو .خفيفة تلبس وتخلع على عجل ..صفحتين في كتب مدرسيّة، واسم أو اسمين في الشعر العربي

لن أعتب عليك، نحن ننتمي لأوطان لا تلبس ذاكرتها إلا في المناسبات، وسرعان ما تخلعها عندما تطفأ الأضواء، وينسحب .بين نشرة أخبار وأخرى .المصوّرون، كما تخلع امرأة أثواب زينتها

:قلت وكأنك تعتذرين عن خطأ لم تتعمديه

أيسعدك هذا؟ ..إذا شئت سألبس ذلك السوار من أجلك -

كان الموقف جزيناً شيئاً ما، رغم تلقائيته، وربما كان مضحكاً .فاجأني كلامك .بحزن

أنت الفتاة التي .كنت هنا أعرض عليك أبوتي، وكنت تعرضين عليّ أمومتك !أمّي ..كان يمكن أن تكون ابنتي، والتي أصبحت دون أن تدري

وكان يمكن أن أجيبك لحظتها بكلمة واحدة، أختصر فيها كل تناقضات موقفنا .وجامحة ..ذلك، وأختصر فيها كل ما أشعر به تجاهك من عواطف متطرفة .ولكنني قلت شيئاً آخر
:قلت

.يسعدني ذلك، ويسعدني أيضاً أن تلبسيه من أجلك أنت -

لا بد أن تعي أنك لن تفهمي شيئاً من الماضي الذي تبحثين عنه، ولا من إننا لا .ذاكرة أب لم تعرفيه، إذا لم تفهمي قسنطينة بعاداتها وتلتحمي بها .أو لوحة زيتية كهذه ..نكتشف ذاكرتنا ونحن نتفرج على بطاقة بريدية .نحن نكتشفها عندما نلمسها، عندما نلبسها ونعيش بها

لقد كان في .هذا السوار مثلاً، لقد أصبحت علاقتي به فجأة علاقة عاطفية اكتشفت هذا يوم رأيتك تلبسينه، وكان .ذاكرتي رمزاً للأمومة دون أن أدري وتظل كل تلك الأحاسيس التي فجرها داخلي نائمة في .يمكن ألا تلبسيه أن الذاكرة أيضاً في حاجة إلى أن ..هل تفهمين الآن .دهاليز النسيان نوقظها أحياناً؟

كنت دون أن أدري، أوقظ داخلي مارداً كان نائماً منذ ..كم كنت أحمق وكنت .وكنت أحوّلك في حمّى جنوني من فتاة إلى مدينة .سنين تستمعين لي بانبهار تلميذة، وتتلقّين كلماتي كما يتلقّى شخص في .جلسة تنويم مغنطيسي، تعاليمه وأوامره من منوم يفعل به ما يشاء

.اكتشفت يومها قدرتي على ترويضك، وعلى السيطرة على نارك المحرقة

عميقة، ..شامخة، عريقة ..وقرَّرت في سرّي أن أحولك إلى مدينة شاهقة
.لن يطأها الأقزام ولا القراصنة

..حكمت عليك أن تكوني قسنطينة ما
.وكنت أحكم على نفسي بالجنون

***

وافترقنا مثقلين بالهزّات النفسية، ..قضينا معاً وقتاً أطول ذلك اليوم
مشحونين بالانفعالات المتطرّفة، التي عشناها خلال أربع ساعات من
قلنا الكثير، وسط دموعنا المكابرة أحياناً، ووسط صمتنا .الحديث المستمرّ
.المخيف أحياناً أخرى

كنت أحتقر الناس الذين لا .كنت سعيداً ربما لأنني رأيتك تبكين لأول مرة
وفي الحالتين هم لا يستحقون .أو منافقون ..دموع لهم، فهم إما جبابرة
.الاحترام
.كنت المرأة التي كنت أريد أن أضحك وأبكي معها
.وكان هذا أروع ما اكتشفته ذلك اليوم
يومها .تذكّرت لقاءنا الأول، الذي بدأناه دون تخطيط بالتعليقات الساخرة
، "أقصر طريق لأن تربح امرأة هو أن تضحكها" :تذكّرت مثلاً فرنسياً يقوم
..وقلت ها أنذا ربحتها دون جهد

اليوم اكتشفت حماقة ذلك المثل الذي يشجّع على الربح السريع، وعلى
المغامرات العابرة التي لا يهمّ أن تبكي بعدها المرأة التي قد ضحكت في
.البداية

..لم أربحك بعد نوبة ضحك
.ربحتك يوم بكيت أمامي وأنت تستمعين إلى قصّتك التي كانت قصّتي أيضاً
وكنت ربّما .ثمَّ في تلك اللحظة التي تأملت فيها تلك اللوحة بتأثر واضح
علي وشك أن تضعي قبلة على خدّي، أو تحضنيني في لحظة حنان
.ولكنّك لم تفعلي ..مفاجئ

وافترقنا مثل العادة، ونحن نتصافح، وكأننا نخاف أن تتحول تلك القبلة العابرة
.على الخدّ، إلى فتيلة تشعل البراكين النائمة

كان عطرك .كان حضورك يوقظ رجولتي .كنّا نفهم بعضنا بصمت متواطئ وعيناك كانت تجرّداننني من سلاحي .يستفزّني ويستدرجني إلى الجنون حتى عندما تمطران حزناً.

من أين جئت به؟ أيّ لغة كانت لغتك؟ أيّ ..آه صوتك كم كنت أحبه ..وصوتك موسيقى كانت موسيقاك..

كنت دهشتي الدائمة، وهزيمتي المؤكدة، فهل كان يمكن أن تكوني ابنتي، أنت التي لم يكن يمكن في المنطق أن تكوني شيئاً آخر غير ذاك بالنسبة لي.

ورحت أقاومك بحواجز وهمية أضعها بيننا كلّ مرة، كما توضع حواجز في كنت تقفزين .ساحة سباق، ولكنك كنت فرساً خلقت للتحدي وربح الرهان عليها جميعاً مرة واحدة، بنظرة واحدة.

وأحياناً هناك، لتنتهي عند ..كانت نظراتك تتسكع فوقي، تتوقف أحياناً هنا عينيّ أو زرّ قميصي المفتوح كالعادة.
قلت مرة وأنت تتأملينني أكثر:

وشعره الفوضوي ..من سمرته ..شيء من قامته .فيك شيء من زوربا - ربما كنت فقط أكثر وسامة منه .المنسّق.

أجبتك:

يمكن أن تضيفي كذلك، أنني في سنه، وفي جنونه وتطرفه، وأنّ في - من حزنه ومن انتصاراته التي تتحول دائماً إلى ..أعماقي شيئاً من وحدته هزائم.

قلت متعجبة:

أتحبه؟ ...أتعرف عنه كل ها -

أجبت:

ربما -..

قلت:

أتدري أنه الرجل الذي أثّر أكثر في حياتي؟ -

أو لم تقرئي ..فكَّرت إما أنك لم تعرفي كثيراً من الرجال .أدهشني اعترافك وقبل أن أقول شيئاً واصلت بحماسة .كثيراً من الكتب:

- علاقته العجيبة بتلك المرأة ..يعجبني جنونه وتصرّفاته غير المتوقعة ..فلسفته في الحب والزواج في الحرب والعبادة، وتعجبني أكثر طريقته في أتذكّر قصة الكرز، يوم كان يحبّ الكرز كثيراً .أن يصل بأحاسيسه إلى ضدّها بعد ذلك .كيراً حتى يتقيّأه ..وقرر أن يُشفى من ولعه به بأن يأكل منه كثيراً كانت تلك طريقته في أن يشفى من الأشياء .أصبح يعامله كفاكهة عادية .التي يشعر أنها تستعبده

قلت:

- لا أذكر هذه القصة..

قلت:

- وهل تذكر رقصته تلك وسط ما يسميه بالخراب الجميل؟ إنه شيء إنه تميّز في الهزائم .مدهش أن يصل الإنسان بخيبته وفجائعه حدّ الرقص فلا بد أن تكون لك أحلام فوق .أيضاً، فليست كلّ الهزائم في متناول الجميع العادة، وأفراح وطموحات فوق العادة، لتصل بعواطفك تلك إلى ضدّها بهذه ..الطريقة

"الخراب الجميل"وبدل أن أجد في ذلك .كنت أستمع إليك بانبهار وبمتعة الذي كنت تصفينه لي بحماسة، ما يمكن أن يثير مخاوفي من نزعة سادية، أو مازوشية ما قد تسكنك، رحت أنقاد لجمال فكرتك فقط، وأقول دون كثير من التفكير:

- لم أكن أدري أنك تحبين زوربا إلى _ثم أضفت _ .جميل ما تقولين ..صحيح هذا الحد!

قلت ضاحكة:

- يوم قرأتها شعرت .لقد أربكتني هذه القصة كثيراً ..سأعترف لك بشيء أو أكتب رواية ..كنت أريد أن أحبّ رجلاً كهذا .بشيء من الغبطة والحزن معاً كهذه، ولم يكن ذلك ممكناً، ولهذا ستطاردني هذه القصة حتى أشفى .منها بطريقة أو بأخرى

قلت ساخراً:

- يسعدني إذن أن تجدي شيئاً من الشبه بيني وبينه، فقد تحققين ..الأمنيتين معاً

تأملتني بشيء من الشيطة المحبّبة وقلت:

- معك أريد أن أحقق إحدى الأمنيتين فقط.

وأضفت قبل أن أسألك أيّهما:

- لن أكتب عنك شيئاً.

- آ.. لماذا؟..

- نحن نكتب الروايات لنقتل الأشخاص .. لأني لا أريد قتلك، أنا سعيدة بك
نحن نكتب لننتهي منهم .. الذين أصبح وجودهم عبئاً علينا..

للأدب وقلت لك ونحن نفترق "الإجرامية"يومها ناقشتك طويلاً في نظرتك:

- جريمتك الأولى"أو .. أيمكنني أخيراً أن أطّلع على روايتكم الأولى"؟!

ضحكت وأجبت:

- طبعاً .. شرط ألا تتحول إلى محقِّق جنائي أو طرفٍ في تلك القصّة!
تراك كنت تتنبئين بما ينتظرني، وتدرين مسبقاً أنني لن أكون معك قاراً محايداً بعد الآن.

قلت وأنت تمدّين نحوي الكتاب .في اليوم التالي أحضرت لي تلك الرواية:

- أتمنى أن تجد شيئاً من المتعة في قراءتها..

قلت مازحاً:

- وأتمنى ألا يفسد عدد ضحاياك متعتي!

أجبت باللهجة نفسها:

- لا .. اطمئن .. فأنا أكره المقابر الجماعية!

كيف نسيت هذه الجملة الأخيرة..
عندما أتذكرها الآن، أقتنع أن قصّتك الجديدة هذه، التي تروج لها المجلات والجرائد، لن تكون سوى ضريح فردي لبطل واحد ربّما كان زياد .. وربما كان
فمن ترى المحظوظ منّا بميتة كهذه؟ ..أنا!
وحده كتابك قد يحمل جواباً على هذا السؤال، وعلى أسئلة أخرى

.تطاردني

لماذا يثير كلّ ما تكتبيه لديّ أكثر من سؤال؟ ولماذا أشعر أنني طرف ..ولكن في كل قصصك الواقعية والوهمية، حتى تلك التي كتبتها قبلي؟

ترى لأنني أتوهم أن لي حقاً تاريخياً عليك، أو لأنك يوم أهديتني كتابك الأول ذاك، لم تضعي عليه أيّ إهداء، وقلت ذلك التعليق المدهش الذي لم أنسه:
"وأمّا الذين نحبهم فمكانهم ليس في الصفحة ..إننا نخطّ إهداءً للغرباء فقط البيضاء الأولى، وإنما في صفحات الكتاب..".

رحت أركض لاهثاً من .يومها أسرعت إلى ذلك الكتاب ألتهمه في سهرتين عن شيء .صفحة إلى أخرى، وكأنني أبحث عن شيء ما غير الذي أقرأه عن شيء ما قد .قد تكونين كتبته لي مسبقاً مثلاً حتى قبل أن نلتقي يكون يربطنا من خلال قصة لم تكن قصتنا.

أدري أنَّ ذلك كان جنوناً، ولكن أليس في الحياة مصادفات مدهشة كتلك ، وبقيت تنتظرك ربع قرن 1957اللوحة التي رسمتها ذات أيلول من سنة بل إنها كانت أنتِ؟ ..دون أن أنها كانت لك

لم تخبّئي لي في كتابك ذاك، سوى مرارة وألم ..وكان ذلك محض أوهام غيرة جنونية من رجل من ورق، قد يكون .وغيرة حمقاء، ذقت نارها لأول مرّة وقد يكون مخلوقاً خيالياً، أنّثت به فراغ أيامك وبياض ..مرّ بحياتك حقاً الصفحات فقط.

ولكن أين هو الحد الفاصل بين الوهم والواقع؟ لم تجيبيني مرة واحدة عن ذلك السؤال..رحتِ تعمّقين حيرتي بأجوبة أكثر غموضاً:قلت

- إنّ المهمّ في كل ما نكتبه هو ما نكتبه لا غير، فوحدها الكتابة هي ..وهي التي ستبقى، وأمّا الذين كتبنا عنهم فهم حادثة سير ..الأدب أناس .ثم واصلنا الطريق معهم أو بدونهم ..توقفنا أمامهم ذات يوم لسببٍ أو لآخر.

قلت:

- إن .ولكن لا يمكن أن تكون علاقة الكاتب بملهمه مبسّطة إلى هذا الحد ..إنه مدين له بشيء ..الكاتب لا شيء دون من يلهمه

..قاطعتني

- هو أجمل من "إلزا"عن عيون "أراغون"إن ما كتبه ..؟..مدين له بماذا "بلقيس"وما كتبه نزار قباني عن ضفائر ..التي ستشيخ وتذبل "إلزا"عيون

وما ..أجمل بالتأكيد من شعر غزير كان محكوماً عليه أن يبيضّ ويتساقط رسمه ليونارد ديفانشي في ابتسامة واحدة للجوكاندا، أخذ قيمته ليس في ابتسامة ساذجة للمونوليزا، وإنما في قدرة ذلك الفنان المذهلة على نقل أحاسيس متناقضة، وابتسامة غامضة تجمع بين الحزن والفرح في آن فمن هو المدين للآخر بالمجد إذن؟ ..واحد

.كان حديثنا يأخذ منحى آخر ربما أردته أنت في محاولة للهرب من الحقيقة :فأعدت عليك السؤال بصيغة أكثر مباشرة

أم لا؟ ..هل مرّ هذا الرجل بحياتك -

:وقلت ..ضحكت

وفي روايات .جريمة 60أكثر من "أغاتا كريستي"إن في روايات ..عجيب - ولم يرفع أيّ مرة قارئ صوته .كاتبات أخريات أكثر من هذا العدد من القتلى ويكفي كاتبةً أن .ليحاكمهن على كل تلك الجرائم، أو يطالب بسجنهنَّ تكتب قصة حب واحدة، لتتجه كل أصابع الاتهام نحوها، وليجد أكثر من أعتقد أنه لا بد للنقاد من أن .محقق جنائي أكثر من دليل على أنها قصتها يحسموا يوماً هذه القضية نهائياً، فإما أن يعترفوا أن للمرأة خيالاً يفوق خيال !الرجال، وإما أن يحاكمونا جميعاً

:قلت .ضحكت لحجتك التي أدهشتني ولم تقنعني

في انتظار أن يحسم النقاد هذه القضية، دعيني أكرر عليك سؤالاً لم - هل مرّ هذا الرجل بحياتك حقاً؟ ..تجيبيني عنه

:قلت وأنت تعبثين بأعصابي

..المهم أنه مات بعد هذا الكتاب -

لأنك قادرة على أن تقتلي الماضي هكذا بجرة قلم؟ ..آ -

:قلت وأنت تواصلين مراوغتك

..نحن قد نكتب أيضاً لنصنع أضرحة لأحلامنا لا غير ..أيّ ماضٍ؟ -

كان في أعماقي شعور ما بأن تلك القصة كانت قصتك، وأن ذلك الرجل قد .وربما بجسدك أيضاً ..مرّ بحياتك

أكاد أكتشف أشياءه مبعثرة بين .كنت أكاد أشمّ بين السطور رائحة تبغه ..من مذاق قبلته ..من سمرته ..في كلّ فقرة شيء منه .صفحات كتابك

..ومن اشتهائك الفاضح له ..من أنفاسه ..من ضحكته

أم أنت التي أبدعت في وصفه؟ أم تراه محض ..تراه أبدع في حبّك حقاً اختراع نسائي، كسته لغتك رجولة وأحلاماً، صنعت لها بعد ذلك ضريحاً وأنا، بأيّ منطق رحت أطالع ذلك الكتاب، في زيّ .على مقاسه ..جميلاً وإذا بي أنقّب بين الكلمات وأبحث بين .عاشق متنكر ببدلة شرطي أخلاق هنا، أو أكتشف الأحرف ..الفواصل، عساني أكتشفك متلبسة بقبلة ما .الأولى من اسمه هناك

تذكّرت أنك في باريس من أربع سنوات، وأنك تقطنين ..ذهب تفكيري بعيداً فماذا تراك فعلت قبل .عند عمك منذ عُيّن في باريس، أي منذ سنتين فقط ذلك في كلّ الفترة التي كنت فيها بمفردك؟

اعترفت لك في ما بعد، أن ..أرهقني كتابك ذاك، كان ممتعاً ومتعباً مثلك علاقتي بك قد تغيّرت منذ قرأتك وأنني أشكّ في أن أكون قادراً على .فأنا لم أكن مهيأً لسلاح الكلمات ..الصمود بعد اليوم

:قلتِ فقط وكأنَّ الأمر لا يعنيك تماماً

!كان عليك ألا تقرأني إذن -

:أجبتك بحماقة

..ثم أنا لا أملك طريقة أخرى لفهمك .ولكنني أحب أن أقرأك -

:أجبت

الكاتب إنسان يعيش على حافة ..أنت لن تفهم شيئاً هكذا ..مخطئ - إنه ..ذلك اختصاص المؤرّخين لا غير .الحقيقة، ولكنه لا يحترفها بالضرورة والروائي .أي يحترف نوعاً من الكذب المهذّب ..في الحقيقة يحترف الحلم .الناجح هو رجل يكذب بصدق مدهش، أو هو كاذب يقول أشياء حقيقيّة

أعذب الكذب كان كذبك، وأكثره ألماً كذلك ..ثمّ أضفتِ بعد شيء من التفكير ربما .أنت لن تبوحي لي بشيء .قررت يومها ألا أنقّب بعد ذلك في ذاكرتك . وربما لأنه ليس هناك من شي يستحقّ .لأنك أنثى تحترف المراوغة .الاعتراف

في .كنت تريدين فقط أن توهميني أنك لم تعودي تلك الطفلة التي عرفتها وإلا ما سرّ تعلّقك بي، .كنت فارغة، وكان كذبك في مساحة فراغك ..الواقع ولماذا كنت تطاردين ذاكرتي بالأسئلة، وتسدرجينها للحديث عن كلّ شيء؟ لماذا كلّ تلك الشراهة للمعرفة، كلّ تلك الرغبة في مقاسمتي

أكانت الذاكرة عقدتك؟ ..ذاكرتي وكلّ ما أحببت وما كرهت من أشياء

***

لا بد لمعرضي أن ينتهي، لننتبه أننا نعرف بعضنا من أسبوعين فقط، وليس فكيف فرغنا من ذاكرتنا في بضعة أيام؟ كيف .منذ أشهر كما كان يبدو لنا تعلّمنا في بضع ساعات قضيناها معاً، أن نحزن ونفرح ونحلم بتوقيت واحد؟

وكيف يمكن لنا أن نغادر هذا المكان، الذي ..كيف أصبحنا نسخة من بعضنا ؟ وهو الذي وضعنا لعدة أيام، خارج حدود ..أصبح جزءاً من ذاكرتنا؟ كيف الزمان والمكان، في قاعة شاسعة، يسكنها الصمت ويؤثثها الفن، وربع قرن من المعاناة والجنون؟

.كنّا لوحة وسط عدة لوحات أخرى
كنا لوحة متقلّبة الأطوار، متعدّدة الألوان، رسمتها المصادفة يوماً ثم واصلت وكنت أتلذذ بوضعي الجديد ذاك وأنا أتحول من صاحب .رسمها يد الأقدار .ذلك المعرض، إلى لوحة من لوحاته لا أكثر

لم يحدث، مثل تلك المرة، أن شعرت بحزن وأنا أرفع تلك اللوحات المعلّقة على الجدران، لوحة بعد أخرى، وأجمعها في الصناديق لأترك القاعة فارغة .بحزنه وبفرحه وبقصص أخرى لا تشبه قصّتي ..لرسّام آخر، سيأتي بلوحاته

.كنت أشعر أنني أجمع أيامي معك
.فجأة، توقفت يدي وهي على وشك أن ترفع تلك اللوحة التي تركتها للآخر

لم يكن على مساحتها سوى جسر .تأملتها مرة أخرى، شعرت أنها ناقصة يعبرها من طرف إلى آخر، معلّق نحو الأعلى بحبال من طرفيه كأرجوحة .حزن
وتحت الأرجوحة الحديدية هوّة صخرية ضاربة في العمق تعلن تناقضها .الصارخ مع المزاج الصافي لسماء استفزازية الهدوء والزرقة

لم أشعر، قبل تلك اللحظة، أن هذه اللوحة في حاجة إلى تفاصيل جديدة .تكسر هذا التضاد، وتؤثث عري اللونين اللذين ينفردان بها

لوحة، كانت رؤوس أقلام ومشاريع أحلام "حنين"في الواقع، لم تكن تجاوزتها الأحداث بخمس عشرة سنة من الحنين والدهشة وليس فقط بربع .قرن من الزمن

.كنت فجأة على عجل .حملتها تحت إبطي، وكأنني أميّزها عن الأخريات

أريد أن أجلس أمامها بعد كل تلك السنوات، محملاً بفرشاة وألوان أخرى، ..حجراً "قنطرة الحبال"لأنفخ الحياة والضجيج فيها، وأنقل إليها أخيراً حجارة ولكن كان في ذهني المبعثر لحظتها هاجس آخر يطغى على كلّ .حجراً وأين؟ ...كيف يمكن أن نلتقي بعد الآن :شيء

وها نحن محاصران بكل .انتهت عطلتك الجامعية مع نهاية معرضي تقريباً .ملاحقان بكل العيون التي قد تسرق سرنا .مستحيلات الزمان والمكان !وأيّ قدر كان قدري معك ..أيّ جنون .ويعرفوننا ..بكل أولئك الذين لا نعرفهم ولماذا أنت بالذات؟ ..ولماذا وحدي تفضحني عاهتي؟ ولماذا كل هذا الحذر كان مجرد احتمال لقائي بسي الشريف ذات يوم وأنا بصحبتك، يجعلني أعدل عن هذه الفكرة، وأشعر فجأة بحرج الموقف، وبذلك الارتباك الذي .سيفضحني لا محالة

.اتفقنا على أن تطلبيني هاتفياً، وأن نتفق على برنامج جديد

فقد .فلم يكن ممكناً أ، أزورك في حيّك الجامعي .كان ذلك هو الحل الوحيد .كانت ابنة عمك تتابع دراستها معك في الجامعة نفسها

.أكان يمكن لنا أن نجد ظروفاً أكثر تعقيداً من هذه؟

***

أطول نهاية أسبوع على الإطلاق، كانت تلك التي قضيتها في انتظار هاتفك .صباح الاثنين

.يوم الأحد دقّ الهاتف

فربما نجحت في سرقة لحظات تحدّثينني .أسرعت إليه وأنا أراهن أنّك أنت ورحت .أخفيت عنها خيبتي .كانت كاترين على الخطّ .ولو قليلاً ..فيها أستمع لها وهي تثرثر حول مشاغلها اليومية، ومشروع سفرها القادم إلى ثم سألتني عن أخبار المعرض وقالت وهي تنتقل من موضوع إلى ..لندن :آخر

من المؤكد أنك ..لقد قرأت مقالاً جيداً عن معرضك في مجلة أسبوعية - أو يعرف لوحاتك جيداً ..إنه بقلم روجيه نقَّاش، يبدو أنه يعرفك ..اطلعت عليه .

:قلت لها باقتضاب ..لم أكن أشعر برغبة في الحديث

..نعم، إنه صديق قديم -

.تخلّصت منها بلباقة

ربما كانت حاجتي للرسم .لم أكن أشعر بأية رغبة في لقائها ذلك اليوم
.وربما كنت فقط ممتلئاً بكِ ..يومها، تفوق حاجاتي الجسدية الأخرى

.عدت إلى مرسمي مثقل الخطى

كنت شرعت في إعداد تشكيلة من الألوان، لأبدأ في وضع لمسات على
.تلك اللوحة
تحولت أمامها إلى ذلك الرسام المبتدئ الذي كنته منذ .ولكنني ارتبكت
.خمس وعشرين سنة
ترى قرابتها الجديدة لك، هي التي أضفت عليها هذه الصبغة المربكة؟

لأضفي على ..أم تراني كنت مرتبكاً لأنني كنت أجلس أمام الماضي لا غير
؟"الرتوشات"بعض _وليس على لوحة _الذاكرة
رغم رغبتي المضادة _وأدري .كنت أشعر أنني على وشك أن أرتكب حماقة
أنه لا ينبغي أبداً العبث بالماضي، وأن أية محاولة لتجميله، _للمنطق
.ليست سوى محاولة لتشويهه

كان كلّ ..ولكن هذه اللوحة أصبحت تضايقني فجأة هكذا ..كنت أدرك هذا
شيء فيها مبسّطاً حدّ السذاجة، فلماذا لا أواصل رسمها اليوم، ولماذا لا
أعاملها بمنطق فنّي لا أكثر؟

خمس عشرة سنة في رسم إحدى لوحاته؟ كان يعود (شاغال)ألم يقضِ
إليها دائماً بين لوحة وأخرى ليضيف شيئاً أو وجهاً جديداً عليها، بعدما أصرَّ
على أن يجمع فيها كلّ الوجوه والأشياء التي أحبها منذ طفولته؟

أليس من حقي أيضاً أن أعود إلى هذه اللوحة، أن أضع على هذا الجسر
بعض خطى العابرين، وأرشّ على جانبيه بعض البيوت المعلّقة فوق الصخور،
وأسفله شيئاً من ذلك النهر الذي يشق المدينة، بخيلاً أحياناً، ورقراقاً زبديّاً
ألم يعد ضرورياً أن أضع عليها بصمات ذاكرتي الأولى، التي ..أحياناً أخرى
كنت عاجزاً عن نقلها في السابق، يوم كنت رساماً مبتدئاً وهاوياً لا غير؟

وصديق غربتي ..لا أدري كيف تذكّرت لحظتها روجيه نقّاش، صديق طفولتي
.

ذكرت ولعه بقسنطينة، وتعلقه بذكراها، هو الذي لم يعد إليها أبداً منذ
مع أهله، ومع فوج من الجالية اليهودية التي كانت تريد 1959غادرها سنة
.أن تبني لها مستقبلاً آمناً في بلد آخر

لك يحدث أن زرته مرة في بيته، دون أن يصرّ على أن يسمعني شريطاً وهي تغني المالوف والموشّحات "سيمون تمّار"جديداً للمطربة اليهودية القسنطينية بأداء وبصوت مدهش، مرتدية ذلك الثوب القسنطيني الفاخر، والذي يزيّن غلاف شريطها ..الذي أهدوها إياه في أول عودة لها هناك.

منذ بضعة أشهر أخبرني روجيه أن سيمن ماتت مقتولة على يد زوجها في إحدى نوبات غيرته، فقد كان يتهمها بحبّ رجل عربي.
أدري " ..ثم أضاف بمرارة ما "..لا أدري" ..أجابني ..سألته إن كان ذلك حقاً أنها كانت تحب قسنطينة".

وكان حلمه السري أن يعود إليها ولو مرة واحدة، أو ..وروجيه أيضاً كان يحبها يأتيه أحد على الأقل بثمرة واحدة من شجرة التين التي كانت تطال نافذة غرفته والتي كانت في حديقة بيته منذ أجيال..

وكنت أشعر بمزيج من السعادة والإحراج معاً وأنا أستمع إليه، يقصّ عليّ بلهجته القسنطينية المحببة التي لم يطمس ربع قرن من البعد أيّ نبرة القاتلة ..فيها، شوقه إلى تلك المدينة!

وكان يزيد إحراجي كل ما قام به روجيه لمساعدتي منذ سنوات، عندما فقد كان له من الصداقات والوساطات، ما .وصلت إلى باريس لأستقر فيها كثيراً من المعاملات والمشكلات _دون أن أطلب منه_يمكن أن يسهّل عليّ التي تواجه رجلاً في وضعي.

لماذا لم تعد ولو مرة واحدة لزيارة قسنطينة؟ أنا لا أفهم "ذات مرة سألته خوفك، إن الناس مازالوا يعرفون أهلك في ذلك الحيّ ويذكرونها بالخير.." ما يخيفني ليس ألا يعرفني الناس هناك، بل ألا "أذكر وقتها أنه قال لي وذلك البيت الذي لم يعد بيتي منذ ..وتلك الأزقّة ..أعرف أنا تلك المدينة عشرات السنين..".

وأنها تعطي تيناً كل ..دعني أتوهم أن تلك الشجرة مازالت هناك" :ثم أضاف وذلك الزقاق ..سنة، وأن ذلك الشباك مازال يطلّ على ناس كنت أحبهم إن أصعب شيء على ..أتدري ..الضيق مازال يؤدي إلى أماكن كنت أعرفها "..الإطلاق هو مواجهة الذاكرة بواقع مناقض لها

لو حدث "كان في عينيه يومها لمعة دموع مكابرة، فأضاف بشيء من المزاح وغيرت رأيي، سأعود إلى تلك المدينة معك، أخاف أن أواجه ذاكرتي وحدي ..".

هو الذي لم يطرح معي ذلك _اليوم، وبعد عدة سنوات، أذكر كلامه فجأة _الموضوع بعد ذلك أبداً

تراه نجح حقاً في التحايل على ذاكرته؟
وماذا لو كان على حق؟ يجب أن نحتفظ بذكرياتنا في قالبها الأول وصورتها الأولى ولا نبحث لها عن مواجهة اصطدامية مع الواقع يتحطم بعدها كل المهم في هذه الحالات إنقاذ الذاكرة ..شيء داخلنا كواجهة زجاجية.

أقنعني ذلك المنطق، وشعرت أن هاتف كاترين أنقذني بطريقة غير مباشرة من حماقة كنت على وشك ارتكابها.

لن يكون لتلك اللوحة أية قيمة تأريخية بعد اليوم، إذا أضفت إليها شيئاً هنا، وهل يهم ..ستصبح لوحة لقيطة لذاكرة مزوّرة ..أو طمست فيها شيئاً هناك عندئذٍ أن نكون أجمل؟

فكّرت أنه رغم ذلك لا بد أن .نظرت إلى خشبة الألوان التي كانت بيدي وبهذه الفرشاة العصبية التي كانت تترقّب مثلي ..أفعل شيئاً بهذه الألوان لحظة الخلق الحاسمة.

وفجأة وجدت الحلّ في فكرة بسيطة ومنطقيّة لم تخطر ببالي.

رفعت تلك اللوحة عن خشبات الرسم، ووضعت أمامها لوحة بيضاء جديدة، ورحت أرسم دون تفكير، قنطرة أخرى، بسماء أخرى، بوادٍ آخر وبيوت وعابرين.

رحت هذه المرة، أتوقف عند كل التفاصيل وأكاد أبدأ بها، وكأن أمر الجسر لم يعد يعنيني في النهاية، بقدر ما تعنيني الحجارة والصخور التي يقف (أو عفونة)وتلك النباتات التي تبعثرت أسفله، مستفيدة من رطوبة .عليها وتلك الممرات السرية التي حفرتها خطى الإنسان وسط .الأعماق وحتى اليوم، في غفلة من (ماسينيسا)منذ أيام .المسالك الصخرية الجسر العجوز الذي لا يمكن له في شموخه الشاهق، أن يرى ما يحدث !متر من أقدامه 700على علو

أليس التحايل على الجسور هو الهدف الأزلي الأول للإنسان الذي يولد بين والقمم؟ ..المنحدرات
أدهشتني هذه الفكرة التي ولدت في ذهني مصادفة؛ وأدهشني أكثر، كون هذه التفاصيل التي تشغلني اليوم بإلحاح، لم تكن تلفت انتباهي منذ ربع قرن، يوم رسمت هذا الجسر نفسه لأول مرة.

ترى لأنني كنت في بدايتي الأولى، محكوماً بالخطوط العريضة للأشياء كأيّ مبتدئ، وأن طموحي آنذاك، لم يكن يتجاوز رغبتي في إدهاش ذلك الدكتور ورفع أثقال التحدي بيدٍ واحدة؟ _أو إدهاش نفسي _

أريد فقط أن .لم يعد يعنيني أن أثبت شيئاً لأحد ..وإنني اليوم بعد ذلك العمر

..أعيش أحلامي السرية، وأن أنفق ما بقي لي من وقت في طرح أسئلة ولا في .ليس في متناول الشباب ..كان الجواب عليها في الماضي ترفاً ..ذلك المناضل أو المجاهد المعطوب الذي كُنتُه ..متناول

ربما لأن الوقت آنذاك لم يكن للتفاصيل، بل كانت وقتاً جماعياً نعيشه .بالجملة، وننفقه بالجملة

ولم يكن .والتضحيات الكبرى ..والشعارات الكبرى ..كان وقتاً للقضايا الكبرى .لأحد الرغبة في مناقشة الهوامش أو الوقوف عند التفاصيل الصغيرة

!أم حماقة الثورات ..تراها حماقة الشباب

ولكنني .أخذت مني تلك اللوحة، كل أمسية الأحد، وقسماً كبيراً من الليل "كابوتسكي"كنت سعيداً وأنا أرسم، وكأنني كنت أسمع صوت الدكتور ".ارسم أحبّ شيء إلى نفسك"يعود ليقول لي بعد ذلك العمر .وها أنا أطيعه وأرسم اللوحة نفسيها، بالارتباك نفسه

كان تمريناً في .ولكن ما رسمته هذه المرة، لم يكن تمريناً في الرسم .الحبّ

أرسم نسخة أخرى .أنت بكل تناقضك .كنت أشعر أنني أرسمك أنتِ لا غير .نسخة أخرى من لوحة كبرت معك .أكثر تعاريج ..عنك أكثر نضجاً

بل وربَّما بشهوة ورغبة .كنت أرسم تلك اللوحة بشهية مدهشة للرسم ..سرية ما
!فهل بدأت شهوتك تتسلّل يومها إلى فرشاتي، دون أن أدري؟

***

.في اليوم التالي، جاءني صوتك في الساعة التاسعة تماماً

.جاء شلال فرح، وشجرة ياسمين تساقطت أزهارها على وسادتي كنت أكتشف صوتك على الهاتف، وأنا في فراشي بعد ليلة مرهقة من .شعرت أنه يشرع نوافذ غرفتي، ويقبّلني قبلة صباحية .العمل

؟.هل أيقظتك -

!أنت منعتني البارحة من النوم لا أكثر ..لا أنت لم توقظيني -

قلتِ بلهجة جزائرية بين المزاح والجدّ:

- إن شاء الله خير ..علاش..

قلت:

- لأنني رسمت حتى ساعة متأخرة من الليل..

- وما ذنبي أنا؟

- يا ملهمتي ..لا ذنب لك سوى ذنب الملهم!

صحت فجأة بالفرنسية كعادتك عندما تفقدين السيطرة على أعصابك:

- ah.. non!

ثم أضفتِ:

- يا لها من كارثة معك ..أتمنى أنك لم ترسمني!

- وأين هي الكارثة إن كنت قد رسمتك؟

واصلت بصوت عصبي:

- أأنت مجنون؟ تريد أن تحولني إلى لوحة تدور بها القاعات من مدينة إلى أخرى، يتفرّج عليها كل من يعرفني؟!

كنت أشعر برغبة صباحية في مشاكستك، ربما من فرط سعادتي، وربما لأنني مجنون حقاً، ولا أعرف كيف أكون سعيداً مثل الآخرين.

قلت لك:

- إن الناس الذين بلهمونا هم أناس توقفنا أمامهم ذات يوم ..أما قلتِ مرّة فإن أكون رسمتك لا يعني .لسبب أو لآخر، وأنهم ليسوا سوى حادثة سير شيئاً، سوى أنني صادفتك يوماً في طريقي لا غير!

صحت:

- أأنتَ أحمق؟ .تريد أن تقنع عمي وتقنع الآخرين أنك رسمتني بعدما إننا لا نرسم سوى ..صادفتني مرة على رصيف، واقفة مثلاً أمام ضوء أحمر هذا معروف ..أو ما نحبه ..ما يثيرنا!

تراك كنت تستدرجينني إلى ذلك الاعتراف، وتدورين حوله، أم كنت من لكنني وجدت في تلك الفرصة .الحماقة لتصدّقي زعمي بأنني لا أدري ذلك الصباحية، وفي ذلك الخيط الهاتفي الذي كان يفصلني ويقرّبني منك في آن .مناسبة لمصارحتك ..واحد

:قلت

!.لنفترض إذن أنني أحبّك -

ولكنك قلت بعد .كنت أنتظر وقع الكلمات عليك، وأتوقع عدة أجوبة لكلامي :لحظة صمت

!أنني لم أسمع ..ولنفترض إذن -

..أدهشتني
أقل أو أكثر مما توقعت، أم "التصريح"لم أفهم تماماً إذا كنت تجيدين ذلك أنك كعادتك تتلاعبين بالكلمات بمتعة مدهشة، وأنت تدرين أنك تلعبين .إلى تساؤل آخر ..بأعصابي لا غير، وتقذفينني من سؤال

أين نلتقي؟ -

.كان هذا هو السؤال الأهم الذي قررنا أن نجيب عليه بجدية

تناقشنا طويلاً في عنوان مكان آمن يمكن أن نشرب فيه قهوة، أو نتناول .فيه وجبة الغداء معاً

.ولكن باريس ضاقت بنا

وكنت لا أرتاد غير المقاهي .كنت لا تعرفين غير الأماكن التي يرتادها الطلبة قررنا أن نلتقي في أحد المقاهي المجاورة لبيتي والتي .القريبة من حيّي .تقدم وجبات غداء

.وكنت أقترف إحدى حماقاتي الكبرى

لم أكن أعرف وقتها أنني أختار عنواناً لذاكرتي مجاوراً تماماً لعنوان بيتي، .وأنني بذلك سأمنح الذكريات حق مطاردتي

وكيف .لم أعد أذكر الآن، كيف أصبح ذلك المقهى العنوان الدائم لجنوننا أصبح تدريجياً يشبهنا، بعدما تعوّد أن يختار لنا زاوية جديدة كلّ مرة، تتلاءم ..مع مزاجنا المتقلّب، خلال شهرين من السعادة المسروقة

كنا نلتقي هناك في أوقات مختلفة من النهار، وحسب ساعات دراستك وبرنامج أعمالي.

تعودت أن تطلبيني هاتفياً كل صباح في الساعة التاسعة، وأنت في طريقك إلى الجامعة. ونتّفق كل صباح على برنامج لك اليوم الذي لم يعد لنا فيه في النهاية من برنامج سوانا.

كنت أتدحرج يوماً بعد آخر نحو هاوية حبّك، أصطدم بالحجارة والصخور، وكل ما في طرقي من مستحيلات. ولكنني كنت أحبك ولا أنتبه إلى آثار الجراح على قدمي، ولا إلى آثار الخدوش على ضميري الذي كان قبلك إناء بلّور لا يقبل الخدش. وكنت أواصل نزولي معك بسرعة مذهلة نحو أبعد نقطة في العشق الجنوني.
على الأقل حتى تلك الفترة التي كنت أشعر أنني غير مذنب في حبّك. وكنت مكتفياً فيها بحبك، بعدما أقنعت نفسي أنني لا أسيء إلى أحد بهذا الحب.

كانت تكفيني تلك العاطفة وقتها لم أكن أجرؤ على أن أحلم بأكثر من هذا. وحزناه المتطرف, الجارفة التي تعبرني لأول مرة، بسعادتها المتطرفة أحياناً أحياناً أخرى..

كان يكفيني الحب.
متى بدأ جنوني بك؟

ترى أفي ذلك اليوم الذي رأيتك يحدث أن أبحث عن ذلك التاريخ وأتساءل.. فيه لأول مرة؟ أم في ذلك اليوم الذي انفردت بك فيه لأول مرّة؟ أم في ذلك اليوم الذي قرأتك فيه لأول مرة؟.

كأول مرة! أم ترى يوم وقفت فيه بعد عمر من الغربة، لأرسم فيه قسنطينة..

ترى يوم ضحكتِ أم يوم بكيت.
أم عندما صمتِّ أعندما تحدَّثتِ..
أم لحظة توهَّمت أنك أمي؟ أعندما أصبحتِ ابنتي..!
أيّ امرأة فيك هي التي أوقعتني؟.

فقد كنت شبيهة بتلك الدمية الروسية كنت معك في دهشة دائمة. وهذه تخفي دمية أصغر، وهكذا الخشبية التي تخفي داخلها دمية أخرى. تكون سبع دمى داخل واحدة!

وإذا بكِ تأخذين في بضعة أيام كنت كلّ مرة أفاجأ بامرأة أخرى داخلك.

وإذا بي محاط بأكثر من امرأة، يتناوبن عليّ في حضورك .ملامح كل النساء
.وفي غيابك، فأقع في حبّهن جميعاً
أكان يمكن لي إذن أن أحبّك بطريقة واحدة؟
.كنت مدينة ..لم تكوني امرأة

مختلفات في أعمارهنَّ وفي ملامحهن؛ في ثيابهنَّ .مدينة بنساء متناقضات
وفي عطرهنَّ؛ في خجلهنَّ وفي جرأتهنَّ؛ نساء من قبل جيل أمي إلى
.أيامك أنتِ

.نساء كلهن أنتِ

بعدما ابتلعتني كما تبتلع المدن المغلقة أولادها .عرفت ذلك بعد فوات الأوان
.

..كنت أشهد تحولك التدريجي إلى مدينة تسكنني منذ الأزل

كنت أشهد تغيرك المفاجئ، وأنت تأخذين يوماً بعد يوم ملامح قسنطينة،
تلبسين تضاريسها، تسكنين كهوفها وذاكرتها ومغاراتها السرية، تزورين
أولياءها، تتعطرين ببخورها، ترتدين قندورة عنّابي من القطيفة، في لون
، تمشين وتعودين على جسورها، فأكاد أسمع وقع خلخالك "أمّا"ثياب
.الذهبي يرنّ في كهوف الذاكرة

.أكاد ألمح آثار الحناء على كعب قدميك المهيأتين للأعياد

على الطريقة "تساء"كنت ألفظ التا .وكنت أنا أستعيد لهجتي القديمة معك
.القسنطينية

.كما لم يعد الرجال ينادون النساء في قسنطينة "يالا"كنت أناديك مدلّلاً

بذلك النداء الذي ورثته قسنطينة دون غيرها، "يا أميمة"كنت أناديك بحنين
.عن أهل قريش من عصور

وكنت، كنتِ عندما يجرّدني عشقك من سلاحي الأخير، أعترف لك مهزوماً
."!يعن بُو زَيْنِك ..نِشتيك"على طريقة عشاقنا
والتي اختصروها منذ زمان لتخفي "أشتهيك"تلك الكلمة التي كان أصلها
.معناها الأصلي، وتتحول إلى كلمة ودّ لا غير

فقسنطينة مدينة منافقة، لا تعترف بالشهوة ولا تجيز الشوق؛ إنما تأخذ
.خلسة كل شيء، حرصاً على صيتها، كما تفعل المدن العريقة
!والسرّاق ..الزانين أيضاً ..ولذا فهي تبارك مع أوليائها الصالحين

ولم أكن سارقاً، ولا كنت وليّاً، ولا شيخاً يدّعي البركات، لتباركني قسنطينة .

كنت فقط، رجلاً عاشقاً، أحبك بجنون رسّام؛ بتطرف وحماقة رسام، خلقك هكذا كما يخلق الجاهليون آلهتهم بيدهم، ثم يجلسون لعبادتها، وتقديم القرابين لها.

!وربما كان هذا، أكثر ما كنت تحبّينه في حبّي

:ذات يوم قلت لي

إنهم .قرأت عن الرسامين قصصاً مدهشة .كنت أحلم أن يحبّني رسّام لا .مفاجئ ومخيف ..إنّ جنونهم متطرف .الأكثر جنوناً بين كلّ المبدعين لقد قرأت .يشبه في شيء ما يُقال عن الشعراء مثلاً أو عن الموسيقيين بيكاسو وآخرين كثيرين ..سيزان ..دالي ...غوغان ..دولاكروا ..حياة فان غوغ .أنا لا أتعب من قراءة سيرة الرسّامين .لم يبلغوا هذه الشهرة

تهمني .في الواقع شهرتهم لا تعنيني بقدر ما يعنيني تقلّبهم وتطرّفهم عندما يعلنون فجأة خروجهم عن .تلك اللحظة الفاصلة بين الإبداع والجنون وحدها تلك اللحظة تستحقّ التأمل والانبهار أحياناً، .المنطق واحتقارهم له .فهم يفعلون ذلك لمجرد تحدّينا وتعجيزنا بلوحة ليست سوى حياتهم

وهنالك آخرون، .هنالك مبدعون، يكتفون بوضع عبقريَّتهم في إنتاجهم يصرّون على توقيع حياتهم أيضاً، بنفس العبقرية، فيتركون لنا سيرة فريدة، ..غير قابلة للتكرار أو التزوير

ولا أظن أن شاعراً يمكن أن .أعتقد أن مثل هذا الجنون ينفرد به الرسامون يصل إلى ما وصل إليه فان غوغ مثلاً في لحظة يأس واحتقار للعالم، عندما ..قطع أذنه ليهديها إلى غانية
أو ما فعله ذلك الرسام المجهول الذي لم أعد أذكر اسمه، والي شنق نفسه، بعدما علَّق في سقف غرفته، لوحة المرأة التي أحبها والتي قضى ووقّع لوحته وحياته معاً ..وهكذا توحّد معها على طريقته .أياماً في رسمها .مرة واحدة

:قلتُ

- إن ما يعجبك في النهاية، هو قدرة الرسامين الخارقة على تعذيب .أليس كذلك؟ ..أنفسهم، أو على التمثيل بها

:أجبتِ

- لا .. ولكن هنالك لعنة ما تلاحق الرسامين دون غيرهم؛ وهنالك جدلية فكلّما زاد عذابهم وجوعهم وجنونهم، زاد ثمن لوحاتهم .تنطبق إلا عليهم حتى إن موتهم يوصلها إلى أسعار خيالية، وكأن عليهم أن ينسحبوا لتحلّ .هي مكانهم

.لم أناقشك في رأيك

.رحت أستمع إليك وأنت ترددّين كلاماً أعرفه، ولكن فاجأني منك

ولا أن .لم أتساءل يومها، إن كنت تحبينني لاحتمال جنوني، أو لشيء آخر .تكون نيّتك اللاشعورية تحويلي إلى لوحة ثمينة أدفع ثمنها من حطامي

هل سيزيد عذابي حقاً، من قيمة أية لوحة سأرسمها كيفما كان، تحت تأثير جوعي أو نوبة جنوني؟

وأين تبدأ النزعة السادية عند ..أين يبدأ الفنّ ترى؟ ..اكتفيت بالتساؤل الآخرين؟

كنت أعتقد أن هذه الجدلية لا علاقة لها بالإبداع ولا بالفن، وإنما بطبع .الإنسان لا أكثر

يحلو لنا أن نسمع عذابات الآخرين، ونعتقد، عن .نحن ساديون بفطرتنا .أنانية، أن الفنان مسيح آخر جاء ليصلب مكاننا

قصّته قد تبكينا، ولكنها لن تمنعنا من .عذابه يحزننا و يسعدنا في آن واحد بل إننا .النوم، ولن تدفعنا إلى إطعام فنان آخر، يموت جوعاً أو قهراً أمامنا نجد من الطبيعي أن تتحول جراح الآخرين إلى قصيدة نغنيها، أو لوحة .نحتفظ بها، وقد نتاجر بها، للسبب نفسه
فهل الجنون قُصر حقاً على الرسامين دون غيرهم؟

أليس هو قاسماً مشتركاً بين كلِّ المبدعين، وكل المسكونين بهذه الرغبة المرضيّة في الخلق؟
فالذي لا يمكن بحكم منطق الإبداع نفسه، أن يكون إنساناً عادياً، بأطوار للسعادة ..بمقاييس عادية للكسب والخسارة .عادية وبحزن وفرح عاديٍّ .والتعاسة

.إنه إنسان متقلّب، مفاجئ، لن يفهمه أحد ولن يجد أحد مبرراً لسلوكه .كان ذلك أول يوم حدّثتك فيه عن زياد
:قلت

- لقد عرفت شاعراً فلسطينياً كان يدرس في الجزائر .كان سعيداً بحزنه

وبوحدته؛ مكتفياً بدخله البسيط كأستاذ للأدب العربي، وبغرفته الجامعية الصغيرة، وبديوانين شعريّين. حتى ذلك اليوم الذي تحسّنت أحواله المادية، وحصل على شقة وكان على وشك الزواج من إحدى طالباته التي أحبّها بجنون، والتي قبل أهلها أخيراً تزويجها منه.

عندما قرّر فجأة أن يتخلى عن كل شيء، ويعود إلى بيروت ليلتحق بالعمل الفدائي..

لم أكن أفهم حماقته تلك، وإصراره على الرحيل. عبثاً حاولت إقناعه بالبقاء أنا لا أيّ أحلام.. "وكان يجيب ساخراً. عندما أوشك أخيراً أن يحقق أحلامه فعندها لن يكون لأيّ شيء أريد أن أقتل داخلي ذلك الفلسطيني المشرّد.. أمتلكه من قيمة".

ويضيف وهو ينفث دخانه على مهل وكأنه يختفي خلفه كي يبوح لي بسرٍّ أخاف أو إذا شئت لا أريد أن أقيم فيها لا أريد أن أنتمي لامرأة ثم" ..لا.. هنالك سجون لم تخلق للشعراء. السعادة عندما تصبح جبرية".

وكانت الفتاة التي أحبّته تزورني راجية أن أقنعه بالبقاء، وأنه مجنون ذاهب إلى الموت وإلى حتفه المؤكد. ولكن عبثاً، لم تكن هناك حجة واحدة بل إنه في تطرفه المفاجئ، أصبح يجد في حججي ما لإغرائه بالبقاء.. يزيده إغراءً بالرحيل.

أذكر أنه قال لي يومها بشيء من السخرية، وكأنه يعطيني درساً في الحياة:

إنه الفرق بين. هناك عظمة ما، في أن نغادر المكان ونحن في قمة نجاحنا" والرجال الاستثنائيين.. عامة الناس!".

سألتك إن كنت تعتقدين أنّ شاعراً كهذا، هو أقلّ جنوناً من رسام قطع أذنه؟
واستبدل بحياته موتاً، دون. لقد استبدل براحته شقاءً لم يكن مرغماً عليه أن يكون مجبراً عليه.

إنها طريقته في. لقد أراد أن يذهب إلى الموت مكابراً وليس مهزوماً ومكرهاً أن يهزم مسبقاً شيئاً لا يُهزم، وهو الموت.

سألتني بلهفة:

هل مات؟ -

قلت لك:

- لا ..إنه لم يمت.. أو على الأقل مازال على قيد الحياة حتى تاريخ بطاقته الأخيرة التي بعث إليّ بها في رأس السنة، أي منذ ستة أشهر تقريباً.

..ساد بيننا شيء من الصمت، وكأن أفكارنا معاً ذهبت إليه

:قلت لك

- أتدرين أنه كان سبباً غير مباشر في مغادرتي الجزائر؟ معه تعلّمت أنه لا يمكن أن نتصالح مع كل الأشخاص الذين يسكنوننا، وأنه لا بد أن نضّحي بأحدهم ليعيش الآخر. وأمام هذا الاختبار فقط نكتشف طينتنا الأولى، لأننا ننحاز تلقائياً إلى ما نعتقد أنه الأهم.. وأنه نحن لا غير.

:قلت وأنت تقاطعينني

- نسيت أن أسألك لماذا جئت إلى فرنسا؟ ..صحيح

:أجبتك وتنهيدة تسبقني، وكأنها تفتح أبواب صدر أوصدته الخيبات

- ولكنني مثل ذلك الصديق، أكره الجلوس على القمم التي يسهل السقوط منها. وأكره خاصة أن يحولني مجرد كرسي أجلس عليه إلى شخص آخر لا يشبهني..قد لا تقنعك أسبابي.

لقد كنت بعد الاستقلال أهرب من المناصب السياسية التي عرضت عليّ، والتي كان الجميع يلهثون للوصول إليها.

كنت أحلم بمنصب في الظل يمكن أن أقوم فيه بشيء من التغيرات دون كثير من الضجيج ودون كثير من المتاعب. ولذا عندما عيّنت كمسؤول عن النشر والمطبوعات في الجزائر، شعرت أنني خلقت لذلك المنصب فقد قضيت كلّ سنوات إقامتي في تونس في تعلّم العربية والتعمق فيها، وتجاوز عقدتي القديمة كجزائري لا يتقن بالدرجة الأولى سوى الفرنسية وأصبحت، في بضع سنوات، مزدوج الثقافة، لا أنام قبل أن أبتلع وجبتي من القراءة بإحدى اللغتين.

حتى إنني كدت في فترة ما أنتقل من الرسم إلى الكتابة، خاصة أن الرسم، كان في نظر البعض آنذاك، شبيهاً بالشذوذ الثقافي، وعلامة من علامات الترف الفني، التي لا علاقة لها بظروف التحرير. كنت أعيش بالكتب ومع الكتب

عندما عدت إلى الجزائر بعدها، كنت ممتلئاً بالكلمات.
ولأن الكلمات ليست محايدة، فقد كنت ممتلئاً كذلك بالمثل والقيم، ورغبة

في تغيّر العقليات والقيام بثورة داخل العقل الجزائري الذي لم تغير فيه الهزات التاريخية شيئاً.

الثورة "ولم يكن الوقت مناسباً لحلمي الكبير الذي لا أريد أن أسمّيه بعدها لم تعد هاتان الكلمتان مجتمعتين أو متفرقتين تعنيان شيئاً ."الثقافية عندنا.

فلقد بدأت التغيرات .كانت هناك أخطاء كبرى تُرتكب عن حسن نية بالمصانع، والقرى الفلاحية والمباني والمنشآت الضخمة، وترك الإنسان إلى الأخير.

فكيف يمكن لإنسان بائس فارغ، وغارق في مشكلات يومية تافهة، ذي عقلية متخلفة عن العالم بعشرات السنين، أن يبني وطناً، أو يقوم بأية ثورة صناعية أو زراعية، أو أية ثورة أخرى؟

لقد بدأت كلّ الثورات الصناعية في العالم من الإنسان نفسه، ولذا أصبح وأصبحت أوربا ما هي عليه اليوم (يابانا)اليابان.

ويأخذون الأرض .وحدهم العربٌ راحوا يبنون المباني ويسمّون الجدران ثورة من هذا ويعطونها لذاك، ويسمّون هذا ثورة.
الثورة عندما لا نكون في حاجة إلى أن نستورد حتى أكلنا من الخارج..
الثورة عندما يصل المواطن إلى مستوى الآلة التي يسيّرها.

كان صوتي يأخذ فجأة نبرة جديدة، فيها كثير من المرارة والخيبة التي تراكمت منذ سنين .وكنت تنظرين إليّ بشيء من الدهشة وربما من الإعجاب الصامت، وأنا أحدثك لأول مرة عن شجوني السياسية.

سألتني:

ألهذا جئت إلى فرنسا إذن؟ -

قلت:

لا -..ولكنني جئت ربما بسبب أوضاع هي نتيجة أخطاءٍ كهذه، لأنني ذات يوم قرّرت أن أخرج من الرداءة، من تلك الكتب الساذجة التي كنت مضطراً إلى قراءتها ونشرها باسم الأدب والثقافة، ليلتهمها شعب جائع إلى العلم.

كنت أشعر أنني .كنت أشعر أنني أبيعه معلّبات فاسدة مرّ وقت استهلاكها مسؤول بطريقة أو بأخرى عن تدهور صحته الفكرية، وأنا ألقّنه الأكاذيب بعدما تحوّلت من مثقف إلى شرطي حقير، يتجسّس على الحروف والنقاط، فقد كنت أتحمل وحدي مسؤولية ما يكتبه ..ليحذف كلمة هنا وأخرى هناك

.الآخرون
كنت أشعر بالخجل وأنا أدعو أحدهم إلى مكتبي لإقناعه بحذف فكرة أو رأي .كنت أشاركه فيه

ذلك الشاعر الفلسطيني الذي حدّثتك عنه، والذي ..ذات يوم، زارني زياد .لم أكن التقيت به من قبل

وكنت اتصلت به لأطلب منه حذف أو تغيير بعض الكلمات التي جاءت في ..ديوانه، والتي كانت تبدو لي قاسية تجاه بعض الأنظمة وبعض الحكام العرب بالذات، والذين كان يشير إليهم بتلميح واضح، ناعتاً إياهم بكل .الألقاب

.لم أنسَ أبداً نظرته ذلك اليوم
توقّفت عيناه عند ذراعي المبتورة لحظة، ثم رفع عينيه نحوي في نظرة :مهينة وقال

".ردّ لي ديواني، سأنشره في بيروت ..لا تبتر قصائدي سيّدي "

شعرت أن الدم الجزائري يستيقظ في عروقي، وأنني على وشك أن أنهض ثم هدأت من روعي، وحاولت أن أتجاهل نظرته وكلماته .من مكاني لأصفعه .الاستفزازية

ما الذي شفع له عندي في تلك اللحظة؟
ترى هويّته الفلسطينية، أو تلك الشجاعة التي لم يواجهني بها كاتب قبله، أم ترى عبقريّته الشعرية؟ فقد كان ديوانه أروع ما قرأت من الشعر في ذلك وكنت أؤمن في أعماقي أن الشعراء كالأنبياء هم دائماً على .الزمن الرديء .حق

لقد كان ذلك .تلقَّيت كلماته كصفعة أعادتني إلى الواقع، وأيقظتني بخجل الشاعر على حق، كيف لم أكتشف أنني لم أكن أفعل شيئاً من سنوات سوى تحويل ما يوضع أمامي من إنتاج إلى نسخة مبتورة مشوّهة مثلي؟

" :قلت له متحدياً، وأنا ألقي نظرة غائبة على غلاف تلك المخطوطة .سأنشره لك حرفياً"

، تلك الرجولة أو الشجاعة التي كان لا "الرجولة"كان في موقفي شيء من يمكن لموظف مهما كان منصبه أن يتحلى بها، دون أن يغامر بوظيفته، لأن !الموظّف في النهاية هو رجل استبدل برجولته كرسيّاً

شعرت أن هناك شيئاً من .سبب لي ديوانه عند صدوره بعض المتاعب .الزيف الذي لم أتحمّله

ما الذي يمنعني من فضح أنظمة دموية قذرة، مازلنا باسم الصمود ووحدة الصفّ، نصمت على جرائمها؟ ولماذا من حقّنا أن ننتقد أنظمة دون أخرى حسب النشرات الجوية، والرياح التي يركبها قبطان بواخرنا؟

هل أغير وظيفتي لأستبدل .بدأ شيء من اليأس والمرارة يملأني تدريجياً بمشكلاتي مشاكل أخرى، وأصبح هذه المرة طرفاً في لعبة أخرى؟

ماذا أفعل بكل ما كدّست وجمعت من أحلام طوال سنوات غربتي ونضالي، وماذا أفعل بسنواتي الأربعين، وبذراعي المبتورة، وبذراعي الأخرى؟

ماذا أفعل بهذا الرجل المكابر العنيد الذي يسكنني، ويرفض أن يساوم على حريته، وبذلك الرجل الآخر الذي لا بد أن يعيش ويتعلم الجلوس على ويتأقلم مع كل كرسي ..المبادئ.

وقد اخترت ...كان لا بد أن أقتل أحدهما ليحيا الآخر.

كان لقائي بزياد منعطفاً في حياتي.

اكتشفت بعدها أن قصص الصداقة القوية، كقصص الحب العنيفة، كثيراً ما تبدأ بالمواجهة والاستفزاز واختبار القوى.
فلا يمكن لرجلين يتمتع كلاهما بشخصية قوية وبذكاء وحساسية مفرطة، وتعودّا على لغة العنف ..رجلين حملا السلاح في فترات من حياتهما والمواجهة، أن يلتقيا دون تصادم.
وذلك التحدي المتبادل لنفهم أننا ..وكان لا بد لنا من ذلك الاصطدام الأول من طينة واحدة.

بعدها أصبح زياد تدريجياً صديقي الوحيد الذي أرتاح إليه حقاً.
كان نلتقي عدة مرات في الأسبوع، نسهر ونسكر معاً، نتحدث طويلاً عن السياسة، وكثيراً عن الفنّ، نشتم الجميع ونفترق سعيدين بجنوننا.

كان عمره ثلاثين سنة، وديوانين، ما يقارب الستِّين .1973كنا في سنة قصيدة، وما يعادلها من الأحلام المبعثرة.

وكان عمري بعض اللوحات، قليلاً من الفرح وكثيراً من الخيبات، وكرسيين أو ..ثلاثاً، تنقّلت بينها منذ الاستقلال، بشيء من الوجاهة، بسائق وسيارة وبمذاق غامض للمرارة.

عاد إلى بيروت لينضمّ .ذات يوم، رحل زياد بعد حرب أكتوبر بشهرين أو ثلاثة إلى الجبهة الشعبية التي كان منخرطاً فيها قبل قدومه إلى الجزائر.

ترك لي كلّ كتبه المفضّلة والتي كان ينقلها من بلد إلى آخر .ترك لي فلسفته في الحياة، وشيئاً من الذكريات، وتلك الصديقة التي كانت تزورني أحياناً لتسأل عن أخباره، تلك التي كان يرفض أن يكتب لها، وكانت ترفض .أن تنساه

:قلت وأنت تخرجين من صمتك الطويل

ولماذا لم يكتب لها؟ -

:قلت

وربما كان يريد أن تنساه وتتزوج ..ربما لأنه كان يكره التحرش بالماضي - .بسرعة، كان يريد لها قدراً آخر غير قدره

:سألتني

وهل تزوجت؟ -

:قلت

لقد فقدت أخبارها منذ عدة سنوات، ومن الأرجح أن تكون ..لا أدري - ولكن لا أعتقد أن تكون قد .لقد كانت على قدر كبير من الجمال .تزوجت ..نسيته، من الصعب على امرأة عرفت رجلاً مثل زياد أن تنساه

.شعرت في تلك اللحظة، أنك ذهبت بعيداً في أفكارك
تراك كنت قد بدأت تحلمين به؟

تراني قد بدأت يومها باقتراف حماقاتي، الواحدة تلو الأخرى، وأنا أردّ بعد ذلك على أسئلتك الكثيرة حوله، بأجوبة تثير فيك فضول الأنثى والكاتبة في آن واحد؟

حدّثتك عن قصائده كثيراً، وعن ديوانه الأخير، الذي كتب قصائده كما يطلق .بعضهم الرصاص في الأعراس والمآتم ليشيّعوا حبيباً أو قريباً

كان هو يشيّع صديقاً قديماً اسمه الشعر، ويقسم أنه لن يكتب بعد اليوم .سوى بسلاحه

كان فقط يفرغ رشاشه المحشو غضباً .في الواقع، لم يكن ذلك الرجل يكتب .وثورة في وجه الكلمات

!بعدما لم يعد يثق في شيء ..كان يطلق الرصاص على كل شيء حوله

!كم كان زياد مدهشاً ..آخ

كان لا بد أن .لا بد أن أعترف اليوم أنه كان مدهشاً حقاً، وأنني كنت أحمق
..أحدثك عنه وأنا أتوهم أن الجبال لا تلتقي

لماذا كنت أحدثك عنه بتلك الحماسة، وبتلك الشاعرية؟

أكنت أريد التقرب إليك به، وأقنعك من خلاله أن لي قرابة سابقة بالكتاب
والشعراء، فأكبر بذلك في عينيك؟

أم كنت أصفه لك في صورته الأجمل، لأنني كنت أعتقد حتى ذلك اليوم
..أنني أشبهه، وأنني كنت أصف لك نفسي لا غير

..ولكن ..ربما كان كل هذا حقاً
كنت أريد أيضاً، أن تكتشفي العروبة في رجال استثنائيين، كما لم تنجب
.هذه الأمة

رجال ولدوا في مدن عربية مختلفة، ينتمون إلى أجيال مختلفة، واتجاهات
بوفائه وشهامته، ..سياسية مختلفة، ولكنهم جميعاً لهم قرابة ما بأبيك
..بكبريائه وعروبته

.جميعهم ماتوا أو سيموتون من أجل هذه الأمة
كنت لا أريد أن تنغلقي في قوقعة الوطن الصغير، وأن تتحولي إلى منقّبة
.للآثار والذكريات، في مساحة مدينة واحدة

وكل عربي ترك خلفه كل شيء وذهب .فكل مدينة عربية اسمها قسنطينة
..ليموت من أجل قضية، كان يمكن أن يكون اسمه الطاهر
.وكان يمكن أن تكون لك قرابة به
كنت أريد أن تملأي رواياتك بأبطال آخرين أكثر واقعية، أبطال تخرجين معهم
.من مراهقتك السياسية، ومراهقتك العاطفية

لما أحببت بعد ..لو عرفتِ رجالاً مثل زياد" _بحماقة_ألم أقل لك ذلك اليوم
هنالك في هذه .ولما كنت في حاجة إلى خلق أبطال وهميين "زوربا"اليوم
".."..الأمة أبطال جاهزون بفوقون خيال الكتّاب

لم أكن أتوقع يومها أن يحصل كل الذي حصل، وأن أكون أنا الذي سيتحوّل
ذات يوم إلى منقب يبحث بين سطورك عن آثار زياد، ويتساءل من منّا
..أحببت أكثر، ولمن بنيت ضريحك الأخير، وروايتك الأخيرة

أم له؟ ..ألي

وقلت بلهجة جزائرية ونحن .في ذلك اليوم، وضعتِ فجأة قبلة على خدّي على وشك أن ننهض للذهاب:

"..انحبك ..خالد "

وكان يمكن .توقف كل شيء لحظتها حولي، وتوقف عمري على شفتيك ألف أحبك أخرى ..أو أردّ عليك بألف ..وقتها أن أحتضنك، أو أقبّلك.
ولكنني جلست من دهشتي، وطلبت من النادل قهوة أخرى، وقلت لك أول جملة خطرت آنذاك في ذهني:

"لماذا اليوم بالذات؟ "

أجبتني بصوت خافت:

- إنها أول مرة منذ ثلاثة أشهر تحدثني فيها عن .لأنني اليوم أحترمك أكثر لم أكن أتصور أنك حضرت إلى .اكتشفت اليوم أشياء مدهشة .نفسك عادة يأتي الفنانون هنا بحثاً عن الشهرة أو الكسب .باريس لهذه الأسباب لم أتوقع أن تكون تخليت عن كل شيء هناك، لكي تبدأ من الصفر .لا أكثر هنا..

قاطعتكِ مصحِّحاً لكلامك:

- نحن لا نبدأ من الصفر أبداً عندما نسلك طريقاً جديداً ..لم أبدأ من الصفر. أنا بدأت من قناعاتي .إننا نبدأ من أنفسنا فقط.

شعرت يومها أننا ندخل مرحلة أخرى من علاقتنا، وأنك عجينة تأخذ فجأة كل قناعاتي، وشكل طموحاتي وأحلامي القادمة.

تذكّرت جملة قرأتها يوماً في كتاب عن الرسم لأحد النقّاد تقول:

"إنه يقدم .إنّ الرسام لا يقدم لنا من خلال لوحته صورة شخصيّة عن نفسه لنا فقط مشروعاً عن نفسه ويكشف لنا الخطوط العريضة لملامحه القادمة".

وكنتِ أنتِ مشروعي القادم.
كنت أريدك الأجمل، أريدك الأروع .كنت ملامحي القادمة، ومدينتي القادمة. كنت أريد لك وجهاً آخر، ليس وجهي تماماً، وقلباً آخر، ليس قلبي، وبصمات أخرى، لا علاقة لها بما تركه الزمن على جسدي وروحي من بصمات زرقاء.

يومها عرضت عليك بعد شيء من التردّد، أن تزوري ذات يوم مرسمي،

لأريك ما رسمته في الأيام الأخيرة.
فقد كنت أحرص على ألا .وكنت سعيداً أن تقبلي عرضي دون تردد أو خوف
وكنت قررت أن ألغي ذلك العرض نهائياً إذا ما ضايقك .تسيئي الظنّ بي.

ولكنك فاجأتني وأنت تصيحين بفرح طفلة عُرض عليها زيارة مدينة للألعاب:

رائع يسعدني حقاً أن أزوره ...أو -!

في اليوم التالي، طلبتني هاتفياً لتخبريني أن عندك ساعتين وقت الظهر،
يمكنك أن تزوريني خلالهما.

ورحت أحلم، أسبق الساعات، وأسبق الزمن ..وضعت السماعة.

أحقاً سيحدث هذا؟ ..أنت في بيتي

أحقاً ستدقّين جرس هذا الباب، ستجلسين على هذه الأريكة، ستمشين
هنا أمامي.

أخيراً أنتِ؟ ..أنتِ

أخيراً لن يلاحقنا نادل بطلباته .أخيراً سأجلس إلى جوارك، وليس مقابلاً لك
لن تلاحقنا عيون روّاد المقهى، ولا عيون الغرباء من المارة .وخدماته.

أخيراً يمكننا أن نتحدث، أن نحزن ونفرح، دون أن يكون من شاهد على
تقلباتنا النفسية.

رحت من فرحي أشرع الباب لك مسبقاً، وأنا أجهل أنني أشرع قلبي
للعواطف والزوابع.
أن آتي بك إلى هنا، أن أفتح لك عالمي السريّ الآخر، أن ..أيّ جنون كان
أحوّلك إلى جزء من هذا البيت.

هذا البيت الذي أصبح جنّتي في انتظارك، والذي قد يصبح جحيمي بعدك.
أكنت عندئذٍ أعي كلّ هذا؟ أم كنت سعيداً وأحمق كأيّ عاشقٍ لا يرى أبعد
من موعده القادم؟

إن كنت حقاً لا أريد غير إطلاعك على لوحتي الأخيرة ..تساءلت بعدها..
وعلى حديقتي السرّيّة للجنون.

تذكّرت كاترين، وتلك اللوحة التي رسمتها لها اعتذارا لأنني ذات يوم، كنت
عاجزاً عن أن أرسم شيئاً آخر غير وجهها، بينما كان الآخرون يتسابقون في
رسم جسدها العاري، المعروض للوحي في قاعة للفنون الجميلة.

..تذكّرت يوم عرضت عليها أن تزورني لأريها تلك اللوحة

لم أتوقع أن تكون تلك اللوحة البريئة، سبباً بعد ذلك في علاقة غير بريئة دامت سنين.

أليس في دعوتي لك لزيارة مرسمي، شيء من قلّة التعقّل، ورغبة سرية لاستدراج الظروف لأشياء أخرى؟

تراني كنت أفعل ذلك، وأنا أستعيد جملة كاترين، وهي تستسلم لي في ذلك المرسم، وسط فوضى اللوحات المرسومة، واللوحات البيضاء المتّكئة على الجدران، وتقول لي بإشارة متعمدة:

- هذا مكان يغري بالحب..

فأجبتها بشيء من الواقعية:

- لم أكن أعرف هذا قبل اليوم..

فهل كان مرسمي يغري بالحب؟ أم أن في كل مكان للخلق جاذبية ما تغري بالجنون؟

فبيننا من ولن تكونيها .. ولكن، ورغم هذا كنت أدري أنك لم تكوني كاترين. الحواجز ما لن يحطمه أيّ جنون..

اليوم، بعد ستّ سنوات على تلك الزيارة، أستعيد ذلك اليوم، وكأنني أعيشه مرة أخرى، بكل هزّاته النفسية المتقلبة.

ها أنت تدخلين في فستان أبيض (لماذا أبيض؟)، يسبقك عطرك إلى المصعد ويهرول أمامك. الطابق العاشر. يسبقك القلب إلى

ها أنا أكاد أضع قبلة على خدك.. وإذا بي أصافحك (لماذا أصافحك؟).

أسألك هل وجدت البيت بسهولة فتأتي الكلمات بالفرنسية (لماذا أيضاً؟) تراني كنت أبحث عن حرّيّة أو جرأة أكثر، داخل تلك اللغة الغريبة عن تقاليدي وحواجزي النفسية؟ (بالفرنسية؟)

جلستِ على تلك الأريكة.
وأنت تلقين نظرة عامة على غرفة الجلوس، قلت:

- إنه رائع ومؤثث بكثير من الذوق .لم أكن أتصور بيتك هكذا!

سألتك:

- كيف كنت تتصورينه إذن؟

أجبتني:

- وبأشياء أكثر ..بفوضى.

قلت لك ضاحكاً:

- لست في حاجة إلى أن أسكن شقة مغبّرة، بأشياء كثيرة مبعثرة لأكون أنا مسكون بالفوضى، ولكنني .إنها فكرة أخرى خاطئة عن الرسّامين .فنّاناً إنها طريقتي الوحيدة، في وضع شيء من الترتيب .لا أسكنها بالضرورة داخلي.

لقد اخترت هذه الشقة الشاهقة، لأن الضوء يؤثثها وهو كل ما يلزم للرسام، فاللوحة مساحة لا تؤثث بالفوضى وإنما بالضوء ولعبة الظل والألوان.

فتحت نافذتي الزجاجية الكبيرة، ودعوتك للخروج إلى الشرفة.

قلت:

- من هنا، من .انظري هذه النافذة، إنها الجسر الذي يربطني بهذه المدينة شرفتي أتعامل مع سماء باريس المتقلّبة.

كل صباح تقدم لي باريس نشرتها النفسية، فأجلس هنا في الشرفة لأتفرج عليها وهي تنقلب من طور إلى آخر.

يحدث كثيراً أن أرسم أمام هذه النافذة، ويحدث أن أجلس في الخارج لأتفرج على نهر السين، وهو يتحول إلى إناء يطفح بدموع مدينة تحترف البكاء.

يحلو لي الجلوس هنا على حافّة المطر قريباً ومحمياً منه في آن واحد. منظر المطر يستدرجني لأحاسيس متطرفة.

"إن الإنسان ليشعر أنه في عنفوان الشباب عند نزول المطر "

عندئذٍ، نظرت إلى السماء وكأنك تصلين لتمطر، وقلت بالعربية:

- وأنت؟ ..إن المطر يغريني بالكتابة

."وأنا يغريني بالحب "وكنت على وشك أن أجيبك

.كانت صافية زرقاء كسماء حزيران .نظرت طويلاً إلى السماء

.كان زرقتها تضايقني فجأة، ربما لأنني تعودت أن أراها رمادية

وربما لأنني تمنيت في سرّي، لو أمطرت لحظتها؛ لو تواطأت معي ورمتك
.إلى صدري عصفورة مبللة

.ولم أقل لك شيئاً من كل هذا

.نقلت نظرتي من السماء إلى عينيك
.شعرت أنني أتعرف عليهما .كنت أراهما لأول مرة في الضوء
.كانتا أفتح من العادة، وربما أجمل من العادة .ارتبكت أمامهما كأول مرة

شيء من البراءة، .كان فيهما شيء من العمق والسكون في آن واحد
..والمؤامرة العشقية

:تراني أطلت النظر إليك؟ سألتني بطريقة من يعرف الجواب مسبقاً

لماذا تنظر إليّ هكذا؟ -

.كان صوتك بالعربية يأتي كموسيقى عزف منفرد

:وجدت الجواب في قصيدة، حفظت مطلعها ذات يوم

عيناك غابتا نخيل ساعة السحر
أو شرفتان راح ينأى عنهما القمر

:سألتني مدهوشة

!عجيب .أتعرف شعر السياب أيضاً؟ -

:قلت في جواب مزدوج

."أنشودة المطر"أعرف -

عرت أنك ربما أحببتني أكثر تلك اللحظة بالذات، وكأنني أصبحت في نظرك
.السيّاب أيضاً

:وككل مرة أفاجئك فيها ببيت شعر، أو بمقولة ما باللغة العربية، سألتني

متى قرأت هذا؟ -

أجبتك هذه المرة:

ثروة الآخرين تعدّ بالأوراق النقدية، .أنا لم أفعل شيئاً عزيزتي سوى القراءة - قرأت كلّ ما وقعت عليه ..أنا رجل ثري كما ترين .وثروتي بعناوين الكتب .!تماماً كما نهبوا كل ما وقعت عليه يدهم ..يدي

بعدها قلت وأنت تحدقين في ذلك الجسر الحجري الرمادي، الذي يجري تحته نهر السين بزرقة صيفية استثنائية:

أنت محظوظ بهذا المنظر، جميل أن تطلّ شرفتك على نهر السين، ما - اسم هذا الجسر؟

قلت:

قد خلّد هذا الجسر في "أبولينير "اكتشفت أخيراً أن .إنه جسر ميرابو - إن .يبدو أنه كان مولعاً به .قصائده، عثرت على بعضها منذ أيام في ديوان له الشعراء مثل الرسامين لهم عادة لا تقاوم في تخليد كل مكان سكنوه أو بعضهم خلّد ضيعة مجهولة، وآخر مقهى كتب فيه يوماً، وثالث .عبروه بحب .مدينة عبرها مصادفة، وإذا به يقع في حبها إلى الأبد

سألتني:

وهل رسمت أنت هذا الجسر؟ -
أجبتك متنهداً -:

وإنما ما رأيناه يوماً ونخاف ألا نراه بعد ..لأننا لا نرسم بالضرورة ما نرى ..لا - عمره في رسم مدن مغربية لم يسكنها (دولاكروا)وهكذا قضى .ذلك أبداً .هي قسنطينة ..عمره في رسم مدينة واحدة (أطلان)سوى أيام، وقضى

لم أكن أعي هذه الحقيقة قبل أن أقف منذ شهرين في هذه الغرفة مقابلاً .لهذه النافذة، لأرسم بشيء من التوتر الاستثنائي لوحتي الأخيرة ويدي ترسم جسراً آخر ووادياً .كانت عيناي تريان جسر ميرابو ونهر السين .آخر لمدينة أخرى

.لا غير ..وعندما انتهيت، كنت رسمت قنطرة سيدي راشد ووادي الرمال .وإنما ما يسكننا ..وأدركت أننا في النهاية لا نرسم ما نسكنه

سألتني بلهفة:

هل يمكن أن أرى هذه اللوحة؟ -

قلت وأنا أقودك إلى مرسمي:

طبعاً. -

رحت تنظرين إلى .وقفت أمام تلك الغرفة الشاسعة الملأى باللوحات الجدران، وإلى ما اتكأ من اللوحات أرضاً بدهشة طفل في مدينة سحرية. ثم قلت بالانبهار نفسه:

أتدري؟ لم يحدث أن زرت مرسماً قبل اليوم ..كم هو رائع كلّ هذا -..

"ولم يحدث أن زارته امرأة قبلك، قبل اليوم "كنت أودّ أن أقول لك.

ولكن لوحة كاترين المستندة على الجدار ذكّرتني بمرور امرأة أخرى من هنا ذهب فكري عندها بعض الوقت عندما قلتِ فجأة . :

وأين هي اللوحة التي حدّثتني عنها؟ -

أخذتك إلى الطرف الآخر للقاعة، كانت اللوحة ما تزال منتصبة على خشبات الرسم، وكأنها تلغي بوضعها المميز ذاك، كل اللوحات الأخرى المبعثرة حولها.

هنالك تواطؤ .هنالك علاقة عشقية ما بين أيّ رسام ولوحته الأخيرة عاطفي صامت، لن يكسره سوى دخول لوحة عذرا أخرى إلى دائرة الضوء.

فالرسام مثل الكاتب لا يعرف كيف يقاوم النداء الموجع للّون الأبيض، واستدراجه إياه للجنون الإبداعي كلما وقف أمام مساحة بيضاء.

كيف إذن، ما زلت أقاوم منذ شهرين تحدي اللون الأبيض وإغراء كل اللوحات التي أشهرت في وجهي بياضها؟

ولماذا، رفضت أن أرسم شيئاً بعد لوحتي هذه، وفضّلت أن أبقيها هكذا على الخشبات نفسها، لأشهد لها أنها كانت سيدتي، وسيدة كل ما حولي من لوحات، وكأنني أرفض أن أحيلها إلى ركن أو جدار كما تحال عشيقة عابرة.

وهي التي أعطتني من النشوة، ما لم تعطنيه حتى النساء؟ ..أيمكن ذلك

مع الوطن ..لأنه لم يحدث قبلها أن مارست الحب رسماً ..ربما!

قلت وأنت تتأملينها:

- "حنين"إنها مشابهة للوحتك الأولى ولكنها تختلف عنها، في الكثير من وخاصة في الألوان الترابية الخام التي استعملتها، إنها تعطيها التفاصيل.. وحياة أكثر نضجاً..

قلت وأنا أنقل نظري منها إليك:

- لقد بعثت فيها الحياة.. إنها أنتِ.

- أنا؟

- أتذكرين يوم قلت لك على الهاتف، لقد سهرت البارحة حتى ساعة متأخرة من الليل لأرسمك. اتّهمتني يومها بالجنون وخفت أن أكون قد لا تخافي، لن أرسمك أبداً ولن يعرف أحد أنك عبرت. فضحت ملامحك إن للفرشاة شهامة أيضاً. حياتي ذات يوم.

وأضفت:

ولست امرأة، وكلما رسمت قسنطينة رسمتك أنت، ووحدك أنت مدينة.. ستعرفين هذا..

قلت فجأة وأنت تشيرين بنظرة من عينيك إلى لوحة كاترين:

- وهي؟

كان في سؤالك شيء من عناد الأطفال وأنانيتهم، وشيء من عناد النساء وغيرتهنّ.

قلت وأنا أرفع تلك اللوحة من الأرض:

- هل تزعجك هذه اللوحة حقاً؟.

أجبت بشيء من الكذب الواضح:

- لا..

واصلت وأنا أشعر أنني قادر في تلك اللحظة على أن أرتكب أي جنون:

- إذا شئت سأتلفها أمامك..

صحت:

- لا، أأنت مجنون!

قلت بهدوء:

- لست مجنوناً في مدينة عابرة. وهذه اللوحة لا تعني شيئاً بالنسبة لي.. إنها امرأة عابرة.

قلتِ بابتسامة مربكة وأنت تتأملينها:

- أليس كذلك؟ .. إنها مدينتك الأخرى

من أين جئت بتلك الرصاصة الأخيرة، لتطلقيها على تلك اللوحة؟

اعترفت لك بتلميح واضح:

- لا .. أو إذا شئت سريري الآخر .. ليست مدينتي، إنها وسادتي الأخرى فقط!

شعرت أن شيئاً من الحمرة قد علا وجنتيك، وأن عواطف وأحاسيس متناقضة قد عبرتك، وتركت آثارها على ملامحك التي تغيّرت في لحظات.

ثم تمتمت بهدوء وكأنك تتحدثين إلى نفسك:

- لا يهم ...!

قلت لك وأنا أمسكك من ذراعك:

- لا تغاري من هذه اللوحة. هنالك امرأة واحدة تستحق أن تغاري منها في هذا البيت، هي هذه..

نظرت نحو المكان الذي أشرت إليه. كان ثمّة تمثال ينتصب على الأرض في حجم امرأة.

قلت بتعجّب:

- هذه .. لماذا هذه؟

قلت:

- لأنها المرأة الوحيدة التي ارتحت لها حتى الآن، والتي قاسمتني معظم

وقررت منذ .كنت في السابق أملك منها نسخة مصغرة .سنوات غربتي
.سنتين أن أهدي نفسي تمثالها في حجمه الأكبر

ولكنني لم أندم على اقتنائها، إنها تشبهني .كانت تلك إحدى نوبات جنوني
لقد فقدنا أطرافنا في أزمنة .أنا بذراع واحدة وهي بلا ذراعين .كثيراً
.ولكننا صامدان معاً، لن تمنعنا عاهتنا من الخلود .مختلفة، لأسباب مختلفة

.لم تعلّقي على كلامي

أن يعيش رجل مع تمثال لامرأة، ضرب من الجنون .يبدو أنك لم تصدقي ذلك
!أليس كذلك؟ حتى لو كان الرجل رسّاماً، وكانت المرأة فينوس لا غير

ولكنك .أنك كنت مأخوذة بالعبقرية التي تلامس الجنون ..المشكلة معك
ولذا كلما أردت أن أعطيك دليلاً على جنوني، .كنت أعقل من أن تكشفيها
.لم تكوني تصدقيني تماماً
رحتِ فقط بحماقة أنثى، تسترقين النظر إلى لوحة كاترين، وكأنها وحدها
.ورحت أنا أحاول فهمك .تعنيك

ما الذي كان يزعجك في تلك اللوحة؟ هل وجودها في تلك اللحظة بيننا بحضورها الصامت الذي يذكّرك بمرور امرأة أخرى في حياتي؟ أم شقرة تلك المرأة، والإغراء الاستفزازي لشفتيها وعينيها المختفيتين خلف خصلات شعر فوضوي؟

أكنت تغارين من اللوحة أم من صاحبتها؟ وكيف يكون من حقك أن تعاتبيني على لوحة واحدة رسمتها لامرأة، دون أن يكون لي الحق في أن أحاسبك على كل ما كتبته قبلي، وعلى ذلك الرجل الذي عذّبتني به صدقاً أم كذباً؟

:تأملتها قليلاً ثم قلت .عادت عيناك إلى اللوحة الأخيرة

- !أنا ..إذن هذه

:قلت

- ربما لم تكوني أنت، ولكن هكذا أراك، فيك شيء من تعاريج هذه المدينة؛ من استدارة جسورها، من شموخها، من مخاطرها، من مغارات وديانها، من هذا النهر الزبديّ الذي يشطر جسدها، من أنوثتها وإغرائها السري .ودوارها

:قاطعتني مبتسمة

- كيف يمكن لك أن تجد قرابة بيني وبين هذا الجسر؟ ..أنت تحلم

أتدري أنني لا أحب سوى الجسور !كيف خطرت فكرة كهذه بذهنك؟ الخشبية الصغيرة تلك التي نراها في بطاقات نهاية السنة، مرشوشة وأما جسور قسنطينة الجديدة .بالثلج والفضة، تعبرها العربات الخرافية لا أكر أنني عبرتها مرة .حزينة ..المعلّقة في الفضاء، فهي جسور مخيفة إلا شعرت بالفزع ..واحدة راجلة، أو حاولت مرة واحدة النظر منها إلى أسفل والدوار.

قلت:
- ولكن الدوار هو العشق؛ هو الوقوف على حافة السقوط الذي لا يقاوم؛ هو التفرج على العالم من نقطة شاهقة للخوف؛ هو شحنة من الانفعالات والأحاسيس المتناقضة، التي تجذبك للأسفل والأعلى في وقت واحد، لأن أن أرسم لك جسراً !السقوط دائماً أسهل من الوقوف على قدمين خائفتين .إنه ما لم يقله لك رجلٌ قبلي .شامخاً كهذا، يعني أن أعترف لك أنك دواري

أنا لا أفهم أن تحبّي قسنطينة وتكرهي الجسور؛ وتبحثي عن الإبداع، وأنت ولولا شهقة الدوار، لما .لولا الجسور لما كانت هذه المدينة .تخافين الداور .أو أبدع ..أحبّ أحد

كنت تستمعين إليّ، وكأنك تكتشفين شيئاً لم تنتبهي له من قبل برغم .بساطته

غير أنك قلت:

- ربما كنت في النهاية على حق، ولكنني كنت أفضل لو رسمتني أنا وليس إن أي امرأة تتعرف على رسام، تحلم في سرّها أن يخلّدها، .هذا الجسر لا أن يرسم مدينتها؛ تماماً كما أنّ أيّ رجل يتعرف على ..أن يرسمها هي إنها .كاتبة، يتمنى أن تكتب عنه شيئاً، وليس عن شيء آخر له علاقة به .أو الغرور أو أشياء أخرى لا تفسير لها ..النرجسية

.شعرت بشيء من الخيبة .فاجأني اعترافك

هل رسمت نسخة مزوّرة عنك إذن؟ أحقّ أنه ليس بينك وبين هذا الجسر وأن حلمك ..من قرابة؟ أكانت هذه اللوحة نسخة طبق الأصل عن ذاكرتي في النهاية، أن تصبحي نسخة أخرى عن كاترين لا غير، أن تتحولي إلى لوحة عادية، مفضوحة المزاج، ووجه بكثير من المساحيق، يشبه وجهه؟

ترانا لم نَشْفَ من هذه العقدة؟

قلت لك بشيء من اليأس:

- سأرسمك ..إذا كان هذا ما تريدين.

أجبتني بصوت فيه خجل ما:

- وأن أحتفظ بهذه ..أعترف أنني منذ البداية، كنت أحلم أن ترسمني أنا اللوحة عندي كذكرى، شرط ألا تضع عليها توقيك إذا أمكن..

شعرت برغبة في الضحك، أو على الأرجح برغبة في الحزن، وأنا أكتشف ذلك المنطق العجيب للأشياء.

كان من حقي إذن أن أوقع الرموز واللوحات التي ليس بينها وبينك من شبه. أنت المرأة .وأما أنت فليس في وسعي أن أضع أسفل رسمك توقيعي الوحيدة التي أحببتها، لن يقترن اسمي بك ولو مرة واحدة، حتى في أسفل لوحة؟

وهناك أنت التي .هناك إذن الذين يشترون توقيعي فقط، وليس لوحاتي تريدين لوحتي دون توقيع.

المجنون العنيد الذي يرفض هذا المنطق الجديد للأشياء، ..وهنالك أنا ويرفض باسم الحبّ أن يحولك إلى لوحة لقيطة، لا نسب لها ولا صاحب يمكن أن تتبنّاها أية ريشة وأي رسام.

قلت شبه معتذرة ..حيّرك صمتي:

- هل يزعجك أن ترسمني؟

قلت ساخراً:

- كنت أكتشف فقط مرة أخرى، أنك نسخة طبق الأصل عن وطن ما، ..لا ولكن آخرين وضعوا إمضائهم أسفل .وطن رسمت ملامحه ذات يوم فمن الأزل، .هنالك إمضاءات جاهزة دائماً لمثل هذه المناسبات .انتصاراتي كان هنالك دائماً من يكتب التاريخ، وهنالك من يوقّعه، ولذا أنا أكره اللوحات الجاهزة للتزوير.

تراك فهمت كل ما قلته لك لحظتها؟

لقد كان كلّ ما يهمّك في النهاية، .بدأت أشكّ فجأة في وعيك السياسي هو موضوع لوحتك لا غير.

قلت وأنت تغادرين المرسم:

- أتدري أننا لن نلتقي لمدة شهرين؟ سأسافر الأسبوع القادم إلى الجزائر..

صحت وأنا أستوقفك في الممر:

أحقٌ ما تقولين؟ -

قلت:

ولا بدّ أن .طبعاً أنا أقضي دائماً عطلتي الصيفية مع والدتي في الجزائر -
.لن يبقى أحد هنا في باريس ..أعود الأسبوع القادم مع عمي وعائلته

أمسكت بذراعك وكأنني أمنعك من الرحيل، .وقفت مذهولاً وسط الممشى
وسألتك بحزن:

؟..وأنا -

إنه فراقنا ..أعتقد أننا سنتعذّب بعض الشيء .سأشتاق إليك كثيراً ..أنت -
.ولكن سنحتال على الوقت ليمرّ بسرعة .الأول

ثم أضفتِ بلهجة من يريد أن يحل مشكلة، أو ينتهي منها بسرعة:

.سنبقى على اتصال ..يمكنك أن تكتب لي أو تطلبني هاتفياً ..لا تحزن -

.كنت على حافة البكاء
وكنت أنت تزفّين لي ذلك الخبر، .كطفل أخبرته أمه أنها ستسافر دونه
.وكأن عذابي يغريك بشيء ما .بشي من السادية التي أدهشتني

هل أمسك بأطراف ثوبك كطفل وأجهش بالبكاء؟
هل أتحدث إليك ساعات، لأقنعك أنني لن أقدر بعد اليوم على العيش بدونك، وأن الزمن بعدك لا يقاس بالساعات ولا بالأيام، وأنني أدمنتك؟

كيف أقنعك أنني أصبحت عبداً لصوتك عندما يأتي على الهاتف؟ عبداً لضحكتك، لطلتك، لحضورك الأنثوي الشهيّ، لتناقضك التلقائيّ في كل عبدٌ لمدينة أصبحت أنت، لذاكرة أصبحت أنت، لكل .شي وفي كل لحظة
.شي لمسته أو عبرته يوماً

كان الحزن يهجم عليّ فجأة، وأنا واقف هكذا في ذلك الممر أتأملك بذهول
.من لا يصدق

بحثت في .وكنت قريبة مني حد الالتصاق، كما لم يحدث أن كنته يوماً
ملامحك عن شيء يفضح لي في تلك اللحظة عواطفك؛ لكنني لم أفهم
.شيئاً

أتراه عطرك الذي كان يخترق حواسي ويشلّ عقلي، هو الذي جعلني عندئذٍ لا أتعمّق في البحث؟ كنت أعي فقط أنك بعد لحظات ستكونين بعيدة، بقدر ما كنت ساعتها قريبة.

رفعت وجهك نحوي.
ولكن قبل أن أقول أيّة كلمة، كانت .كنت أريد أن أقول لك شيئاً لم أعد أذكره شفتاي قد سبقتاني وراحتا تلتهمان شفتيك في قبلة محمومة مفاجئة.
وكانت ذراعي الوحيدة تحيط بك كحزام، وتحولك في ضمة واحدة إلى قطعة مني.

انتفضت قليلاً بين يدي كسمكة خرجت لتوّها من البحر، ثم استسلمت إليّ.
كان شعرك الطويل الحالك، ينفرط فجأة على كتفيك شالاً غجرياً أسود، بينما راحت .ويوقظ رغبة قديمة لإمساكك منه، بشراسة العشق الممنوع شفتاي تبحثان عن طريقة تتركان بها توقيعي على شفتيك المرسومتين مسبقاً للحب.
كان لا بدّ أن يحدث هذا..

أنت التي تضعين الظلال على عينيك، والحمى على شفتيك بدل أحمر الشفاه، أكان يمكن أن أصمد طويلاً في وجه أنوثتك؟ ها هي سنواتي الخمسون تلتهم شفتيك، وها هي الحمّى تنتقل إليّ، وها أنا أذوب أخيراً في قبلة قسنطينية المذاق، جزائرية الارتباك.

باردةٌ تلك الشفاه الكثيرة .باردةٌ قُبل الغربة لو تدرين ..لا أجمل من حرائقك باردٌ ذلك السرير الذي لا ذاكرة له .الحمرة والقليلة الدفء.

أختبئ .دعيني أخبّئ رأسي في عنقك .دعيني أتزود منك لسنوات الصقيع طفلاً حزيناً في حضنك.
دعيني أسرق من العمر الهارب لحظة واحدة، وأحلم أن كل هذه المساحات لي ..المحرقة.
فاحرقيني عشقاً، قسنطينة!
عبقاً جسدك كان، .شهيّتين شفتاك كانتا، كحبّات توت نضجت على مهل كشجرة ياسمين تفتحت على عجل.
عمر من العقد والحواجز والتناقضات .عمر من الظمأ والانتظار ..جائع أنا إليك.
عمر من الرغبة ومن الخجل، من القيم الموروثة، ومن الرغبات المكبوتة.
عمر من الارتباك والنفاق.

على شفتيك رحت ألملم شتات عمري.
واستيقظ الرجل الذي قتلته .في قبلة منك اجتمعت كلّ أضدادي وتناقضاتي طويلاً مراعاة لرجل آخر، كان يوماً رفيق أبيك.

.رجلٌ كاد يكون أباك
.قتلت رجلاً وأحييت آخر .على شفتيك وُلدتُ ومتُّ في وقتٍ واحد

هل توقّف الزمن لحظتها؟
هل سوّى أخيراً بين عمرينا، هل ألغى ذاكرتنا بعض الوقت؟
..لا أدري
كلّ الذي كنت أدريه، أنك كنت لي، وأنني كنت أريد أن أصرخ لحظتها كما ما ..قف أيها الزمن"على لسان فاوست "غوته"في إحدى صرخات
".!أجملك

وكنت .يتآمر عليّ كالعادة .كان يتربص بي كالعادة .ولكن الزمن لم يتوقف بعد لحظات تتأملين ساعتك في محاولة لإخفاء ارتباكك، وتذكيري بضرورة .عودتك إلى الجامعة

.عرضت عليك فنجان قهوة في محاولة أخيرة لاستبقاك
قلت وأنت أمام المرآة تضعين شيئاً من الترتيب في مظهرك، وتصففين :شعرك وتعيدين جمعه

..أفضل شيئاً بارداً إذا أمكن -

تعمدت ألا أستعجل في العودة، .تركتك في الصالون وذهبت إلى المطبخ .وكأنني فجأة أخجل من آثار قبلي على شفتيك

وعندما عدت بعدها، كنت أمام المكتبة تلقين نظرة على عناوين الكتب، ثم سحبت من أحد الرفوف كتاباً صغيراً، سألتني وأنت .وتقلّبين بعضها :تنظرين إلى غلافه

أليس هذا الديوان لصديقك الشاعر الذي حدّثتني عنه؟ -

:أجبتك بسعادة وأنا أجد أخيراً في ذلك الموضوع مخرجاً لارتباكي

.هناك ديوان آخر له أيضاً تجدينه على الرفّ نفسه ..نعم -

:قلت

.هل اسمه زياد الخليل؟ لقد سمعت هذا الاسم قبل اليوم -

تقرئين بعض .رأيتك تتأملين طويلاً صورته على ظهر الكتاب .قلبتِ الكتاب :ثم قلت ..السطور

أفضّل أن أقرأهما على مهل .أيمكن لي أن أستعير منك هذين الديوانين؟ -

.هذا الصيف، فليس لي ما أطالعه

:أجبتك بحماسة، أو بحماقة

- أنا واثق أن هذين الديوانين سيتركان تأثيرهما ..طبعا، إنها فكرة جيدة مشاريع "ستجدين أشياء رائعة خاصة في الديوان الأخير .على كتاباتك .إنه أجمل ما كتب زياد ."للحبّ القادم

كنت وقتها في سعادة طفلة .رحت بسعادة تخفين الكتابين في حقيبة يدك .تعود إلى بيتها بلعبٍ أحبّتها

طبعاً، لم أكن أعي في ذلك الحين، أنني سأكون بعد ذلك لعبتك الأخرى، .وأن هذين الكتابين سيتركان تأثيرهما أيضاً على مجرى قصتنا

.كنت تستعيدين تدريجياً وجهك العادي وملامحك الطبيعية
فهل كان ذلك تمثيلاً أم حقيقة؟ .وكأن زوبعة حبّي لم تمرّ بك

حاولت أن أنسى خيبتي معك، أمام تلك اللوحة التي كانت السبب الأول .حاولت أيضاً أن أخفّف من خيبتك .في زيارتك
:قلت

- سأرسمك، ستكون لوحتك تسليتي في هذا الصيف..

:ثم أضفت دون أية نية خاصة

- أو .يجب أن تزوريني مرة أخرى لتجلسي أمامي، حتى أتمكن من رسمك .تعطيني صورة لك أنقل عنها ملامحك

:قلتِ وكأن الجواب كان جاهزاً لديك

- لم يبقَ أمامي متّسع من الوقت لأعود إليك هذه الأيام، وليس في يمكنك أن تستعين بصورتي الموجودة على ظهر كتابي، .حوزتي أية صورة .في انتظار أن أعود

أعترف أنني لم أفهم في ذلك الحين أيضاً، إذا كان في جوابك شيء من التلميح لي بأنك لن تعودي إلى هذا البيت، أم أنك كنت تجيبيني بتلقائية بريئة لا أكثر؟

ألست أنت التي كنت تلحّين عليّ أن أرسمك؟
فلماذا حوّلت هذه اللوحة إلى قضية شخصية أنا وحدي معنيّ بها؟

ربما لأنني .كنت أدري أنني في جميع الحالات سأرسمك .لم أناقشك كثيرا لا أعرف كيف أرفض لك طلباً، وربما لأنني لا أعرف كيف سأقضي الصيف دون استحضارك ولو رسماً.

لم .ذهبت ذلك اليوم بعدما وضعت قبلتين على خدّي، ووعدتني بلقاء قريب ..يعد ممكناً بعد قبلتنا أن نتصافح

كنت أعي أنّ شيئاً ما قد تغيّر في علاقتنا، ولم يعد ممكناً بعد اليوم لذلك المارد الذي انطلق فجأة من أعماقنا، أن يعود إلى قلب الزجاجة التي أغلقناها عليه لأسابيع كاملة.

من .كنت أعي أنني أنتقل معك في بضع لحظات من الحب إلى العشق العاطفة البريئة إلى الشهوة، وأنه سيكون من الصعب، بعد اليوم، أن أنسى مذاق قبلتك، وحرارة جسدك الملتصق بي للحظات.

دقيقتين؟ ثلاثاً؟ أم خمس دقائق للجنون لا غير؟ ..كم دامت قبلتنا تلك

أيمكن أن تفعل تلك الدقائق القليلة كل الذي حلّ بي بعد ذلك؟

أيمكن أن تلغي خمس دقائق، خمسين سنة من عمري؟

وكيف لم أشعر بعدها بأيّ إحساس بالندم، بأيّ خجل تجاه ذكرى سي الطاهر؟ أنا الذي كنت أقترف يومها أول خيانة بالمفهوم الأخلاقي للخيانة.

لم يكن في قلبي سوى الحب ..لا.

فلماذا أفسد .كنت أخيراً سعيداً .كنت ممتلئاً بالعشق، بالشهوة، بالجنون سعادتي بالندم، بالتساؤلات التي ستوصلني إلى التعاسة؟

ولم يكن في القلب "..الندم هو الخطأ الثاني الذي نقترفه "لا أذكر من قال مساحة أخرى ولو صغيرة، يمكن أن يتسلل منها شيء آخر غير؟ الحبّ ألم يكن كلّ ذلك جنوناً.

كيف سمحت لنفسي أن أكون سعيداً إلى ذلك الحدّ، وأنا أدري أنني لم أمتلك منك شيئاً في النهاية، سوى بضع دقائق للفرح المسروق، وأن للعذاب؟ ..أمامي متسعاً من العمر

الفصل الرابع

والوحدة التي أحالتني في أيام إلى .كان لرحيلك مذاق الفجيعة الأولى
..مرتبة لوحة يتيمة على جدار، تحضرني جملة تبدأ بها رواية أحببتها يوماً

إني لأرى المؤلف فيبدو لي .فهو عظيم بقدر ما أنا وحيد !ما أعظم الله"
"..كلوحة

فما أكبر وأبرد .وكنت أنا في عزلتي ووحدتي، ذلك المؤلف وتلك اللوحة معاً
!ذلك الكون الذي كنت معلّقاً على جداره، في انتظارك
.كنت أدخل بعدك منحدرات الخيبات النفسية والعاطفية في الوقت نفسه
وكنت .وأعيش ذلك القلق الغامض، الذي يسبق ويلي دائماً كل معرض لي
.أقوم تلقائياً بجردة لأفراحي وخيباتي
وبعض .لم تهتم به غير صحافة فرنسية مختصّة كالعادة .انتهى معرضي إذاً
.المجلات العربية المهاجرة

ولكن يمكن أن أقول إنه حصل على تغطية إعلامية كافية، وأن الذين كتبوا
.عنه أجمعوا على أنه حدث فني عربي في باريس
جريدة .وحدها الصحافة الجزائرية تجاهلته، عن إهمال لا غير، كالعادة
وكأنهما تعانيان فعلاً من .ومجلة أسبوعية واحدة، كتبتا عنه بطريقة مقتضبة
.قلة الصفحات، وليس من قلة المواد الصحافية

بينما لم يحضر ذلك الصديق الصحافي، الذي وعدني بالحضور إلى باريس
ورغم أنني .لقضايا شخصية، ولإجراء مقابلة مطوّلة معي بالمناسبة نفسها
رجل غير مولع بالأضواء، والجلوس لعدة ساعات إلى صحافي للحديث عن
نفسي، فإنني كنت أتمنى أن تتم تلك المقابلة، لأتمكن أخيراً من الحديث
.القارئ الجزائري ..مطوّلاً إلى الشخص الوحيد الذي كان يعنيني حقاً

عبد القادر طلبني ليخبرني أنه اضطر للبقاء في الجزائر، لتغطية مهرجان ما
..من أحد المهرجانات التي ازدهرت هذه الأيام، لأسباب غامضة يعلمها الله
.وآخرون

ليس هناك من مقارنة بين مهرجان أو ملتقى رسمي، ..ولم أعتب عليه
يتم إعداده والإنفاق عليه بالعملة الصعبة وبين أي معرض مهما كان اسم
.صاحبه، والسنوات التي أخذتها منه تلك اللوحات

.في النهاية لا يمكن حتى أن أعتب على الصحافة الجزائرية

ماذا يمكن أن يقدم معرض للوحات الفنية من متعة أو ترفيه للمواطن
الجزائري الذي يعيش على وشك الانفجار، بل الانتحار، ولا وقت له للتأمل
..يمكن أن يرقص .(الراي)أو التذوق، والذي يفضّل على ذلك مهرجاناً لأغنية
ويغني فيها حتى الفجر، منفقاً على تلك الأغاني الشعبية ..ويصرخ

"المشبوهة، ما تجمّع في جيبه من دينارات، وما تراكم في جسده من ليبيدو؟"

الوحيدة التي يملكها شبابنا حقاً، والتي كعملتنا يدري أين "الثروة"تلك للبؤس ..ينفقها خارج الأسواق السوداء.

بعضهم أدرك هذا قبل غيره.

، وفي عزّ الفراغ والبؤس الثقافي الذي كان يعيشه الوطن، 1969سنة اخترع أحدهم في بضعة أيام، أكبر مهرجان عرفته الجزائر وإفريقيا، كان ، دعيت إليه قارة وقبائل إفريقية بأكملها "المهرجان الإفريقي الأول"اسمه في شوارع الجزائر لمدة أسبوع كامل على _عارية أحياناً_لتغني وترقص شرف الثورة!

وكانت .كم من ملايين أنفقت وقتها، على مهرجان للفرح ظلّ الأول والأخير أهم إنجازاته التعتيم على محاكمة قائد تاريخي كان أثناء ذلك، يستجوب باسم الثورة نفسها ..ويعذّب رجاله في الجلسات المغلقة.

ودون أن تكون لي صداقة ما بذلك القائد، الذي كان اسمه الطاهر أيضاً، ولا أيّ عداء خاص لذلك الحاكم الذي كان يوماً مجاهداً وقائداً أيضاً، بدأت أعي وأصبحت أحذر الأنظمة التي تكثر من .لعبة السلطة، وشراهة الحكم .!إنها دائماً تخفي شيئاً ما ..المهرجانات والمؤتمرات

فهل هي مصادفة أن تبدأ مشكلاتي من ذلك الحين، ويولد أول مذاق للمرارة في حلقي يومها؟

عندما التقيت بذلك الصديق بعد أشهر، اعتذر لي بأسف صادق، ووعدني ألا يفوّت معرضي القادم.

ربّتّ على كتفه ضاحكاً وقلت:

ولكن التاريخ سيذكر .بعد أيام لن يذكر أحد اسم ذلك المهرجان ..لا يهم - !اسمي لا محالة ولو بعد قرن

قال لي بمزاجٍ لا يخلو من الجد:

أتدري أنك مغرور؟ -

أجبته:

إننا .فنحن لا نملك الخيار يا صاحبي "محقوراً"أنا مغرور لكي لا أكون -

ننتمي إلى أمة لا تحترم مبدعيها وإذا فقدنا غرورنا وكبريائنا، ستدوسنا أقدام الأميين والجهلة!

تساءلت بعدها أأكون مغروراً حقاً؟

اكتشفت بعد شيء من التفكير، أنني لا أكون مغروراً إلا لحظة أقف أمام لوحة بيضاء وأنا ممسك بفرشاة كم بلزمني من الغرور لحظتها لأهزم. بياضها وأفضّ بكارتها، وأتحايل على ارتباكي بفائض رجولتي، وعنفوان فرشاتي؟

ولكن..
ما أكاد أنتهي منها، وأمسح يدي من كل ما علق بها من ألوان حتى أرتمي على الأريكة المجاورة، وأتأملها مدهوشاً، وأنا أكتشف أنني الوحيد الذي كان يعرق وينزف أمامها..

وأنها أنثى عربية تتلقى ثورتي ببرود وراثي مخيف!

ولذا، حدث في لحظات انهياراتي وخيباتي الكبرى أن مزّقت إحداهنّ .. وألقيت بها في سلة المهملات، بعدما أصبح وجودها يضايقني.

هنالك لوحات هي من السذاجة والبرودة بحيث تخلق عندك عقدة رجولة.. وليس فقط عقدة إبداع!

وربما لن يتوقع ضعفي وهزائمي السرية أحدٌ .ورغم ذلك، لن يعرف أحد هذا .

وأما .فالآخرون لن يروا غير انتصاراتي، معلّقة على الجدران في إطار جميل سلال المهملات، فستبقى دائماً في ركن من مرسمي وقلبي، بعيدة عن الأضواء.

فالذي يجلس أمام مساحة بيضاء للخلق، لا بدّ أن يكون إلهاً أو عليه أن يغّير مهنته.

أأكون إلهاً؟ أنا الذي حولني حبك إلى مدينة إغريقية، لم يبق منها قائماً غير الأعمدة الشاهقة المتآكلة الأطراف؟

هل يفيد شموخي، وملح حبك يفتت أجزائي من الداخل كل يوم؟ شهران.. وكلمات تركتها لي تجفّ لها ..ولا شي سوى رقم هاتفي مستحيل الفرشاة.

وإذا بالصمت يصبح لوني المفضل.

كنت أدرى جدلية الرسم والكتابة كما أردتها أنت.

وكنت تفرغين من الأشياء كلما كتبتِ عنها، وكأنك تقتلينها بالكلمات. كنت كلما رسمت امتلأت بها أكثر، وكأنني أبعث الحياة في تفاصيلها المنسية. وإذا بي أزداد تعلقاً بها، وأنا أعلقها من جديد على جدران الذاكرة.

أن أرسمك، أليس يعني أن أسكنك غرف بيتي أيضاً، بعدما أسكنتك قلبي؟

ولكنني اكتشفت ليلا بعد آخر عبثية. حماقة قرّرت في البدء ألا أرتكبها قراري.

لماذا كان الليل هزيمتي؟

ألأنني كلما خلوت بنفسي خلوت بك، أم لأن للفن طقوس الشهوة السرية التي تولد غالباً ليلاً في ذلك الزمان الخارج عن الزمن..
والخارج عن القانون؟

في ذلك الحد الذي تلغيه العتمة والفاصل بين على حافة العقل والجنون.. الممكن والمستحيل..
كنت أقترفك..

كنت أرسم بشفتي حدود جسدك.
أرسم برجولتي حدود أنوثتك.
أرسم بأصابعي كل ما لا تصله الفرشاة..

وأعرّيك وألبسك وأغيّر تضاريس وأزرعك وأقطفك بيد واحدة كنت أحتضنك.. جسدك لتصبح على مقاييسي.
يا امرأة على شاكلة وطن..

دعيني بيدِ واحدة أغير مقاييسك للرجولة. امنحيني فرصة بطولة أخرى كم !كم من الأيدي احتضنتك دون دفء !ومقاييسك للذّة ومقاييسك للحب.. وتركت أظافرها على عنقك، وإمضاءها أسفل من الأيدي تتالت عليك.. وآلمتك خطأ وأحبتك خطأ. جرحك.

ولم تقطع أيديهم. وقاطعوا الطرق أحبك السراق والقراصنة..

ووحدهم الذين أحبوك دون مقابل، أصبحوا ذوي عاهات.

لهم كل شيء، ولا شيء غيرك لي.

فمن سيأخذ طيفك مني؟ من سيصادر جسدك .أنت لي الليلة ككل ليلة من سريري؟ من سيسرق عطرك من حواسي؟ ومن سيمنعني من استعادتك بيدي الثانية؟
أنت لذّتي السرية، وجنوني السري، ومحاولتي السرية للانقلاب على المنطق.

كلّ ليلة تسقط قلاعك في يدي، ويستسلم حراسك لي، وتأتين في ثياب نومك لتتمددي إلى جواري، فأمرر يدي على شعرك الأسود الطويل المبعثر على وسادتي، فترتعشين كطائر بلّله القطر .ثم يستجيب جسدك النائم لي.

وما الذي أوصلني إلى هذا الجنون؟ ..كيف حدث هذا

ترى صوتك الذي تعودت عليه حد الإدمان، صوتك الذي كان يأتي شلال حبّ وموسيقى، فيتدحرج قطرات لذة عليّ؟

"واشك؟"حبك هاتف يسأل

يترك جواري عينيه قنديل شوق، عندما يدثرني ليلاً بلحاف من القبل .تنطفئ الأضواء

فيعيدني يخاف عليّ من العتمة، يخاف عليّ من وحدتي ومن شيخوختي .يغنّي لي يقصّ عليّ قصصاً يصدّقها الأطفال .إلى الطفولة دون استشارتي .أغنيات ينام لسماعها الأطفال

تُرى أكان يكذب؟ هل تكذب الأمهات أيضاً؟

!هذا ما لا يصدقه الأطفال

ما الذي أوصلني إلى جنوني؟

.وهل تفعل القبل كلّ هذا؟ .ترى قبلتك المسروقة من المستحيل

..أذكر أنني قرأت عن قُبل غيرت عمراً ولم أصدّق

كيف يمكن لنيتشه فبلسوف القوة والرجل الذي نظر طويلاً للجبروت والتفوق أن يقع صريع قبلة واحدة، سرقها مصادفة في زيارة سياحية إلى المرأة التي أحبها أكثر من كاتب وشاعر في عصرها "Lou "معبد، صحبة .الذي تغزّل فيها طويلاً وبكاها أمام هذا الجسر "أبولينير "كان أحدهم "Loup "نفسه، واجداً في اسمها المطابق بالفرنسية تماماً لاسم الذئب دليلاً قاطعا على قدره معها؟

فقد "عندما تزور امرأة لا تنس أن تصحب معك العصا"القائل (نيتشه)أما لم "حتى إن أمه قالت يوماً .كان أمامها رجلاً محطما، ضعيفاً، وبدون إرادة أو ..إما أن يتزوجها :تترك هذه المرأة أمام ابني سوى اختيار من بين ثلاثة ".!أو يصبح مجنوناً ..ينتحر

فهل أخجل من ضعفي معك، وأنا لست .يوم أحب "نيتشه"كان هذا حال فيلسوفاً للقوة، ولست شمشون الذي فقد شعره وقوته الأسطورية بسبب قبلة؟

هل أخجل من قبلتك، وهل أندم عليها، أنا الذي بدأ عمري على شفتيك؟

هل انتحر أم أصبح .من امرأة لم يتزوجها "نيتشه"لا أدري كيف شفي مجنوناً؟

أدري فقط، أنني قضيت شهرين وسط تقلّبات نفسية متناقضة، كدت ألامس فيها شيئاً يشبه الجنون، ذلك الجنون الذي كان يغريك، وكنت .تتغزّلين لي به كثيراً، وتعتبرينه الصك الوحيد الذي يشهد للفنان بالعبقرية

سأعترف لك اليوم، بعد كل تلك السنوات، أنني وصلت معك يوماً ..فليكن .إلى ذلك الحد المخيف من اللاعقل
أكان عشقاً فقط، أم لأهديك لا شعورياً اللعبة التي لم تكوني قد حصلت .ذلك الرجل المجنون الذي تحلمين به :عليها بعد

.حدث كثيراً وقتها، أن استعدت قصتي معك فصلا فصلا

مرة يبدو لي حبك قصة .كنت كل مرة أقع على استنتاجات متناقضة ..شيئاً ربما كان مقدراً مسبقاً منذ قرون، منذ .أسطورية أكبر منك ومني .(سيرتا)كانت قسنطينة مدينة تدعى

ومرة أتساءل، ماذا لو كنت رجلاً استوقفتك ذاكرته وأغراك جنونه بقصة ما؟

ماذا لو كنت مجرد ضحية لجريمة أدبية ما، تحلمين بارتكابها في كتاب قادم؟

فيك، فأذكر أنني كنت "الإجرامي"ثم فجأة تطغى طفولتك على الجانب وأنني بسبب قبلة حمقاء نسفت إلى الأبد ذاك .أيضاً نسخة عن والدك .الجسر السري الذي كان يجمعنا

.وأستيقظ من نومي وأتجه إلى مرسمي .آنذاك، كنت أقرر الاعتذار منك من أين أبدأك؟ :أجلس طويلاً أمام لوحتك البيضاء وأتساءل

أكتشف .أتأمل طويلاً صورتك، على ظهر روايتك التي أهديتنيها دون إهداء .فكيف أضع عمراً لوجهك الجديد والقديم معاً .أن وجهك لا علاقة له بالصورة كيف أنقل عنك نسخة دون أن أخونك؟

، ذلك الرسام العجيب الذي كان (ليوناردو دافنشي)أتذكر وسط ارتباكي بأي يد تراه .قادراً على أن يرسم بيده اليمنى ويده اليسرى بالإتقان نفسه ليمنحها الخلود والشهرة؟ وبأي يد يجب أن أرسمك أنا؟ (الجوكندا)رسم

ماذا لو كنت المرأة التي لا ترسم إلا باليد اليسرى، تلك التي لم تعد يدي؟

وأجلس لأتفرج عليك عساني .خطر ببالي مرة أن أرسمك بالمقلوب .فربما كانت هذه الطريقة الوحيدة لفهمك .أكتشف أخيراً سرك

سيكون .فكرت حتى في إمكانية عرض تلك للوحة مقلوبة في معرض ."أنت"اسمها

وقد يعجبون بها، دون أن يتعرف أحدهم تماما .سيتوقف أمامها الكثيرون .عليك

!أليس هذا ما تريدين في النهاية؟

***

مرّ أكثر من أسبوع، وأكثر من نشرة جوية قبل أن يأتي صوتك ذات صباح :دون مقدمات

- كيف أنت؟

:وارتبك الكلام .اندهش القلب الذي لم يتوقع هدية صباحية كتلك

- وينك؟

ولكنك أجبتني بضحكة أعرف .كان صوتك يبدو قريباً أو هكذا خيّل لي :مراوغتها

- حاول أن تحزر!

:أجبتك كمن يحلم

هل عدتِ إلى باريس؟ -

ضحكت وقلت:

جئت هنا منذ أسبوع لأحضر زواج إحدى .أنا في قسنطينة ..أي باريس - طمّني عنك ماذا تفعل في هذا .وقلت لا بد أن أطلبك من هنا ..القريبات ألم تسافر إلى أيّ مكان؟ ..الصيف

اختصرت عذابي في بضع كلمات قلت:

كيف لم تتصلي بي حتى الآن؟ ..جدّ متعب ..إنني متعب -

فقلت وكأنك طبيب سيكتب وصفة لمريض، أو شيخ يطلب منه كتابة حجاب أو تعاويذ سحرية:

أنت لا تدري كم .يجب أن تعذرني ..والله سأكتب لك قريباً ..سأكتب لك - إن الواحد لا يخلو لنفسه في هذه المدينة ولو .الحياة هنا مزعجة وصعبة ..حتى الكلام على الهاتف مغامرة بوليسية .لحظة

وماذا تفعلين؟ -

حتى المدينة .أنتقل من بيت إلى آخر، ومن دعوة إلى أخرى ..لا شيء - ..لم أتجول فيها على قدمي، لقد عبرتها بالسيارة فقط

ثم أضفت وكأنك تذكرت فجأة شيئاً هاماً:

لقد .إن أجمل ما في قسنطينة، جسورها لا غير .أنت على حق ..أتدري - ..ذكرتك وأنا أعبرها

ولكنني سألتك بحمافة "هل تحبينني؟"كنت أود تلك اللحظة لو سألتك:

.هل تحبينها؟ -

أجبتني بعد شيء من الصمت، وكأنني طرحت عليك سؤالاً يستدعي التفكير:

..ربما بدأت أحبها -

قلت:

..شكراً -

قلت وأنت تنهين المكالمة ..ضحكت:

- لن تتغير ..أيها الأحمق!

***

وما ..ويفتح عينيه لينظر إلى الباطن ..المرء يفتح شباكه لينظر إلى الخارج ..النظر سوى تسلقك الجدار الفاصل بينك وبين الحرية".

وجلست على .في ذلك الصباح، أشعلت سيجارة صباحية على غير عادتي شرفتي أمام فنجان قهوة، أتأمل نهر السين، وهو يتحرك ببطء تحت جسر ميرابو.

تذكرني .كانت زرقته الصيفية الجميلة، تستفزّني ذلك الصباح دون مبرر فجأة بالعيون الزرق التي لا أحبها.

أعلنت العداء على هذا النهر؟ ..أترى لأنه لا نهر في قسنطينة

كنت فجأة على عجل .نهضت دون أن أكمل سيجارتي.

عفوك .عفوك أيها الجسر التاريخي .عفوك أيها النهر الحضاري ..فليكن هذه المرة أيضاً سأرسم جسراً آخر غير هذا .(أبولينير)صديقي.

كنت هذه المرة ممتلئاً بك، بصوتك القادم من هناك، ليوقظ من جديد تلك المدينة داخلي.

وكان داخلي شيء ما على .ألم أكن قد لمست الفرشاة من ثلاثة أشهر كل تلك الأحاسيس والعواطف المتضاربة، .وشك أن ينفجر بطريقة أو بأخرى التي عشتها قبل رحيلك وبعده، والتي تراكمت داخلي كقنبلة موقوتة.

وكان لا بد أن أرسم لأرتاح أخيراً.

أرسم بيدي الموجودة وبتلك المفقودة .ملء أصابعي ..أرسم ملء يدي. حتى لا .أرسم بكل تقلباتي، بتناقضي وجنوني وعقلي، بذاكرتي ونسياني أموت قهرا ذات صيف، في مدينة فارغة إلا من السواح والحمام.

وهكذا بدأت ذلك الصباح لوحة لقنطرة جديدة، قنطرة سيدي راشد.

لم أكن أتوقع يومها وأنا أبدأها، أنني أبدأ أغرب تجربة رسم في حياتي، وأنها ستكون البداية لعشر لوحات أخرى، سأرسمها في شهر ونصف دون توقف، إلا لسرقة ساعات قليلة من النوم، أنهض منها غالباً مخطوفاً بشهية جنونية للرسم.
كانت الألوان تأخذ فجأة لون ذاكرتي، وتصبح نزيفاً يصعب إيقافه.

ما كنت أنتهي من لوحة حتى تولد أخرى، وما أنتهي من حيّ حتى يستيقظ آخر، وما أكاد أنتهي من قنطرة، حتى تصعد من داخلي أخرى..

حياً، كما ..حياً ..جسراً ..حجراً، جسراً ..كنت أريد أن أرضي قسنطينة حجراً يرضي عاشق جسد امرأة لم تعد له.

أقبّل ترابها .كنت أعبرها ذهاباً وإياباً بفرشاتي، وكأنني أعبرها بشفاهي..
أوزّع عشقي على مساحتها قُبلاً ملونة .وأحجارها وأشجارها ووديانها.
وحباً حتى العرق ..وجنوناً ..أرشها بها شوقاً.

وكنت أسعد وذلك القميص يلتصق بي، بعد ساعات من الالتحام بها.

ونحن في ممارسة الحب كما في ممارسة الرسم، لا .العرق دموع الجسد الجسد يختار لمن .ولا من أجل أية لوحة .نبكي جسدنا من أجل أية امرأة يعرق.
وكنت سعيداً أن تكون قسنطينة، هي اللوحة التي بكى لها جسدي.

في ذلك الشهر الأخير من الصيف، كنت ما أزال أتوقع رسالة منك، تعطيني شيئاً من القوة والحماسة اللتين افتقدتهما خلال الشهرين الماضيين لغيابك عندما فاجأتني رسالة من زياد .
كانت رسائله القادمة من بيروت تدهشني دائماً حتى قبل أن أفتحها.

كنت أتساءل كل مرة، كيف وصلت هذه الرسالة إلى هنا؟ من أي مخيم أو من أية جبهة، تحت أي سقف مدمر يكون قد كتبها؟ أي صندوق أودعها، وكم من ساعي بريد تناوب عليها حتى تصل هنا، داخل صندوق بريدي بالحي السادس عشر بباريس؟..

كانت تذكرني بزمن حرب التحرير، يوم كنا .كنت أعاملها دائماً بحب خاص نبعث الرسائل لأهلنا مهربة تحت الثياب.

وكم من الرسائل وصلت بعد !كم من الرسائل لم تصل، وماتت مع أصحابها هنالك قصص تصلح لأكثر من رواية .فوات الأوان.

آخر رسالة لزياد كانت تعود لما يقارب السنة.

كان يحدث أن يكتب لي هكذا دون مناسبة، رسائل مطوّلة أحياناً، وموجزة أحياناً أخرى، كان يسمّيها "إشعار بالحياة".

في البدء ضحكت لهذه التسمية التي يريد أن يخبرني بها فقط أنه مازال على قيد الحياة.

فقد كان يحمل لي .بعدها أصبحت أخاف صمته الطويل، وانقطاع رسائله احتمال إشعار بشيء آخر.

هذه المرة، كان يريد أن يخبرني أنه قد يحضر إلى باريس في بداية أيلول. وأنه ينتظر جواباً سريعاً مني ليتأكد من وجودي في باريس في هذه الفترة.

وأسعدتني وأدهشتني ..فاجأتني رسالته.

ما كدت أذكره معكِ حتى ..طويل عمر هذا الرجل"ذهب تفكيري إليك وقلت ثم تساءلت تراك قرأت أشعاره؟ وهل أعجبتك؟ وماذا سيكون رد ."حضر فعلك إذا قلت لك إنه سيحضر إلى باريس، أنت التي خفت أن يكون قد مات، وأبديت اهتماماً بقصته؟

وكنت أستعيد توازني تدريجياً كذلك .كان الصيف ينسحب تدريجياً.

كان لا بد أن أرسمها لأخرج من تلك .لقد أنقذتني تلك اللوحات من الانهيار المطبات الجنونية التي وضعت عليها قدميّ معك.

أو ربما لم أكن .ولكن لم يكن ذلك يعنيني .كنت قد فقدت كثيراً من وزني وقتها لأنتبه له، بعدما أصبحت أنظر إلى اللوحات، وأنسى أن أنظر إلى نفسي في مرآة.

كنت أعتقد أن الذي خسرته من وزن في أيام، هو الذي ربحته من مجد إحدى :ولذا كان يحلو لي أن أتأمل نزيفي وجنوني معلّقاً أمامي .إلى الأبد عشرة لوحة لم تعد تكفيها جدران البيت.

وربما جاء تعلّقي بها، كذلك، لكوني كنت أدري وأنا أضع فرشاتي لآخر مرة وأنا أنتهي منها، أنه قد تمر عدة أشهر قبل أن أشعر برغبة جديدة في الرسم.

وارتحت ..فقد كنت فرغت مرة واحدة من ذاكرتي.
وكنت سعيدا أو ربما في حالة ترقّب للسعادة .كنا على أبواب أيلول.

كانت الثياب .كنت أنتظر الخريف كما لم أنتظره من قبل ..ستعودين أخيراً اللوازم المدرسية التي تملأ .الشتوية المعروضة في الواجهات تعلن عودتك

.رفوف المحلات، تعلن عودتك

.كلها كانت تحمل حقائبك ..والتقلبات الجوية ..والريح، والسماء البرتقالية

..ستعودين

.مع النوء الخريفي، مع الأشجار المحمرة، مع المحافظ المدرسية

..ستعودين

مع الأطفال العائدين إلى المدارس، مع زحمة السيارات، مع مواسم
.الإضرابات، مع عودة باريس إلى ضوضائها

.مع المطر ..مع الحزن الغامض

.مع نهايات الجنون ..مع بدايات الشتاء

يا أحطاب ..يا طمأنينة العمر المتعب ..يا معطفي الشتوي ..ستعودين لي
.الليالي الثلجية

لا تهيئ "كيف نسيت تلك المقولة الرائعة لأندريه جيد .أكنت أحلم؟
كيف نسيت نصيحة كهذه؟ "!أفراحك

كنتِ .تأتي وترحل وسط الأعاصير والدمار .كنتِ في الواقع امرأة زوبعة
.معطفاً لغيري وبرداً لي

.كنتِ الأحطاب التي أحرقتني بدل أن تدفئني

.كنت أنتِ

..وكنت أنتظر أيلول إذن

ومن .ماذا تريدين مني بالتحديد .أنتظر عودتك لنتحدث أخيراً بصدق مطلق
وما اسم قصتنا هذه؟ ..أكون أنا بالنسبة إليك

.أخطأت مرة أخرى

.كان وقتا لجنون آخر .لم يكن الوقت للسؤال ولا للجواب

..وجئت، زوبعة صادفت زوبعة أخرى، اسمها زياد .كنت أنتظر الأمان

وكانت الأعاصير.

ربما أصبح زياد منذ آخر مرة رأيته فيها، منذ خمس سنوات بباريس لم يتغير. فقط أكثر امتلاءً، أكثر رجولة مع العمر، من ذلك الوقت الذي زارني فيه لأول مرة في الجزائر سنة 1972. في مكتبي، أقل، يوم كان شاباً فارعاً بوزن أقل، وربما بهموم أقل أيضاً.

وقميصه المتمرد الذي لم يتعود يوماً. مازال شعره مرتباً بفوضوية مهذبة على ربطة عنق، مفتوحاً دائماً بزر أو زرين. وصوته المميز دفئاً وحزناً، فيبدو وكأنه شاعر. يوهمك أنه يقرأ شعراً، حتى عندما يقول أشياء عادية أضاع طريقه وأنه يوجد خطأ حيث هو.

في كل مدينة قابلته فيها، شعرت أنه لم يصل بعد إلى وجهته النهائية، وأنه يعيش على أهبة سفر.

لم يكن. كان حتى عندما يجلس على كرسي يبدو جالساً على حقائبه يوماً مرتاحاً حيث كان، وكأن المدن التي يسكنها محطات ينتظر فيها قطاراً لا يدري متى يأتي.

كما تركته، محاطاً بأشيائه الصغيرة ومحملاً بالذاكرة، ومرتدياً ..ها هوذا سروال الجينز نفسه، كأنه هويته الأخرى.

ومن ..فيه شيء من غزّة، من عمان. كان زياد يشبه المدن التي مر بها ومن الجزائر وأثينا ..بيروت وموسكو.

من الحلاج، ..فيه شيء من بوشكين، من السيّاب. كان يشبه كلّ من أحب ومن لوركا وتيودوراكيس ..من غسان كنفاني ..من ميشيما.

ولأنني كثيراً ما قاسمت زياد ذاكرته، حدث أن أحببت كل ما أحب ومن أحب، دون أن أدري.

كنت في حاجة إليه في تلك الأيام.

شعرت وأنا أستقبله، أنني افتقدته طوال هذه السنوات دون أن أدري، وأنني بعده لم ألتقِ بشخصٍ يمكن أن أدعوه صديقاً.

ووحدها قناعاتنا القديمة ظلّت .باعدتنا الأيام وباعدتنا القارات .ها هو زياد تجمعنا.

فلم يحدث لزياد أن فقد احترامي .ولذلك لم تزل في القلب مكانته الأولى لسبب أو لآخر خلال كل هذه السنوات.

أليس هذا أمراً نادراً هذه الأيام؟

..جاء زياد

واستيقظ البيت الذي ظلّ مغلقاً لشهرين في وجه الآخرين،حتى في وجه كاترين نفسها.

راح زياد يملأه بحضوره، بأشيائه وفوضاه، بضحكته العالية أحياناً، وبحضوره فأكاد أشكره فقط، لأنه أشرع نوافذ هذا البيت، .السري الغامض دائماً وربما احتلّه كله ..واحتل غرفة من غرفه.

عُدنا تلقائياً إلى عاداتنا القديمة التي تعود إلى خمس سنوات، عندما زارني لأول مرة في باريس.

جلسنا وتحدثنا في الموضوعات .رحنا من جديد إلى المطاعم نفسها تقريباً لم يسقط نظامٌ عربي واحد .نفسها تقريباً، فلا شي تغيّر منذ ذلك الحين لم يحدث .من تلك الأنظمة التي كان زياد يراهن على سقوطها منذ عرفته أيّ زلزال سياسي هنا أو هناك، ليغيّر خريطة هذه الأمة.

ولكن من تراه سيبتلع في .وحده لبنان أصبح وطناً للزلازل والرمال المتحركة النهاية؟

وكان النقاش .كان هذا هو السؤال الذي حاولنا أن نتنبأ به بأكثر من جواب يصبّ في النهاية دائماً في القضية الفلسطينية، وفي خلافات فصائلها، والمعارك التي حدثت بين عناصرها في لبنان، والتصفيات الجسدية التي راح ضحيتها أكثر من اسم فلسطيني في الخارج.

كان حديث زياد ينتهي كالعادة بشتم تلك الأنظمة التي تشتري مجدها والمواجهة ..بالدم الفلسطيني، تحت أسماء مستعارة كالرفض والصمود. فينعتها في فورة غضبه بكل النعوت الشرقية البذيئة، التي أضحك لها وأنا أكتشف بعضها لأول مرة.

وأكتشف أيضاً أن لكل ثوّار قاموسهم الخاص، الذي تفرزه ثورتهم ومعايشتهم الخاصة، فأستعيد بحنين، مفردات أخرى لزمنٍ آخر وثورة أخرى.

ربما كان هذا الأسبوع هو أجمل الأيام التي قضيتها مع زياد، والتي حاولت بعد ذلك ولعدة سنوات ألا أذكر غيرها، حتى لا أشعر بالمرارة ولا بالحسرة على كل ما عشته بعدها عن خطأ أو عن صواب.

من غيرة ومن صدمات، وأنا أضعكما ذات يوم هكذا ..كل ما مرّ بي من ألم ..وجهاً لوجه، دون أية مقدمات أو توضيحات خاصة

"..لا بد أن أعرفك عليها ..سنتغدّى غدا مع صديقة كاتبة" :له قلت.

قال على طريقته الخاصة وهو يعود .لم يبد عليه اهتمام خاص بكلامي
" :لقراءة جريدته أنا أكره النساء عندما يحاولن ممارسة الأدب تعويضاً عن أتمنى ألا تكون صديقتك هذه عانساً، أو امرأة في سن ..ممارسات أخرى "!فأنا لا صبر لي على هذا النوع من النساء ..اليأس

!وأبتسم ..رحت أتعمق في فكرته .لم أجبه

فأنا ..تعالي غداً للغداء في ذلك المطعم نفسه" :على الهاتف قلت لك "..أحمل لك مفاجأة لا تتوقعينها

:قلتِ

"أليس كذلك؟ ..إنها لوحتي"

"!إنها شاعر ..لا" :أجبتك بعد شيء من التردد

***

..التقيتما إذن
:ويمكن أن أقول هذه المرة أيضاً

والذين بنوا بينها جسوراً .الذين قالوا وحدها الجبال لا تلتقي أخطأوا" .لتتصافح دون أن تنحني، لا يفهمون شيئاً في قوانين الطبيعة
وعندها لا تتصافح، .الجبال لا تلتقي إلا في الزلازل والهزات الأرضية الكبرى ".بل تتحول إلى تراب واحد

فأين العجب، إذا كنت هذه المرة أيضاً أنا ..وكان كلاكما بركاناً ..التقيتما إذن !الضحية

..مازلت أذكر ذلك اليوم

..وصلتِ متأخرة بعض الشيء، وكنت مع زياد قد طلبنا مشروباً في انتظارك

..ودخلتِ

كان زياد يحدّثني عن شيء ما عندما صمت فجأة، وتوقفت عيناه عليك وهو يراك تجتازين باب المطعم.

أنيقة، ..ورأيتك تتقدّمين نحونا في ثوبٍ أخضر ..فاستدرت بدوري نحو الباب مغرية، كما لم تكوني يوماً.
وبقيت أنا من دهشتي جالساً .وقف زياد ليسلّم عليك وأنت تقتربين منّا كان من الواضح أنه لم يتوقّعك هكذا.

..ها أنت ذي أخيراً

أحسست أن شيئاً ما يسمّرني إلى ذلك الكرسي، وكأن تعب كلّ الأسابيع الماضية، وكلّ عذابي بعدك قد نزل عليّ فجأة، ومنع رجليّ من الوقوف.

؟!أهذه أنت حقاً ..ها أنت ذي أخيراً

وقبل أن أفكر في تعريفكما ببعض، كنتِ قد قدّمت نفسك لزياد، وكان هو بدوره على وشك أن يعرّفك بنفسه عندما قاطعته قائلة:

ألست زياد خليل؟ ..دعني أحزر -

:ووقف زياد مدهوشاً قبل أن يسألك

كيف عرفتِ؟ -

استدرتِ نحوي عندئذٍ وكأنك تكتشفين وجودي هناك، فوضعت قبلتين على خدّي وقلت وأنت توجّهين الحديث إليه:

..أنت تملك شبكة إعلان قوية في شخص هذا الرجل -

:ثم سألتني وأنت تتفحّصين ملامحي

ما الذي حدث لك في هذه العطلة؟ ..لقد تغيرت بعض الشيء -

:تدخّل زياد ليقول ساخراً

إنه لم يفعل شيئاً غير ..لقد رسم إحدى عشرة لوحة في شهر ونصف -

أعتقد أنني لو لم أحضر إلى ..نسي حتى أن يأكل ونسي أن ينام .هذا كما لم يعد ..باريس لمات هذا الرجل الذي أمامك جوعاً وإعياءً وسط لوحاته الرسامون يموتون اليوم!

وبدل أن تسألينني سألت زياد بشيء من الذعر، وكأنك كنت تخافين أن أكون قد رسمت إحدى عشرة نسخة من صورتك:

- ماذا رسم؟

أجابك زياد بابتسامة وجّهها إليّ:

- لقد رسم قسنطينة ..لا شيء سوى قسنطينة ..وكثيراً من الجسور..

صحتِ وأنت تسحبين كرسياً وتجلسين:

- لا ..أرجوكم لا تحدثوني عن قسنطينة مرة أخرى ..إنني عائدة تواً منها. إنها الوصفة المثالية لكي ينتحر المرء أو يصبح مجنوناً ..إنها مدينة لا تطاق!

ثم وجّهتِ كلامك إليّ:

- متى تشفى أنت من هذه المدينة؟

"كان يمكن أن أقول لك لو كنا على انفراد يوم أشفى منك!"

ولكن زياد أجاب ربما نيابة عني:

- لا نشفى من ذاكرتنا يا آنستي ..نحن نرسم ..ولهذا نحن ..ولهذا يموت بعضنا أيضاً ..نكتب..

كان مدهشاً وشاعراً في كل شيء ..رائع زياد.

كان يقول شعراً دون جهد .ويحب ويكره دون جهد .ويغري دون جهد.

كنت أنظر إليه وهو يسألك "أنتِ جزائرية إذن؟". ولا أستمع لما تقولينه له.

بدا لي في تلك اللحظة أن الحديث كان يدور بينكما فقط، وأنني لم أقل كلمة واحدة منذ قدومك.

كنت طرفاً فقط في تلك الجلسة الغريبة للقدر.

كنت أنظر إليك ..وأبحث في تفاصيلك عن شرح لما حلّ بي.

"ما هو أجمل شيء فيك؟" :سألتك يوماً

.ابتسمت بإيماء غامض ولم تجيبي

!فهل هناك من تفسيرٍ للرغبة .لم تكوني الأجمل، كنت الأشهى

..ربما كان زياد يشبهك أيضاً

اكتشفت ذلك مع مرور الأيام، وأنا أنظر إليكما وأنتما تتحدثان أمامي كلّ مرة
.

من الجاذبية التي لا علاقة لها ..كان أيضاً شي من السحر الغامض فيه بل وأزعجتني ..وكانت فكرة تشابهكما أو تطابقكما هذه تزعجني .بالجمال عندما نبّهتني إلى تدهور صحتي وشحوب لوني، .ربما من اللحظة الأولى .بينما كنت أراكما أمامي في صحّة وتألق مثير للغيرة

وأنا أكتشف أنني لست سوى شبح ..ترى بدأت الغيرة تتسلل إلي اللحظة بينكما، ووجه حشر خطأ في لوحتكما الثنائية؟

ولذا لم تعتذري لي، .لم تَتَنَبّهي يومها أنني وصلت إلى تلك الحالة بسببك .وكثيراً إليه ..بل وأكثر من ذلك كنت تتحدثين قليلاً إليّ

:قلتِ له

؛ لقد ساعدني شيئاً ما "مشاريع للحب القادم"لقد أحببت ديوانك الأخير - هنالك مقاطع منه حفظتها لفرط ما أعدت .على تحمل هذه العطلة البائسة ..قراءتها

:ورحت تقرأين أمام دهشة زياد

تربّص بي الحزن لا تتركيني لحزن المساء"
سأرحل سيدتي
أشرعي اليوم بابك قبل البكاء
فهذي المنافي تغرّر بي للبقاء
وهذي المطارات عاهرة في انتظار
"...تراودني للرحيل الأخير

.كنت أستمع إليك تقرئين شعراً لأول مرة

كان في صوتك موسيقى لآلة لم تخلق بعد أتعرف عليها لأول مرة في حزن

.فإذا بها عزف لشيء آخر ..نبرتك التي خلقت في البدء للفرح

وكان زياد يستمع إليك بشيء من الذهول، وكأنه فجأة يجلس خارج الزمن
.وخارج الذاكرة

.كأنه أخيراً قرر أن يجلس على شيء آخر غير حقائبه ليستمع إليك
:راح يقرأ بقية تلك القصيدة وكأنه يقرأ لك طالعه لا غير ..وعندما سكتِّ

ومالي سواكِ وطن"
رصاصة عشق بلون كفن ..وتذكرة للتراب
ولا شيء غيرك عندي
"!العمر قصير ..مشاريع حبّ

شعرت أن شحنة من الحزن المكهرب وربما الحب ..في تلك اللحظة
.المكهرب أيضاً قد سرت بيننا، واخترقتنا نحن الثلاثة

كنت أشعر أنه يسرق مني كلمات الحزن، .كنت مبهوراً به ..كنت أحب زياد
..وكلمات الوطن، وكلمات الحب أيضاً

.كان زياد لساني، وكنت أنا يده كما كان يحلو له أن يقول

!معاً ..أنك أصبحت قلبنا ..وكنت أشعر في تلك اللحظة

***

.كان يجب أن أتوقع كل الذي حدث

فهل كان يمكن أن أوقف انجرافكما بعد ذلك؟

كنت شبيهاً بذلك العالم الفيزيائي الذي يخترع وحشاً، ثم يصبح عاجزاً عن
.السيطرة عليه

بل وكتبتها فصلاً فصلاً .كنت أكتشف بحماقة أنني صنعت قصتكما بيدي
.بغباء مثالي، وأنني عاجز عن التحكم في أبطالي

كيف يمكن أن أضع أمامك رجلاً يصغرني باثنتي عشرة سنة، ويفوقني
حضوراً وإغراءً، وأحاول أن أقيس نفسي به أمامك؟

كيف يمكن أن أفكّ صلة الكلمة التي كانت تجمعكما بتواطؤ، وأمنع كاتبة أن
تحبّ شاعراً تحفظ أشعاره عن ظهر قلب؟

وكيف أقنعه هو الذي ربما لم يشفَ بعد من حبه الجزائري السابق، ألا يحبك أنت التي جئت لتوقظي الذاكرة، وتشرعي نوافذ النسيان؟

الذي كان أيضاً ..وكيف أتيت بكما لأضعكما أمام قدركما ..كيف حدث هذا قدري!

قال لي ذلك المساء:

- لا أذكر أنني قرأت لها شيئاً، فربما بدأت الكتابة ..إنها رائعة هذه الفتاة لقد ..ولكنني أعرف هذا الاسم .بعدما غادرت الجزائر حسب ما فهمت .إنه ليس غريباً عليّ ..سبق أن قرأته في مكان ما

قلت له وقتها:

- إنه اسم لشارع في الجزائر .أنت لم تقرأ هذا الاسم وإنما سمعته فقط .الذي استشهد أثناء الثورة (الطاهر عبد المولى)يحمل اسم أبيها

وضع زياد جريدته ونظر إليّ دون أن يقول شيئاً.

أحسسته ذهب بعيداً في تفكيره.

وكل ..تراه بدأ أيضاً يكشف كل الهوامش المثيرة للقائكما في تلك الظروف التفاصيل العجيبة التي لا يمكن أن يبقى محايداً أمامها؟

شعرت برغبة في الكلام عنك أكثر.

كدت أخبره أنك ابنة قائدي .كنت على وشك أن أحدثه عن سي الطاهر أنت التي كان يمكن .كدت أقصّ عليه حتى قصّتي العجيبة معك .وصديقي !أن تكوني ابنتي، قبل أن تصبحي فجأة بعد ربع قرن حبيبتي

وقصة .وتصادفها مع ميلادك (حنين)كدت أحكي له قصة لوحتي الأولى ..وسبب تدهور صحتي وجنوني الأخير ..لوحاتي الأخيرة وعلاقتها بك

كدت أشرح له سر قسنطينة.

أصَمتُ لأحتفظ بسرّك لي كما نحتفظ بسر كبير نتلذّذ بحمله وحدنا؟ أكان لحبك نكهة العمل السري ومتعته القاتلة؟.

أنم تراني كنت أخجل أن أعترف له دون أن أدري أنك حبيبتي، هو الذي لم أخجل منه يوماً والذي تقاسمت معه كل شيء؟

فقط؟ ..ألأنك حبّ لم يُخلق ليُقتسم، قررت منذ البدء أن تكوني لأحدنا

أعن صداقة أو حماقة، كنت أريد أن أمنحه فرصة حبك الذي قد يكون حبّه الأخير، وأياماً من السعادة المسروقة من الموت المحتمل الذي كان يتربص وفي كل مدينة؟ ..به في كل حين

.ماذا جاء زياد يفعل في باريس؟ من الواضح أنه لم يأت في زيارة سياحية يتلقى أو ..ربما جاء ليقوم ببعض الاتصالات السرية، يلتقي ببعض الجهات ..يعطي تعليمات لا أدري

كان يتحاشى أخذ مواعيده على الهاتف، وكان لا .ولكنه كان قلقاً شيئاً ما .يغادر البيت بمفرده إلا نادراً

كان هناك شيء .ولم أطرح عليه يوماً أي سؤال حول سبب زيارته لباريس من بقايا فترة كفاحية في حياتي، تجعلني أحترم أسرار الآخرين عندما .يتعلق ذلك بقضايا نضالية

ولهذا نقلنا سرنا وصمتنا حتى قصتنا .كنت أحترم سره، وكان يحترم صمتي .المشتركة معك

أكان بحدسه المفرط يتوقع شيئاً ما بيني وبينك؟
أم تراه أمام تظاهري باللامبالاة، لم يتوقع وجود حبّ ملتهب كهذا في .أحشائي

وكيف يمكن أن يتوقع ذلك، وأنا أنسحب تدريجياً على رؤوس الأصابع، لأترك له المجال تدريجياً لمزيد من التوسّع؟
يتحدث إليك ويدعوك إلى البيت .كنت أدعه يجيب على الهاتف نيابة عني .نيابة عني
ولمن تراك تجمّلتِ؟ ..وكنت تأتين، وأحاول ألا أسأل نفسي لمن جئت

.ربما كان أكثر الأيام وجعاً يوم زرت البيت بعد ذلك لأول مرة

رحت تنتقلين من غرفة إلى .كان لا بد أن ينبهك زياد للوحاتي لتنتبهي إليها لم يستوقفك ذلك الممر، ولا ذكرى قبلة .أخرى وكأنك تعبرين غرف بيتك .قلَبت حياتي رأساً على عقب

باباً، فقلت لك (خطأ؟)أكانت تلك اللحظة هي الأكثر ألماً، أم عندما فتحت فوقفت أمام ذلك الباب نصف المفتوح، لحظات ."هذه غرفة زياد"موضّحاً .بدت لي أطول مما قضيته من وقت أمام كل لوحاتي مجتمعة

قلت وأنت تعودين إلى الصالون وتجلسين على تلك الأريكة نفسها:

- كان يكفي لوحة ..جنون هذا ..لا أفهم أن تكون رسمت كل هذه الجسور أو اثنتان..

أعن قناعة أم عن لياقة تطوع زياد ليجيبك نيابة عني، بعدما لاحظ وقع كلماتك عليّ، ولاحظ تلك الخيبة التي أفقدتني صوتي:

- وفي ..لقد حكمت عليها من النظرة الأولى ..أنت لم تتأملي هذه اللوحات هنالك أرقام سرية تفتح لغز كل .الرسم، اللوحات لا تتطابق وإن تشابهت لا بد من البحث عنه للوصول إلى ذلك (الكود)شيء شبيه بـ ..لوحة الإشعار بشيء ما يريد أن يوصله إلينا صاحبها..

الشهيرة، لما (لاعبي الورق)لو مررت بنفس هذه السرعة أمام لوحة لاحظت سوى لاعبين جالسين أمام طاولة، ولما انتبهت إلى كونهما "سيزان"إن ما أراد أن ينقله لنا .يمسكان بأوراق بيضاء يخفيانها على بعض وربما ..ليس مشهداً للعبة الورق بل مشهد من التزوير المتّفق عليه المتوارث مادام أحد اللاعبين أكبر من الثاني سناً.

وقبل أن يواصل زياد كلامه قاطعته قائلة:

- أم أن عدوى خالد ..هل أنت خبير أيضاً في الرسم ..من أين تعرف كل هذا انتقلت إليك؟

ضحك زياد واقترب منك بعض الشيء وقال:

- إنه ترف ليس في متناول رجل ..ليس هذا ميدان خبرتي على الإطلاق أنا لا أعرف غير قلة قليلة من .بل إن جهلي في الفن سبفاجئك ..مثلي وفي الكتب المختصة ..الرسامين اكتشفت أعمالهم عن طريق المصادفة ولكنني أحب بعض المدارس الحديثة التي تطرح أسئلة من خلال ..غالباً أعمالها..

أحب الفن الذي .الفن للفن لا يقنعني، والجوكندة المحترمة لا تهزّني يضعني في مواجهة وجودية مع نفسي، ولهذا أعجبت بلوحات خالد الأخيرة .إنها أول مرة يدهشني فيها حقاً ..

لقد توحّد مع هذا الجسر لوحة بعد أخرى في فرحٍ ثم في حزن متدرج حتى العتمة، وكأنه عاش يتوقيته يوماً أو عمراً كاملاً..

في اللوحة الأخيرة لا يظل بادياً من الجسر سوى شبحه البعيد تحت خيط كل شيء حوله يختفي تحت الباب فيبدو الجسر مضيئاً، علامة .من الضوء

لا ركائز تشدّ أعمدته إلى أسفل، لا شيء .استفهام معلّقة إلى السماء يحدّه على يمينه ولا على يساره، وكأنه فقد فجأة وظيفته الأولى كجسر!

أترى بداية الصبح عندئذ أم بداية الليل؟ أتراه يحتضر أم يولد مع خيط الفجر؟ إنه السؤال الذي يبقى معلّقاً كالجسر لوحة بعد أخرى، مطارداً بلعبة الظلّ والضوء المستمر، بالموت والبعث المستمر، لأن أي شيء معلّق بين السماء والأرض هو شيء يحمل موته معه.

كنت أستمتع إلى زياد مدهوشاً، وربما اكتشفت شيئاً لم يخطر ببالي لحظة رسم كل هذه اللوحات.

أحقٌّ ما قاله؟

مثل كل النقاد الذين .من المؤكد أن زياد كان يتحدث عن لوحاتي خيراً مني يعطونك شروحاً مدهشة لأعمال فنية قمت بها أنت بكل بساطة، دون أية تساؤلات فلسفية، فيضحكونك إذا كنت فناناً صادقاً وبسيطاً لا تهمّك الرموز وقد يملأونك غروراً وجنوناً، إذا كنت مثل .والنظريات المعقّدة في الفن الكثيرين الذين يأخذون أنفسهم مأخذ الجد، ويبدأون عندئذٍ بالتنظير بمدرسة فنية جديدة!

كان في تحليل زياد حقيقة هامة أدهشتني ولم أنتبه لها من قبل.

لقد كنت أعتقد وأنا أرسم تلك الجسور أنني أرسمك، ولم أكن في الواقع كان الجسر تعبيراً عن وضعي المعلّق دائماً ومنذ الأزل .أرسم سوى نفسي كنت أعكس عليه قلقي ومخاوفي ودواري دون أن أدري .

ولهذا ربما كان الجسر هو أول ما رسمت يوم فقدت ذراعي.

فهل تعني كل هذه الجسور، أن لا شيء تغيّر في حياتي منذ ذلك الحين؟

وقد كان يمكن لزياد أن .ولكن ليس هذا كل شيء ..ربما كان هذا هو الأصح ولكن من المؤكد أنه لن يذهب ..يفلسف أيضاً رمز الجسر بأكثر من طريقة أبعد من الرموز المعروفة، لأن رموزنا تأخذ بعدها من حياتنا فقط، وزياد في النهاية لم يكن يعرف كلّ ثنايا ذاكرتي.

ولم يكن زار تلك المدينة التي تعرف وحدها سرّ الجسور!

تذكّرت حين ذاك رساماً يابانيا معاصراً، قرأت عنه أنه قضى عدة سنوات وهو قال: " ..وعندما سُئل مرة لماذا الأعشاب دائماً .لا يرسم سوى الأعشاب ويوم فهمت الحقل أدركت سر العالم ..يوم رسمت العشب فهمت الحقل ..".

عالمه ..لكلٍ مفتاحه الذي يفتح به لغز العالم .وكان على حق.

وألبرتو مورافيا يوم فهم الرغبة، .همنغواي فهم العالم يوم فهم البحر والحلاج يوم فهم الله، وهنري ميلر يوم فهم الجنس، وبودلير يوم فهم اللعنة والخطيئة.

تراه فهم حقارة العالم وساديّته، عندما كان يجلس محموماً ..وفان غوغ غير حقول عبّاد ..معصوب الرأس أمام تلك النافذة التي لم يكن يرى منها الشمس الشاسعة فلا يملك أمام إرهاقه إلا أن يرسم أكثر من لوحة للمنظر نفسه؟

لأن يده المحمومة لم تكن تقدر على رسم أكثر من تلك الزهور البسيطة الساذجة.

كان يواصل الرسم برغم ذلك، لا ليعيش من لوحاته وإنما لينتقم لها ..ولكنه ولو بعد قرن.
ألم يقل لأخيه تلك النبوءة التي حطّمت بعدها كلّ الأرقام القياسية في ثمن ..سيأتي يوم يفوق فيه ثمن لوحاتي" :(عباد الشمس)ثمن لوحة حياتي".
.هل الرسامون أنبياء أيضاً؟ :تساءلت وأنا أصل إلى هذه الفكرة
"..كل شيء معلّق يحمل موته معه"ثم رحت أربط هذه الفكرة بتعليق زياد

وإذا بي أسأل نفسي، أيّة نبوءة تحمل كلّ اللوحات التي رسمتها في درجة متقدمة من اللاوعي والجنون؟ أمَوْت أم ميلاد تلك المدينة؟ أصمود جسورها المعلقة منذ قرون في وجه أكثر من نشرة جوية وأكثر من ريح مضادّة؟ أم سقوطها جميعاً في دمار هائل مفاجئ، في تلك اللحظة التي لا يفصل غفلة التاريخ ..فيها بين الليل والنهار سوى خيط باهت للغفلة!

كنت تحت تأثير تلك الرؤية المذهلة، عندما جاء صوتك لينتزعني من هواجسي.

قلتِ وأنت توجّهين حديثك إليّ:

- أتدري خالد ..إن من حسن حظك أنك لم تزر قسنطينة منذ عدة سنوات .وإلا لما رسمت من وحيها أشياء جميلة كهذه يوم تريد أن تشفى منها .ستكفّ عن الحلم ..عليك أن تزورها فقط!

طبعاً، لم أكن أدري آنذاك، أنك ذات يوم ستتكلّفين شخصياً بقتل ذلك الحلم، وتوصليني في ما بعد حتى أعتاب قسنطينة مكرهاً.

.كالنبوءة ..تدخّل زياد ليقول كلاماً جاء هذه المرة أيضاً سابقاً لوقته

:قال بشيء من العتاب المهذّب

هنالك أحلام نموت على يدها، .لماذا تصرين على قتل حلم هذا الرجل؟ -
..دعيه سعيداً ولو بوهمه

سألته .لم تعلّقي على كلامه، وكأن أحلامي لم تعد تهمك بالدرجة الأولى فقط:

ما هو حلمك؟ ..وأنت -

:قال

..ربما مدينة ما أيضاً -

هل اسمها الخليل؟ -

:قال مبتسماً

ولا ننتسب لها ..نحن لا نحمل دائماً أسماء أحلامنا ..لا -
.اسمي الخليل ومدينتي اسمها غزة

ومنذ متى لم تزرها؟ -

..أي منذ خمس عشرة سنة تماماً ..منذ حرب حزيران -

:ثم أضاف

يضحكني الذي يحدث لخالد اليوم، كان يقنعني في الماضي يوم كنّا في - لم يكن يفهم أن تطاردني تلك المدينة .الجزائر بالزواج والعيش هناك نهائياً وها هو الآن يصل إلى كلامي من تلقاء .إلى درجة إخراجي من كل المدن .نفسه، ويصبح بدوره مسكوناً بمدينة، مطارداً بها

وكأنه لم يكن يوليها اهتماماً من قبل ..العجيب أنه لم يحدّثني عنها أي مرة !هنالك أشياء شبيهة بالسعادة لا ننتبه لوجودها إلا بعدما نفتقدها .

فقد كنت أعي تدريجياً أنني كنت سعيداً معك ..ربما كان ذلك ما حدث لي وقبل أن يتحول حبنا من ..وقبل مجيء زياد ..قبل تلك العطلة الصيفية عشق ثنائي عنيف إلى حب مثلث الأطراف كل زواياه متساوية، ومن لعبة شطرنج يحكمها لاعبان متقابلان، ويملأ الحب فيها كل المربعات السوداء

والبيضاء، بقانون المد والجزر العشقي، إلى لعبة طاولة، نجلس حولها نحن الثلاثة، بأوراقنا المقلوبة، وأحزاننا المقلوبة، بنبضات قلبنا المشتركة، بذاكرتنا المشتركة، نتربّص ببعضنا ونخلق قوانين جديدة للحب.. نزوّر الأوراق التي نملك النسخ نفسها منها، نحتال على منطق الأشياء لا ليربح أحدنا الجولة، وإنما لكي لا يكون بيننا من خاسر، وحتى تكون نهايتنا أقلّ وجعاً من البداية.

ولكنه لم يكن. كان واضحاً أن زياد كان يشعر أنني أحبك بطريقة أو بأخرى ولذا كان ينساق إلى حبك دون تفكير ودون. يعي جذور ذلك الحب ومداه شعور بالذنب.

لم يكن لأحدنا وعي كامل لينتبه إلى أن العشق اسم ثنائي لا مكان فيه "برمودا"ولذا عندما حوّلناه إلى مثلث، ابتلعنا كما يبتلع مثلث. لطرف ثالث كل البواخر التي تعبره خطأ؟

كيف وصلنا إلى هنا.

أيّ ريح حملتنا إلى هذه الديار الغريبة عن طقوسنا؟ أيّ قدر بعثرنا ثم أعاد جمع أقدارنا المتناقضة المبعثرة، وأعمارنا وتواريخنا المتفاوتة، ومعاركنا وأحلامنا المتباعدة، وأوقفنا هنا، أطرافاً في معركة نخوضها مع بعضنا ضد بعضنا دون وعي؟

بعد أشهر قرأت بين أوراق زياد خاطرة، أدهشتني بتطابقها مع أحاسيسي هذه، كتب فيها:

" عشقنا جولة أخرى خسرناها في زمن المعارك الفاشلة، فأيّ الهزائم أكثر إيلاماً إذن؟
مقدراً كان كلّ الذي حصل.
شعبين كنا لأرض واحدة.
ونبيين لمدينة واحدة.
وها نحن قلبان لامرأة واحدة.
(هل يسعنا العالم معاً؟) .كل شيء كان معدّاً للألم.
رصاصة مستديرة. ها نحن نتقاسم كبرياءنا رغيفاً عربياً مستديراً كجرحنا أطلقوها على مربع أحمر، يتدرب فيه القدر على إطلاق الرصاص.. الرأس.. حتى تصل مركز الموت ..على دوائر سوداء تصغر تدريجياً كالدوّار
حيث الرصاصة لا تخطئ.
حيث الرصاصة لا ترحم.
"..وحيث سيكون قلب أحدنا

وكنت. كان زياد في تلك الأمسيات الشتائية، يسهر أحياناً في غرفته ليكتب أرى في ذلك علامة لا تخطئ..

لا بد أن يكون عاشقاً ليعود إلى الكتابة بهذه الشراهة، هو الذي لم يكتب شيئاً منذ عدة سنوات.

كنت أبتسم أحياناً، وصوت موسيقى خافتة ينبعث من غرفته حتى ساعة متأخرة من الليل.

كأن زياد كان يريد أن يملأ رئتيه بالحياة، أو كأنه لم يكن يثق بها تماماً. ويخاف إن هو نام أن تسرق منه شيئاً.

كان يستمع دائماً إلى الأشرطة نفسها التي لا أدري من أين أحضرها، والتي لم أكن مولعاً بها أنا على وجه التحديد، كالموسيقى الكلاسيكية.. وشريط لفيفالدي وآخر لتيودوراكيس.

وكنت أقول لنفسي وأنا أقضي أحياناً سهرة كاملة بمفردي أمام التلفزيون:

" انتهى جنوني وبدأ جنونه!". وهنالك جنون الشتاء ..هنالك جنون الصيف .إنه يعيش جنونه أيضاً

كيف يمكن لي أن أعرف درجات جنونه هذا؟ من أين آتي بمقياس للزلزال، أعرف منه ما يحدث في أعماقه بالتحديد؟ ..ولكن

بينما يعلّق كيف يمكن ذلك، ونوباته كتابات سرية لا يدري بها غير الورق. وتفضحني ..جنوني على الجدران إحدى عشرة لوحة تشهد ضدي.

فهل انتهى جنوني حقاً؟

أصبح أحاسيس مرضيّة أصبح فقط جنوناً داخلياً لا علاقة له بالإبداع ..لا أبذّرها هباءً في الغيرة واليأس.

كان إذا غيّر زياد بدلته، شعرت أنه يتوقع قدومك، وإذا جلس ليكتب فهو يكتب لك، وإذا ترك البيت فهو على موعد معك..

نسيت في زحمة غيرتي، حتى الأسباب التي جاء من أجلها زياد إلى باريس، ولقاءاته ..وهواجسه الأخرى.

ثم جاء ذلك السفر الذي كدت أنساه ..

فقد كان عليّ أن أترككما ربما كانت تلك أكثر تجاربي ألماً على الإطلاق. وربما غالباً في بيتٍ واحد هو بيتي .عشرة أيام كاملة معاً في مدينة واحدة نظراً لصعوبة لقائكما خارج البيت ..

سافرت يومها وأنا أحاول أن أقنع نفسي أنها فرصة لنا جميعاً، لنضع شيئاً من الترتيب في علاقتنا، وأنه كان لابد لأحدنا أن يتغيّب لتحسم هذه الأمور الغامضة بيننا نهائياً.

طبعاً، لم أكن مقتنعاً في أعماقي بهذا المنطق، أو على الأقل بهذا القدر العنيد الذي جعل القرعة تقع عليّ.

ولكن ما .وكان ذلك يؤلمني كثيراً .فمن الواضح أن القدر كان منحازاً لكما الذي كان أشدّ إيلاماً لي:

أن أدري أنك مع رجل آخر، أم أن يكون ذلك الرجل هو زياد لا سواه، أم أن تتم خيانتي في بيتي في غرف لم أتمتع بك فيها؟

وإلى أي حدّ سيذهب هو معك؟ وهل ..إلى أيّ حدّ ستذهبين معه وكل ما جمعنا يوماً من قيم؟ ..ستوقفه ذاكرتنا المشتركة

ولم أقل لك الأهم ..قلت لكِ الكثير عن زياد.

كان زياد يوماً خليّتي السرية، أوراق انتمائي السرية.

فهل .كان هزائمي وانتصاراتي، حججي وقناعاتي، كان عمراً سرّياً لعمرٍ آخر سيخونني زياد؟

كنت قد بدأت أعتب عليه، وربما أحقد عليه مسبقاً.

نسيت في جنون غيرتي، أنني لم أفعل شيئاً غير ذلك معك، أنا الذي لرجل ..تنكّرت أيضاً لسي الطاهر، لرجلٍ كان يوماً قائدي، وكان يوماً صديقي أودعك عندي وصيّة ذات يوم ومات شهيداً.

من منا الأكثر خيانة إذن؟

أم أنا الذي لم أنفّذها لأنني ..هو الذي قد يضع أحلامه ورغباته حيّز التنفيذ لم أجد فرصة لذلك؟

أم هو ..أنا الذي أنام وأصحو معك من شهور، وأغتصبك حتّى في غفوتي الذي ستكونين له بإرادتك؟

تغريك وتربكك، تملأك .هنالك مدن كالنساء، تهزمك أسماؤها مسبقاً
.وتفرغك، وتجرّدك ذاكرتها من كل مشاريعك، ليصبح الحب كل برنامجك

وتتناول ..لتتجول وتنام وتقوم فيها .لم تخلق لتزورها بمفردك ..هنالك مدن
.فطور الصباح وحيداً

..هنالك مدن جميلة كذكرى، قريبة كدمعة، موجعة كحسرة

!كم تشبهك ..هنالك مدن

غرناطة؟ ..فهل يمكن أن أنساك في مدينة اسمها

مع ..كان حبّك يأتي مع المنازل البيضاء الواطئة، بسقوفها القرميدية الحمراء
مع الجداول التي تعبر ..مع أشجار الياسمين الثقيلة ..عرائش العنب
.مع ذاكرة العرب ..مع الشمس ..مع المياه ..غرناطة

كان حبك يأتي مع العطور والأصوات والوجوه، مع سمرة الأندلسيات
.وشعرهن الحالك

مع قصائد لوركا الذي ..مع قيثارة محمومة كجسدك ..مع فساتين الفرح
.مع حزن أبي فراس الحمداني الذي أحبه ..تحبينه

..فهل كل المدن العربية أنت ..كنت أشعر أنك جزء من تلك المدينة أيضاً
وكل ذاكرة عربية أنت؟

تحملين طعماً مميزاً لا ..مر الزمان وأنت مازلت كمياه غرناطة، رقراقة الحنين
.علاقة له بالمياه القادمة من الأنابيب والحنفيات

مر الزمن، وصوتك مازال يأتي كصدى نوافير المياه وقت السّحر، في ذاكرة
القصور العربية المهجورة، عندما يفاجئ المساء غرناطة، وتفاجئ غرناطة
..نفسها عاشقة لملك عربي غادرها لتوه

!وكان آخر عاشق عربي قبّلها ."أبا عبد الله"كان اسمه

تراني كنت ذلك الملك الذي لم يعرف كيف يحافظ على عرشه؟
تراني أضعتك بحماقة أبي عبد الله، وسأبكيك يوماً مثله؟
ابك مثل النساء " :كانت أمه قد قالت له يوماً وغرناظة تسقط في غفلة منه
"..مُلكاً مُضاعاً، لم تحافظ عليه مثل الرجال

أسألك؟ ..وعلى من أُعلن الحرب .فهل حقاً لم أحافظ عليك؟

.وأنتما ذاكرتي وأحبّتي ..على مَنْ
.وأنت مدينتي وقلعتي ..على مَنْ

فلِمَ الخجل؟

حاكم عربي واحد، لم يبكِ منذ أبي عبد الله ..هل هناك ملك عربي واحد مدينة ما؟

!هذا زمن السقوط السريع ..فاسقطي قسنطينة

.هذا ما لن أعرفه أبداً ..هل سقطت حقاً يومها

ولكن أعرف فقط تاريخ سقوطك الأخير، سقوطك النهائي الذي كنت شاهداً عليه بعد ذلك.

فأيّ جنون كان أن تزيد المسافات من حبّك، وأن تأخذي ملامح تلك المدينة وإذا بي كمجنون أجلس كلّ ليلة لأكتب لك رسائل كانت تولد من .أيضاً كنت أقصّ لك فيها تفاصيل يومي .دهشتي وشوقي وغيرتي عليك وانطباعاتي في مدينة تشبهك حد الدهشة.

:كتبت لك مرة

.في بيتٍ كجسدك، مرسوم على طراز أندلسي .أريد أن أحبك هنا"
أريد أن أهرب بك من المدن المعلّبة، وأسكن حبّك بيتاً يشبهك في تعاريج .أنوثتك العربية

تظلّل حديقة .بيتاً تختفي وراء أقواسه ونقوشه واستداراته ذاكرتي الأولى .شجرة ليمون كبيرة، كتلك التي يزرعها العرب في حدائق بيوتهم بالأندلس

أريد أن أجلس إلى جوارك، كما أجلس هنا على حافة بركة ماء تسبح فيها .سمكات حمراء، وأتأملك مدهوشاً

أستنشق جسدك، كما أستنشق رائحة الليمون البلدي الأخضر قبل أن .ينضج

"..أمام كلّ شجرة أمرّ بها، أشتهيك ..أيتها الفاكهة المحرّمة

هل يمكن لكاتبة أن تقاوم الكلمات؟ كنت أريد ..كم من الرسائل كتبت لك أن أطوقك بالحروف، أن أستعيدك بها، أن أدخل معكما حلقة الكلمات المغلقة في وجهي بتهمة الرسم فقط، فرحت أخترع من أجلك رسائل لم رسائل انفجرت في ذهني فجأة بعد خمسين سنة من .تكتب قبلك لامرأة

.الصمت

تراني بدأت يومها أكتب كتابي هذا دون أن أدري، بعد أن انتقل عشقي لك قبلك كتبت لنساء .إلى هذه اللغة التي كنت أكتب بها رسائل لأول مرة عبرن حياتي أيام الشباب والمراهقة.

.لم أكن أجهد نفسي آنذاك في البحث عن الكلمات
ولا خجل ..كانت اللغة الفرنسية تستدرجني تلقائياً بحريتها للقول دون عقد .

أتعلم التحايل على هيبتها، أستسلم .معك رحت أكتشف العربية من جديد لإغرائها السري، لإيحاءاتها.

..لهاء النشوة ..لحاء الحرقة ..لتاء الأنوثة ..رحت أنحاز للحروف التي تشبهك ..للنقاط المبعثرة على جسدها خال أسمر ..لألف الكبرياء

..هل اللغة أنثى أيضاً؟ امرأة ننحاز إليها دون غيرها، نتعلم البكاء والضحك وعندما تهجرنا نشعر بالبرد وباليتم دونها؟ .والحب على طريقتها

هل شعرت بعقدة يتمي وخوفي من مواسم .تراك قرأت تلك الرسائل؟ الصقيع؟

أأدهشتك أم تراها جاءت في غير وقتها؟

كان لا بد أن أكتبها لك قبل أن يتسلل زياد إليك من كل المسام، ويصبح لغتك.

فهل تفيد رسائل الحب عندما تأتي متأخرة عن الحب؟

ألم يحب سلفادور دالي وبول إيلوار المرأة نفسها؟

ليستعيدها ..وأروع الأشعار ..وعبثاً راح بول إيلوار يكتب لها أجمل الرسائل ..ولكنها فضّلت جنون دالي المجهول آنذاك .من دالي الذي خطفها منه وظلّت حتى موتها منحازة لريشة دالي فقط الذي .على قوافي بول إيلوار تزوجها أكثر من مرة بأكثر من طقس، ولم يرسم امرأة غيرها طوال حياته.

الواقع أن الحب لا يكرر نفسه كل مرة، وأن الرسامين لا يهزمون الشعراء حتى عندما يحاولون التنكّر في ثياب الكلمات ..دائماً.

***

عندما عدت بعد ذلك إلى باريس، كان في الحلق غصّة لازمتني طوال تلك الأيام، وأفسدت عليّ متعة نجاح ذلك المعرض واللقاءات الجميلة أو المفيدة التي تمّت لي أثناءه.

كان هناك شيء داخلي ينزف دون توقّف. عاطفة جديدة للغيرة والحقد الغامض الذي لا يفارقني ويذكّرني كلّ لحظة أن شيئاً ما يحدث هناك. أمدّني بالبريد الذي استقبلني زياد بشوق (أكان حقاً سعيداً بعودتي؟) وصل أثناء غيابي وبورقة سجّل عليها أسماء الذين طلبوني هاتفياً خلال تلك الأيام.

كنت أدري أنني لن أجد اسمك فيها. أمسكتها دون أن ألقي عليها نظرة.

ثم راح يسألني عن المعرض.. عن سفرتي وأخباري العامة، ويحدثني عن آخر التطورات السياسية بشيء من القلق، الذي فسّرته بارتباكه لحظتها أمامي لسبب أو لآخر.

كنت أستمع إليه وأنا أتفقد بحواسي ذلك البيت كما في خرافة الغول الذي كان كلما عاد إلى بيته، راح يتشمّم الأجواء بحثاً عن إنسان قد يكون تسلّل إلى مغارته أثناء غيابه..

كنت أشعر أنك مررت بهذا البيت. إحساس غامض كان يؤكد لي ذلك، دون أن أجد في الواقع حجة تثبت لي شكوكي.

ولكن هل تهم الحجّة؟.. وأين يمكن أن تلتقيا في مكان غير هذا؟ وإذا التقيتما هل ستكتفيان بالحديث؟ هل يعقل أن تمر عشرة أيام دون أن تلتقيا..

وكان زياد عاشقاً مجوسياً يعبد اللّهب ..كنتِ منجماً للكبريت!

أنت المرأة التي يحلم الرجال أن يحترقوا بها ولو وهماً؟ فهل كان يمكن أن يصمد طويلاً في وجه نيرانك..

رحت أبحث في ملامح زياد عن فرحٍ ما، عن سعادةٍ ما أجد فيها الحجة القاطعة على أنك كنت له.
ولكن لم يبدُ على وجهه أي شعور خاص، غير القلق.

فجأة حدثني عنك قال:

- لقد طلبت منها أن تأتي غداً لنتناول معاً غداءنا الأخير..

صحت بشيء من الدهشة:

- لماذا الأخير؟

قال:

- لأنني سأسافر الأحد..

- ولماذا الأحد؟

قلتها وأنا أشعر بشيء من الحزن والفرح معاً.

أجاب زياد:

- لم يكن مقرراً أن أسافر الأحد.. لأنني يجب أن أعود. كنت أنتظر فقط عودتك لأنني قضيت شهراً كاملاً ولا بدّ أن أعود. أبقى هنا أكثر من أسبوعين..

ثم أضاف بشيء من السخرية:

- قبل أن أتعود على الحياة الباريسية.

تراك أنتِ الحياة الباريسية التي كان يخاف أن يتعود عليها؟ تراه كان يهرب مرة أخرى من حبٍ آخر أم أن مهمته قد انتهت أخيراً فلم يعد أمامه غير الرحيل؟

مر يوم السبت وسط مشاغل عودتي، وانشغال زياد بترتيب تفاصيل سفره.

ولكن كان يوم الأحد يتربص. حاولت أن أتحاشى الجلوس إليه ذلك المساء بنا ويضعنا أخيراً وجهاً لوجه نحن الثلاثة في ذلك الغداء الحاسم.

فسّرتها على طريقتي بأنها شعور بالذنب، يومها قابلتني بحرارة لم أتوقعها. ألم أقدم لك حباً على طبق من شعر على طاولة هي.. (أو ربما بالامتنان) بيتي؟!

وكأنك أستاذة قدم ثم شكرتني على رسائلي، وأبديت إعجابك بأسلوبي.. لها تلميذ نصّاً إنشائياً.

أزعجني شكرك العلني، وشعرت أنك حدّثت زياد عنها وربما أريته إياها أيضاً.

كنت على وشك أن أقول شيئاً عندما واصلت:

هل غرناطة جميلة حقاً إلى هذا الحد؟ وهل ..تمنيت لو كنت معك هناك -
أليس هذا اسم ضيعته ..(خوانتا فاكيروس)زرت حقاً بيت غارسيا لوركا في
..كما قلت؟ حدّثني عنه

وجدت في طريقتك في بدء الحديث معي من الهوامش، شيئاً مثيراً
.للدهشة، وربما للتفكير أيضاً

أهذا كل ما وجدت قوله بعد كل الزوابع التي مرّت بنا، وبعد عشرة أيام من
الجحيم الذي عشته وحدي؟

لا أدري كيف خطر عندئذٍ في ذهني شهد لفيلم شاهدته يوماً عن حياة
..لوركا

:قلت لك

أتدرين كيف مات لوركا؟ -

:قلتِ

..بالإعدام-

:قلت

وكان يمشي عندما أطلقوا ..وضعوه أمام سهل شاسع وقالوا له امش ..لا -
.خلفه الرصاص، فسقط ميتاً دون أن يفهم تماماً ما الذي حدث له

فلم يكن لوركا يخاف الموت، كان يتوقّعه، ويذهب إليه .إنه أحزن ما في موته
ولكن كان يكره فقط أن ..مشياً على الأقدام كما نذهب لموعدٍ مع صديق
!تأتيه الرصاصة من الظهر

رفع عينيه نحوي، .شعرت آنذاك أن زياد تلقي كلماتي كرصاصة في الصدر
.أحسسته على وشك أن يقول شيئاً ولكنه صمت

.كنا نفهم بعضنا دون كثير من الكلام

فقد كان إيلامه يعزّ عليّ أكثر من .ندمت بعدها على إيلامي المتعمد له
ولكن كان هذا أقل ما يمكن أن أقوله له بعد كل ما عشته من عذاب .ألمك
.بسببه

.وربما كان أكثره أيضاً

تحول غداؤنا فجأة إلى وجبة صمت مربك تتخلله أحيانا أحاديث مفتعلة، ولكن عبثاً .وربما للمراوغة ..كنتِ تخترعينها أنتِ بفطرةٍ نسائية لترطيب الجو .

.ولم يعد هناك من أمل لترميمه .كان هناك شيء من البلّور قد انكسر بيننا

:سألتكِ بعدها

هل ستأتين معي لنرافق زياد إلى المطار؟ -

:أجبتِ

قد ألتقي بعمي هناك، إذ أنه يحدث أن ..لا يمكن أن أذهب إلى المطار ..لا- وأكره ..ثم إنني أكره المطارات .يمر بمكتب الخطوط الجوية الجزائرية لقد .الذين نحبهم لا نودعهم، لأننا في الحقيقة لا نفارقهم .مراسيم الوداع .وليس للأحبة ..خلق الوداع للغرباء

نحن لا "كانت تلك إحدى طلعاتك العجيبة المدهشة كقولك السابق مثلاً نكتب إهداءً سوى للغرباء وأما الذين نحبهم فهم جزء من الكتاب وليسوا في حاجة إلى توقيع في الصفحة الأولى.."

ولماذا الوداع؟

هل هناك من ضرورة لوداع آخر؟

.كنت أراك طوال وجبة الغداء تلتهمينه بنظراتك ولا تأكلين شيئاً سواه

تتوقّفان طويلاً عند كلّ شيء فيه، .كانت عيناك تودّعان جسده قطعة قطعة .لزمن لن يبقى لك فيه سوى الصور ..وكأنك تختزنين منه صوراً عدة

وكان هو يتحاشى نظراتك، ربما مراعاة لي، أو لأن كلماتي الموجعة أفقدته وجعلته يحوّل نظراته الحزينة إلى أعماقه .ورغبة الأكل كذلك ..رغبة الحب .وإلى ما بعد السفر

متشعّب .وكنت أنا لا أقل حزناً عنكما، ولكن حزني كان فريداً وفرديّاً كخيبتي .الأسباب غامضاً كموقفي من قصّتكما العجيبة
فقد كنت أطمع في عودتك .وربما زاده رفضك مرافقتي إلى المطار توتراً لأفهم منك دون كثير من الأسئلة، إلى أيّ .معي على انفراد لأخلو أخيراً بك مدى كنت قادرة على محو تلك الأيام من ذاكرتك، والعودة إليّ دون جروح أو ..خدوش

ولكنني كنت .وربما جسدك أيضاً .كنت أدري أن قلبك قد أصبح منحازاً إليه وأعتقد أنك في النهاية ستعودين إليّ، لأنه لن يكون .أثق بمنطق الأيام وحنينك الأول لأبوة كنت أنا نسخة ..ولأنني ذاكرتك الأولى ..هناك سواي .أخرى عنها

.فرحت أراهن على المنطق وأنتظرك

..رحل زياد

.ورحت أستعيد تدريجياً بيتي وعاداتي الأولى قبله

فقد كنت تعوّدت على وجوده معي، وكنت .كنت سعيداً ولكن بمرارة غامضة أشعر بشيء من الوحدة المفاجئة وهو يتركني وحدي لموسم الشتاء؛ .لتلك الأيام الرمادية، والسهرات الطويلة المدهشة

.وفرغ البيت منه فجأة كما امتلأ به ..رحل زياد

لم يبق سوى تلك الحقيبة التي قد تشهد على مروره من هنا، والتي تركها أسفل الخزانة بعدما جمع فيها أوراقه وأشياءه، والتي رأيت في بقائها .عندي مشروع عودة محتملة، قد تكونين أنت أحد أسبابها

ولكن لابد أن أعترف أن سعادتي كانت تفوق حزني، وأنني كنت أشعر أنني .أستعيدك وأنا أستعيد ذلك البيت الفارغ منه

كنت أشعر أن هذا البيت سيمتلئ أخيراً بحضورك بطريقة أو بأخرى، وأنني .سأخلو فيه بك وأنا أخلو لنفسي

..تحبين طريقة ترتيبه ..ألم تعترفي مراراً أنك تحبينه .سأعيدك إليه تدريجياً منظر نهر السين الذي يطلّ عليه؟ ..تحبين ضوءه

ويجعل ..أن ترى كنت تحبين فقط زياد، وحضوره الذي كان يؤثث كل شيء !الأشياء أحلى

كنت أتمسك به، أستنجد به، ولكن صوتك .كنت أتوقع هاتفك ..في البدء .كان ينسحب أيضاً تدريجياً أمام دهشتي

كان هاتفك يأتي مرة كل أسبوع، ثم كلّ أسبوعين، ثم نادراً، قبل أن ينقطع نهائياً.

وكنت أشعر أحياناً أنك تطلبينني مجاملة. كان يأتي شحيحاً كقطرات الدواء فقط، أو عن ضجر، أو ربما بنية غير معلنة لمعرفة أخبار زياد.

تراه كان يكتب إليك مباشرة بعنوان البيت، "وكنت أنا أثناء ذلك، أتساءل ولهذا لم تكوني في حاجة إلى أن تسأليني مرة عن أخباره؟

أم أنه كعادته أخبرك مسبقاً أنه لن يكتب إليك، وأن عليك مثله أن تتعلمي النسيان. فرحت تطبّقين تلك العقوبة عليّ أيضاً!.

كان زياد يكره أنصاف الحلول في كل شيء.

ولذا كان يكره أيضاً ما كان يسمّيه. كان متطرفاً كأي رجل يحمل بندقية "أنصاف العقوبات"أو "أنصاف الملذات"سابقاً!

فإما أن يحب ويتخلى عندئذٍ عن كل شيء. كان رجل الاختيارات الحاسمة وعندها لن يكون. ليبقى مع من يحب، أو يرحل لأن الذي ينتظره هناك أهم من مبرر لتعذيب النفس بالأشواق والذكرى.

تساءلت طويلاً بعد ذلك، ماذا عساه اختار؟

تراه تصرّف هذه المرة أيضاً كما تصرف منذ سنوات في الجزائر مع تلك الفتاة التي كان على وشك الزواج منها..

وربما فقط لأنك أنت، ولأن الذي ..أم أنه تغيّر هذه المرة، ربما بحكم العمر حدث بينكما لم يكن قصة عادية تحدث بين شخصين عاديين.

كنت أحاول أحياناً استدراجك للحديث عنه، عساني أصل إلى نتيجة والتأقلم معها ..تساعدني على تحديد القواعد الجديدة للعبة.

كان من الواضح أنك تحبّين أن أحدثك عنه، ولكن. وكنت تراوغينني كعادتك دون أن تبوحي لي بشيء.

تمزجين بين الجد والمزاح، وبين الحقيقة. كنت تناقضين نفسك كل لحظة والكذب، في محاولة للهروب من شيء ما..

كان كلامك كذباً أبيض أستمع إليه بفرشاتي، وألوّن جمله بألوان أكثر تناسباً مع كل ما أعرفه عنك.

والرمادي، بالقلق ..تعودت أن أكسو ما تقولينه لي بالبنفسجي، بالأزرق الذي يخيم على كل ما تقولينه.

تعودت أن أجمع حصيلة ما قلته لي، وأصنع منها حواراً لرسوم متتالية على ورق، أضع عليها أنا التعليقات المناسبة لحوار آخر وكلام لم نقله.

لعلني وقتها بدأت أكتشف تدريجياً تلك العلاقة الغامضة التي بدأت تربطك في ذاكرتي بذلك اللون الأبيض.
لم يكن كلامك وحده كذباً أبيض.

كنت امرأة تملك قدرة خارقة على استحضار ذلك اللون في كل أشكاله وأضداده. أو لعلني وقتها أيضاً بدأت دون أن أدري وبحدس غامض أخرج هذا اللون نهائياً من ألوان لوحاتي، وأحاول الاستغناء عنه، في محاولة مجنونة لإلغائك.

منذ ذلك اليوم الذي رأيتك فيه طفلة تحبو بينما كان لوناً متواطئاً معك غمزة. أثوابها الطفولية البيضاء تجفّ فوق خشبات منصوبة فوق كانون مسبقة للقدر الذي كان يُهيّأ لي معك على نارٍ باردة، أكثر من ثوب أبيض.

فكم من كان الأبيض لوناً مثلك يدخل في تركيب كلّ الألوان وكل الأشياء. وكم من اللوحات سألغي إن أنا الأشياء يجب أن أدمّر قبل أن أنتهي منه قاطعته!

ولكني كنت في أن أنتهي منك (..والألوان)كنت أحاول بكل الأشكال. الحقيقة أزداد تورّطاً في حبك.

في لحظة يأس ..اعترفت لك مرة على الهاتف:

..حبك صحراء من الرمال المتحركة، لم أعد أدري أين أقف فيها ..أتدرين

أجبتني بسخريتكِ الموجعة:

فكل محاولة للخلاص في هذه الحالات، المهم ألا تتحرك ..قف حيث أنت - إنها النصيحة التي يوجهها أهل ستجعل الرمال تسحبك أكثر نحو العمق. الصحراء لكل من يقع في بالوعة الرمال المتحركة ..كيف لا تعرف هذا؟!

ربما لأنني أحب سخريتك الذكية ولكنني ضحكت ..يومها كان لا بد أن أحزن. حتى عندما تكون موجعة، فنحن قلما نلتقي بامرأة تعذّبنا بذكاء.

وربما لأنك كنتِ تزفّين لي احتمال موت كنت أراه جميلاً بقدر ما هو حتمي..

الطير الحر ما " "تذكّرت مثلاً شعبياً رائعاً، لم أكن قد تنبّهت له من قبل
."!ما يتخبّطش ..ينحكمش، وإذا انحكم

وكنت أشعر آنذاك أنني ذلك الطائر المكابر الذي ينتسب إلى سلالة الصقور والنسور التي لا يسهل اصطيادها، والتي عندما تُصطاد، تصبح شهامتها في أن تستسلم بكبرياء، دون أن تقاوم أو تتخبّط كما يفعل طائر صغير وقع في فخّ.

:عندما أجبتك يومها بذلك المثل الشعبي، صحتِ دهشة

!لم أكن أعرفه ..ما أجمله -

:أجبتك وسط تنهيدة

إنه زمن ..ليس هذا زمناً للصقور ولا للنسور ..لأنك لم تعرفي الرجال -
!للطيور المدجّنة التي تنتظر في الحدائق العمومية

وها أنا أذكره اليوم مصادفة، وأستعيد .ست سنوات مرّت على ذلك الحديث
:نصيحتك الأخيرة

."!المهم ألا تتحرك ..قف حيث أنت"

والرمال ..كيف صدّقت يومها أنك كنت تخافين عليّ من العواصف والزوابع
أنت التي أوقفتني هنا في مهب الجرح عدة سنوات، ورحت .المتحركة
وتحرّضين القدر ..تنفخين حولي العواصف وتحركين أمواج الرمال تحت قدميّ
.عليّ

..لم أتحرك أنا

.ظللت واقفاً بحماقة عند عتبات قلبك لسنوات عدة

كنت اجهل أنك تبتلعينني بصمت، أنك تسحبين الأرض من تحت قدمي
.وأنني أنزلق نحو العمق

.كنت أجهل أن زوابعك ستعود كل مرة، وحتى بعد غيابك بسنوات لتغتالني

وسط الأعاصير المتأخرة يأتي كتابك ليثير داخلي زوبعة من ..واليوم
.الأحاسيس المتطرّفة والمتناقضة معاً

..قلتِ "منعطف النسيان"

أسألك؟..من أين يأتي النسيان

***

مازلت أذكر ذلك اليوم من فبراير، عندما جاء صوت سي الشريف على الهاتف، ليدعوني إلى العشاء في منزله.

فهمت منه فقط أنه دعا .فوجئت بدعوته، ولم أسأله حتى عن مناسبتها آخرين للعشاء، وأننا لن نكون بمفردنا.

أعترف أنني كنت سعيداً ومرتبكاً بفرحي.

خجلت من نفسي لأنني منذ لقائنا الأخير لم أطلبه سوى مرة واحدة بمناسبة العيد، برغم إلحاحه عليّ أن أزوره ولو مرة في المكتب، لنأخذ قهوة معاً.

فجأة، أخذت قراراً ربما كان أحمق.

قررت أن آخذ إحدى لوحاتي لأهديها إياه.

ألم يهدني اليوم تلك الفرحة التي لم أعد أتوقعها؟

سأثبت له دون كلام، أن لوحاتي لا تتداول إلا بعملة القلب وليس بالعملات المشبوهة.

بعد ذلك وجدت لهذه الفكرة حسنة أخرى.

سأكون حاضراً في ذلك البيت الذي تسكنينه ولو معلّقاً على جدار.

في اليوم التالي، حملت لوحتي وذهبت إلى ذلك العشاء.

كان القلب يركض بي، يسبقني في ذلك الحي الراقي بحثاً عن تلك البناية. أم قلبي ..عيناي :حتى أنني لم أعد أذكر من اهتدى إلى بيتك أولاً.

..وفي المصعد..عندما دخلتها شعرت أن عطرك كان يتربص بي عند المدخل
.وأنك كنت هنا تقودين وجهتي بعطرك فقط

رحبّ بي بعناق حار، زادت حرارته رؤية .استقبلني سي الشريف عند الباب
.تلك اللوحة الكبيرة التي كنت أحملها بصعوبة

تردد قبل أن .بدا لي في تلك اللحظة أنه لم يصدق تماماً أن تكون هدية له
إنها هدية لك ..هذه لوحة مني" :يأخذها مني، لكنني استوقفته لأقول له
"..

وراح ينزع عنها الغلاف على .رأيت فجأة على وجهه فرحاً وغبطة نادرة
.عجل، بفضول من ربح شيئاً في اليانصيب

:ثم صاح وهو يرى منظر تلك القنطرة معلّقة وسط الضباب إلى السماء

!هذي قنطرة الجبال -

:وقبل أن أقول شيئاً عانقني وقال وهو يربت على كتفي

!تعيش ..تعيش آ حبيبي ..يعطيك الصحة -

لم أتمالك نفسي من تقبيله بالحرارة نفسها، لأنه أهداني شيئاً ربما لم
.ينتبه لثمنه عندي

رافقني سي الشريف إلى الصالون وهو يمسك ذراعي بيد، ويمسك
واتجه بي نحو ذلك المجلس ليقدّمني إلى ضيوفه، .لوحتي باليد الأخرى
أو ربما على علاقتنا وصداقتنا .كأنه يريد أن يشهد الجميع على امتنانه لي
..الوطيدة، التي كان شائعاً عني أنني لا أجود بها في هذا الزمن المبتذل
.إلا على القلّة

لفظ أمامي عدة أسماء لعدة وجوه، صافحت أصحابها وأنا أتساءل من يكون
.معظمهم

لم أكن أعرف منهم غير واحد أو اثنين، وأما البقية فكانوا ما أسمّيه النبتات
كما يسمي الفرنسيون تلك النبتة التي ."النبتات السيئة"أو ..الطفيلية
تنمو من اللاشيء، في أي حوض أو أية تربة، وإذا بها تمد جذورها فجأة
.وتضاعف أوراقها وفروعها، حتى تطغى وحدها ذات يوم على كل التربة

لا أدري لماذا كنت دائماً أملك الحاسة القوية التي تجعلني أتعرّف على هذا
فهم على اختلاف أشكالهم وهيآتهم .النوع من المخلوقات أينما كانوا
ومناصبهم يمتلكون مظهراً مشتركاً يفضحهم، بذلك الزيف والرياء المفرط

وبذلك ..وبمظاهر الغنى والوجاهة الحديثة التي لبسوها على عجل القاموس المشترك في الحديث الذي يوهمك أنهم أهم مما تتوقع.

نظرة خاطفة واحدة، وبعض الجمل المتبادلة فقط، كانت كافية لأستنتج الذي يضم نخبة من وجهاء المهجر، الذين "الراقي"نوعية ذلك المجلس والصفقات السرية ..يحترفون الشعارات العلنية.

..من الواضح أنني كنت في كوكب ليس كوكبي

راح سي الشريف يطلع ضيوفه على تلك اللوحة بشيء من الفخر والمودة ..معاً

:والتفت إليّ ليقول لي

كنت للذكرى أريد أن .لقد حققت لي اليوم أمنية عزيزة عليّ ..أتدري خالد _ كوشة "لا تنس أنك صديق طفولتي وابن حيّي .يكون في بيتي شيء لك أتذكر ذلك الحيّ؟ .."الزيات

كان فيه شي من هيبة قسنطينة وحضورها، .كنت أحب سي الشريف شيء من الجزائر العريقة وذاكرتها، شيء من سي الطاهر، من صوته ..وطلّته

ولكن حتى .وكان في أعماقه شيء نقيّ لم يلوّث بعد برغم كل شيء ..متى

وكنت أخاف أن يتسلل إليه .كنت أشعر أنه محاط بالذباب وبقذارة المرحلة العفن حتى العمق ذات يوم.

أخاف عليه، وقد أخاف على ذلك الاسم الكبير الذي يحمله إرثاً من سي الطاهر من التدنيس.

ترى أكان شعوري ذلك حدساً، أم استنتاجاً منطقياً لذلك الواقع الموجع الذي كنت أراه محاطاً به؟

فهل سينجو سي الشريف من هذه العدوى؟ وماذا عساه أن يختار؟ في ولا حياة للأسماك الصغيرة ..مع أي تيار وضد أي تيار ..أية بحيرة سيسبح المعزولة في هذه المياه العكرة التي تحكمها أسماك القرش؟

كان الجواب أمامي ولم أنتبه في تلك السهرة، أنّ سي الشريف قد اختار بحيرته العكرة وانتهى الأمر.

قال جاري الأنيق خلف سيجاره الكوبي:

- لقد كنت دائماً معجباً برسومك.. وطلبت أن يتصلوا بك لتساهم في بعض مشاريعنا.. ولكنني لا أذكر أنني شاهدت لك أي لوحات عندنا.

ولا عن أية مشاريع كان يحدثني.. لم أكن أدري آنذاك من هو محدثي. ولكن كان يكفي أن يتحدث عن نفسه بصيغة الجمع، لأفهم أنه شخصية فوق العادة.

وكأن سي الشريف تنبّه إلى أنني أجهل هوية محدّثي فتدخل موضحاً:

- إن(سي..) مولع بالفن، وهو مشرف على مشاريع كبرى ستغيّر الوجه الثقافي للجزائر.

ثم أضاف وكأنه تنبّه إلى شيء:

- صحيح أنك لم ترَ بعد تلك المركّبات الثقافية والتجارية الجديدة.. ولكنك لم تزر الجزائر منذ عدة سنوات.. لا بد أن تتعرف عليها..

ولم أجبه..

فاحتفظت بكل ما جاورها من معالم وطنية وكل ما سمعته عن تلك المنشآت".. لنفسي بما سأراه على العمولات والصفقات، وتناوب عليها السرّاق كباراً وصغاراً على مرأى من الشهداء الذين شاء لهم حظهم أن يكون مقامهم مقابلاً لتلك الخيانة..

ها هو إذن(سي...) يبدو طيباً و رجلاً شبه بسيط، لولا بدلته الأنيقة جداً وحديثه الذي لا يتوقف عن مشاريعه القريبة والبعيدة، التي تمر جميعها ببباريس وبأسماء أجنبية مشبوهة، تبدو مخجلة في فم ضابط سابق.

ها هو إذن.. تراه ظاهرة ثقافية في عالم العسكر أم ظاهرة عسكرية في عالم الثقافة..

أم أن "الزواج المنافي للطبيعة" أصبح رمزاً طبيعياً مذ شاع وباؤه "رسمياً" في أكثر من قيادة أركان عربية!

كان الجميع يتملقونه، ويجاملونه، عساهم يلحسون شيئاً من ذلك العسل الذي كان يتدفق بين يديه نهراً من العملة الصعبة، في زمن القحط والجفاف..

وكنت أتساءل طوال تلك السهرة، ماذا كنت أفعل وسط ذلك المجلس العجيب؟

كنت أتوقع أن تكون تلك الدعوة، أو على الأقل موعداً نادراً لي مع الوطن، أستعيد فيه مع سي الشريف ذكرياتنا البعيدة.
ناب عنه جرحه، ووجهه الجديد .ولكن الوطن كان غائباً من تلك السهرة المشوه.

عن مشاريع سيتم ..نتحدث فيها بالفرنسية ..كانت سهرة في فرنسا فهل حصلنا على ..بتمويل من الجزائر ..معظمها عن طريق جهات أجنبية استقلالنا حقاً؟!

متعباً وله (...سي)فقط كان .انتهت تلك السهرة في حدود منتصف الليل وربما ليلية أيضاً ..ارتباطات ومواعيد صباحية.

إن المال السريع الكسب، يعجّل في فتح شهيتنا لأكثر من ملذّات.

لقد كنت في الواقع محطّ اهتمام .وكان يمكن أن أكون سعيداً ذلك المساء الجميع لأسباب لم أشأ التعمق فيها..

الذي فهمت أن (...سي)بل ربما كنت النجم الثاني في تلك السهرة مع الدعوة كانت على شرفه، وأنني دعيت لها، لأنه كان يحب أن يكون محاطاً وذوقه غير العسكري ..في سهراته بالفنانين دليلاً على ولعه بالإبداع!

وأنه حدثني يومها عن آرائه الفنية في ..والواقع أنه كان لطيفاً ومجاملاً بل وقال مازحاً، .مجالات مختلفة، وحبه لبعض الرسامين الجزائريين بالذات إنه يحسد سي الشريف على تلك اللوحة، وأنني إذا كنت آخذ معي لوحة حيث أذهب، فسيدعوني إلى بيته عند زيارتي للجزائر..

ضحكت من مزاحه.

ولكنني كنت حزيناً بما فيه الكفاية بعد ذلك لأكون على حافة البكاء، وأنا أنفرد بنفسي ذلك المساء في سريري، وأتساءل أي حماقة أوصلتني إلى ذلك البيت؟

بيت كنت أتوقعه بيتك، وإذا بي أدخله وأغادره دون أن ألمح حتى طرف عن عالمك ..ثوبك، وهو يعبر ذلك الممر الذي كان يفصلني.

قالت ..توقعتك أنت، وكانت كاترين .في صباح اليوم التالي، دقّ الهاتف:

- قبلات صباحية ..وأجمل الأماني لك..

وقبل أن أسأل عن المناسبة أضافت:

- اليوم عيد (السان فالنتان).. القديس الذي يبارك العشاق.
فكّرت أن أطلبك بدل أن أبعث إليك بطاقة.. ماذا تريد أن أتمنى لك في عيد الحب؟

أو تردّدي أضافت بلهجة ساخرة أحبها ..وأمام دهشتي:

- اطلب أيها الأحمق ..فالدعوات تستجاب اليوم!

ضحكت..

ولكنني قلت شيئاً مشابهاً .كدت أقول لها أطلب شيئاً من النسيان فقط لذلك:

- أريد أن أحال إلى التقاعد العاطفي.. أيمكنك أن تبلّغي قديسك طلبي هذا!

قالت:

- با لك من مجنون ..أتمنى ألا يسمعك فيحرمك من بركاته إلى الأبد.. هل أتعبك موعدنا الأخير إلى هذا الحد؟

ثم وضعت تلك السماعة لأبكي معك .يومها ضحكت مع كاترين.

كنت أكتشف لأول مرة ألم ذلك العيد الذي لم أكن سمعت به من قبل.

لم يأت هاتفك حتى ليشكرني على تلك اللوحة، أو حتى على تلك الزيارة، وذلك الموعد المتعمد الذي حضرته وتغيّبت عنه.

جاء عيد الحب إذن..

فيا عيدي وفجيعتي، وحبي وكراهيتي، ونسياني وذاكرتي، كلّ عيد وأنت كلّ هذا..

للحب عيد إذن.. يحتفل به المحبّون والعشّاق، ويتبادلون فيه البطاقات والأشواق، فأين عيد النسيان سيّدتي؟

بقديس جديد على مدار السنة.. هم الذين أعدّوا لنا مسبقاً تقويماً بأعياد السنة، في بلد يحتفل كلّ يوم أليس بين قدّيسيهم الثلاثمائة والخمسة

قديس واحد يصلح للنسيان؟ ..والستين

مادام الفراق هو الوجه الآخر للحب، والخيبة هي الوجه الآخر للعشق، لماذا لا يكون هناك عيد للنسيان يضرب فيه سُعاة البريد عن العمل، وتتوقف فيه ونكفّ فيه ..الخطوط الهاتفية، وتُمنع فيه الإذاعات من بثّ الأغاني العاطفية !عن كتابة شعر الحب

كم هو الحب " :لحبيبته جوليات دروي يقول "فيكتور هوغو"منذ قرنين كتب :وكم هو خصب لا ينضب "أحبك"عقيم، إنه لا يكف عن تكرار كلمة واحدة .."هنالك ألف طريقة يمكنه أن يقول بها الكلمة نفسها

وأجرّب معك ألف طريقة لقول الكلمة ..دعيني أدهشك في عيد الحب ..الواحدة نفسها في الحب

دعيني أسلك إليك الطرق المتشعّبة الألف، وأعشقك بالعواطف المتناقضة .الألف، وأنساك وأذكرك، بتطرّف النسيان والذاكرة

.بتناقض العشق والكراهية ..وأخضع لك وأتبرأ منك، بتطرّف الحرية والعبودية

.بشيء من الحبّ ..أكرهك ..دعيني في عيد الحب

تراني بدأت أكرهك يومها؟

ومتى ولدت داخلي تلك العاطفة بالتحديد، وراحت تنمو بسرعة مدهشة، وأصبحت تجاور الحب بعنفه؟

ترى إثر خيباتي المتكررة معك، بعد كل تلك الأعياد التي أخلفتها مروراً بذكرى لقائنا، أم بسبب ذلك التوتر الغامض الذي كان يسكنني، ذلك الجوع .الدائم إليك، الذي كان يجعلني لا أشتهي امرأة سواك

عبثاً كنت أقدّم له .كنت أريدك أنت لا غير، وعبثاً كنت أتحايل على جسدي .ومطلبه الوحيد ..كنتِ شهوته الفريدة .امرأة أخرى غيرك

.الأكثر إيلاماً ربما، عندما كنت في لحظة حبّ أمرر يدي على شعر كاترين وإذا بيدي تصطدم بشعيراتها القصيرة الشقراء، فأفقد فجأة شهيّة حبّي وأنا أتذكر شعرك الغجري الطويل الحالك، الذي كان يمكن أن يفرش بمفرده .سريري

كان نحولها يذكّرني بامتلائك، وخطوط جسدها المستقيمة المسطّحة .تذكرني بتعاريجك وتضاريس جسدك
وكان عطرك يأتي بغيابه حتى حواسي ليلغي عطرها، ويذكّرني كطفلٍ

!يتصرف بحواسه الأولى، أن ذلك العطر لم يكن العطر السري لأمي

.كنت تتسللين إلى جسدي كلّ صباح وتطردينها من سريري

يوقظني ألمك السري، وشهوتك المتراكمة في الجسد قنبلة موقوتة،
.ورغبة ليلية مؤجّلة يوماً بعد آخر

هل تستيقظ الرجولة باكراً حقاً، أم الشوق هو الذي لا ينام؟

..أجيبيني أيتها الأنثى التي تنام ملء جفونها كل ليلة

أوَحدهم الرجال لا ينامون؟

ولماذا يرتبك الجسد، وأكاد أجهش على صدر غيرك بالبكاء، أكاد أعترف لها
أنني عاشق امرأة أخرى، وأنني عاجز أمامها لأن رجولتي لم تعد ملكي،
!وإنما تتلقى أوامرها منك فقط

!متى بدأت أكرهك

ترى في ذلك اليوم الذي لبست فيه كاترين ثيابها، مدّعية بمجاملة كاذبة
.موعداً ما لتتركني وحدي في ذلك السرير الذي لم يعد يشبع نهمها

أنه يحدث للرجولة أيضاً أن :يوم اكتشفت وأنا أذرف دمعة رجالية مكابرة
..أو منطق الكبرياء الرجالي ..تنكّس أعلامها، وترفض حتى لعبة المجاملة
.وأننا في النهاية لسنا أسياد أجسادنا كما نعتقد

السان)يومها تساءلت بشيء من السخرية المرة، إن كان ذلك القديس
وحوّلني حقاً إلى عاشق ..قد استجاب لدعوتي بهذه السرعة (فالنتان
!متقاعد

وحقدت عليك آنذاك، وشعرت بشيء من المرارة ..أذكر أنني لعنتك
أنا الذي لم أبك حتى يوم بترت ذراعي، كان يمكن أن ..المجاورة للبكاء
.أبكي يومها وأنت تسرقين منّي آخر ما أملك
!تسرقين رجولتي

".."هل تحبينني؟"ذات يوم سألتك

:قلتِ

!حبك يزيد وينقص كالإيمان ..لا أدري -

..يمكن أن أقول اليوم، إن حقدي عليك كان يزيد وينقص أيضاً كإيمانك

:يومها أضفت بسذاجة عاشق

وهل أنتِ مؤمنة؟ -

:صحتِ

وفرائضه ..أنا أمارس كل شعائر الإسلام ..طبعاً -

وهل تصومين؟ -

في التواصل مع ..إنها طريقتي في تحدّي هذه المدينة ..طبعاً أصوم -
.ومع الذاكرة ..الوطن

كان في مظهرك شيء .لا أدري لماذا لم أكن أتوقّعك هكذا .تعجّبت لكلامك
.ما يوهم بتحررك من كل الرواسب

:عندما أبديت لك دهشتي قلتِ

كيف تسمّي الدين رواسب، إنه قناعة؛ وهو ككل قناعاتنا قضية لا تخصّ -
..سوانا

الإيمان كالحب عاطفة سرية .لا تصدق المظاهر أبداً في هذه القضايا
إنها طمأنينتنا السرية، درعنا .نعيشها وحدنا في خلوتنا الدائمة إلى أنفسنا
.وهروبنا السري إلى العمق لتجديد بطرياتنا عند الحاجة ..السرية

أما الذين يبدو عليهم فائض من الإيمان، فهم غالباً ما يكونون قد أفرغوا
أنفسهم من الداخل ليعرضوا كل إيمانهم في الواجهة، لأسباب لا علاقة لها
!بالله

!ما كان أجمل كلامك يومها

كان يأتي ليقلب ثنايا الذاكرة، ويوقظ داخلي صوت المآذن في صباحات
.قسنطينة

في كتاتيب (المؤدّب)كان يأتي مع الصلوات، مع التراتيل، مع صوت
فأعود إلى الحصير نفسه أجلس عليه بالارتباك الطفولي .قسنطينة القديمة
نفسه، أردّد مع أولاد آخرين تلك الآيات التي لم نكن نفهمها بعد، ولكننا كنّا
وتلك ."الفالاقة"ننسخها على ذلك اللوح ونحفظها كيف ما كان، خوفاً من

العصا الطويلة التي كانت تتربص بأقدامنا لتدميها عند أول غلطة.

كان يأتي ليصالحني مع الله، أنا الذي لم أصم من سنين.

كان يصالحني مع الوطن، ويحرّضني ضد هذه المدينة التي تسرق منّي كلّ ومن الذاكرة ..يوم مساحة صغيرة من الإيمان.

كنتِ يومها المرأة التي أيقظت ملائكتي وشياطيني في الوقت نفسه. ..ثم راحت تتفرج عليّ بعدما حوّلتني إلى ساحة يتصارع الخير والشر فيها !دون رحمة

***

كان النصر للملائكة ..في ذلك العام.

أما .قررت أن أصوم وقتها ربما بتأثير كلامك، وربما أيضا للهروب منك إلى الله ."العبادة درعنا السرية"قلت.

..قلت سأحتمي من سهامك بالإيمان إذن

وأنسى حتى وجودك معي في ..رحت أحاول أن أنساك وأنسى قطيعتك المدينة نفسها.

أحاول ..بين الرهبة والذهول .كم من الأيام قضيتها في تلك الغيبوبة الدينية .بترويض جسدي على الجوع أن أروّضه على الحرمان منك أيضاً

كنت أريد أن أستعيد سلطتي على حواسي التي تسللت إليها، وأصبحت تتلقي أوامرها منك وحدك.

هيبته .كنت أريد أن أعيد لذلك الرجل الذي كان يوماً أنا، مكانته الأولى قبلك وقيمه التي أعلنت عليها الحرب ..مبادئه ..حرمته ..

أعترف أنني نجحت في ذلك بعض الشيء ولكنني لم أنجح في نسيانك أبداً.

وأنا أكتشف أنني كنت أثناء ذلك أعيش بتوقيتك .كنت أقع في فخّ آخر لحبك لا غير.

وأصوم وأفطر معك .كنت أجلس إلى طاولة الإفطار معك.

أتسحّر وأمسك عن الأكل معك، أتناول نفس أطباقك الرمضانية، وأتسحّر بك لا غير ..

لم أكن أفعل شيئاً سوى التوحّد معك في كلّ شي دون علمي.

كان كلّ شيء يؤدي إليك إذن .كنت في النهاية كالوطن..

مثله كان حبّك متواصلاً حتى بصدّه وبصمته.

مثله كان حبك حاضراً بإيمانه وبفكره.

فهل العبادة تواصل أيضاً؟

***

وها أنا أنزل من طوابق سموّي العابر، وأتدحرج فجأة نحو .انتهى رمضان ذلك الشهر الذي كنت أملك أكثر من مبرر للتشاؤم منه .حزيران.

، ذكريات موجعة أخرى ارتبطت بهذا 67فقد كان في ذاكرتي ما عدا حزيران الذي قضيت بعضه في سجن للتحقيق والتأديب، 71الشهر، آخرها حزيران يستضاف فيه بعض الذين لم يبتلعوا ألسنتهم بعد..

(الكدية)أما أول ذكرى مؤلمة ارتبطت بهذا الشهر فكانت تعود إلى سجن الذي دخلته يوماً في قسنطينة مع مئات المساجين إثر مظاهرات ماي 1945 حيث تمّت محاكمتنا في بداية حزيران أمام محكمة عسكرية.

أيّ حزيران كان الأكثر ظلماً، وأية تجربة كانت الأكثر ألماً؟

أصبحت أتحاشى طرح هذه الأسئلة، منذ اليوم الذي أوصلتني أجوبتي إلى جمع حقائبي ومغادرة الوطن.

الوطن الذي أصبح سجناً لا عنوان معروفاً لزنزانته؛ لا اسم رسمياً لسجنه؛ ولا تهمة واضحة لمساجينه، والذي أصبحت أُقاد إليه فجراً، معصوب العينين محاطاً بمجهولين، يقوداننني إلى وجهة مجهولة أيضاً .شرف ليس في متناول حتى كبار المجرمين عندنا.

هل توقعت يوم كنت شاباً بحماسه وعنفوانه وتطرف أحلامه أنه سيأتي بعد ربع قرن، يوم عجيب كهذا، يجرّدني فيه جزائري مثلي من ثيابي ..وحتى زنزانة أدخلها (فردية هذه المرة)من ساعتي وأشيائي، ليزجّ بي في زنزانة

..باسم الثورة هذه المرّة

!الثورة التي سبق أن جرّدتني من ذراعي

أكثر من سبب وأكثر من ذكرى كانت تجعلني أتطيّر من ذلك الشهر الذي .قضم الكثير من سعادتي على مرّ السنوات

تراني في ذلك العام تحرّشت بالقدر أكثر، ليردّ على تشاؤمي بكل تلك الفجائع المذهلة التي حلّت بي في شهر واحد؟

أم فقط، كان ذلك هو قانون الفجائع والكوارث التي لا تأتي سوى دفعة ."وكي تروح تقطّع السلاسل ..كي تجِي تيجبها شعرة"واحدة

كانت تلك عبثيّة الحياة، التي يكفي لمصادفة رفيعة كشعرة أن تأتيك .بالسعادة والحب والحظّ الذي لم تكن تتوقّعه

عندما تنقطع تلك الشعرة الرفيعة، فهي تكسر معها كلّ السلاسل ..ولكن !التي كنت مشدوداً إليها، معتقداً أنها أقوى من أن تكسرها شعرة

قبلها لم أنتبه إلى أن لقاءك ذات يوم، بعد ربع قرن من النسيان، كان تلك المصادفة الرفيعة كشعرة التي عندما جاءت جرت معها سعادة العالم بأكمله، وعندما رحلت قطعت كل سلاسل الأحلام، وسحبت من تحتي .سجاد الأمان

تلك الشعرة التي ها هي ذي وبعد ستّ سنوات، تعود اليوم لتكسر آخر دفعت 82أعمدة بيتي، وتهدّ السقف عليّ، بعدما اعتقدت أنني في حزيران ما يكفي من الضريبة لينساني القدر بعض الوقت، بعدما لم يبق شيء ..واحد قائم في حياتي، يمكن أن أخاف عليه من السقوط

:كنت أجهل حين ذاك المادة الأولى في قانون الحياة

."لا غير ..إن مصير الإنسان إنما هو خلاصة تسلسلات حمقاء"

***

طعم المرارة الغامضة، ومذاق اليأس القاتل، عندما 82كان لبداية صيف .يجمع بين الخيبات الذاتية القومية مرّة واحدة

.خبر صمتك المتواصل، وخبر الفجائع العربية :وكنت أعيش بين خبريْن

فقد جاء اجتياح إسرائيل .كان قدري يتربّص بي هذه المرة من طريق آخر ..المفاجئ لبيروت في ذلك الصيف، وإقامتها في عاصمة عربية لعدة أسابيع جاء ينزل بي عدّة ..وأكثر من مليون عربي ..على مرأى من أكثر من حاكم .طوابق في سلّم اليأس

فقد مات .أذكر أن خبراً صغيراً انفرد بي وقتها وغطّى على بقية الأخبار الشاعر اللبناني خليل حاوي منتحراً بطلقات ناريّة، احتجاجاً على اجتياح إسرائيل للجنوب الذي كان جنوبه وحده، والذي رفض أن يتقاسم هواءه مع ..إسرائيل

كان لموت ذلك الرجل الذي لم أكن قد سمعت به من قبل، ألم مميّز فريد .المرارة

ولا يجد ورقاً يكتب عليه ..فعندما لا يجد شاعر شيئاً يحتجّ به سوى موته .عندها يكون قد أطلق النار أيضاً علينا ..سوى جسده

..ذهب قلبي طوال تلك الأيام عند زياد

كان وقتها مولعاً ."الشعراء فراشات تموت في الصيف" :كان قديماً يقول الذي مات منتحراً أيضاً بطريقة أخرى احتجاجاً "ميشيما"بالروائي الياباني ..على خيبة أخرى

، أم أنها "الموت في الصيف" :تراه قالها يومها من وحي أحد عناوين ميشيما فكرة مسبقة مادام يدافع عنها بسرد قائمة بأسماء الشعراء الذين اختاروا هذا الموسم ليرحلوا؟

كنت أستمع إليه آنذاك، وأحاول أن أقابل نظرته التشاؤمية للصيف بشيء يمكنني أن " :فأقول له مازحاً .من السخرية، خشية أن ينقل عدواه إليّ ".!أسرد عليك أيضاً عشرات الأسماء لشعراء لم يموتوا في الصيف

فلا أملك إلا أن " !هناك أيضاً من يموتون بين صيفينْ ..طبعاً" :فيضحك ويردّ ".!وحماقتهم ..يا لعناد الشعراء" :أجيبه

ورحت أتساءل فجأة أين يمكن أن يكون في هذه .عاد زياد إلى الذاكرة الأيام؟

في أي شارع، وكل الشوارع مطوقة، وكل ..في أية جبهة ..في أية مدينة المدن مقابر جاهزة للموت؟

منذ رحل لم تصلني منه سوى رسالة واحدة قصيرة، يشكرني فيها على

فماذا تراه أصبح منذ ذلك .منذ ثمانية أشهر ..كان ذلك منذ رحيله .ضيافتي الحين؟

فقد عاش دائماً وسط المعارك والكمائن، .لم أكن قلقاً عليه حتى الآن كان رجلاً يخافه الموت أو يحترمه، فلم يشأ أن يأخذه .والقصف العشوائي .بالجملة

ورحت أتشاءم وأنا أتذكّر .وبرغم ذلك كانت عاطفة غامضة ما توقظ مخاوفي .وموت ذلك الشاعر منتحراً ..كلامه عن الصيف

ماذا لو كان الشعراء يقلّدون بعضهم في الموت أيضاً؟ ماذا لو لم يكونوا فراشات فقط؟ لو كانوا مثل حيتان البالين الضخمة يحبّون الموت جماعياً في على الشطآن ذاتها؟ ..المواسم نفسها

"تاركاً خلفه مسودّة روايته الأخيرة 1961أيضاً صيف (همنغواي)لقد انتحر .الصيف الخطر".

فأية علاقة بين الصيف وبين كلّ هؤلاء الروائيين والشعراء الذين لم يتلاقوا؟

كان لا بد ألا أتعمّق كثيراً في تلك الفكرة، وكأنني أستدرج بها القدر أو أتحداه، فيعطيني في ذلك الصيف تلك الصفعة التي لم أنهض منها بعد، .برغم مرور السنوات

***

..مات زياد

ثم ..وها هو خبر نعيه يقفز مصادفة من مربع صغير في جريدة إلى العين ولا ..يتكوّر النبأ غصّة في حلقي، فلا أصرخ .فيتوقّف الزمن ..إلى القلب .أبكي

.أصاب بشلل الذهول فقط، وصاعقة الفجيعة

وكيف لم أتوقع موته ونظراته الأخيرة لي كانت تحمل أكثر .كيف حدث هذا؟ من وداع؟

مازالت حقيبته هنا، في خزانة غرفتي تفاجئني عدة مرات في اليوم وأنا .أبحث عن أشيائي

أكان يعرف أنه لن يحتاج إلى كثير من الزاد لرحلته .لقد عاد هناك دون أمتعة الأخيرة، أم كان يفكر في العودة ليستقرّ هنا ويعيش إلى جوارك كما كنت أتوهم تحت تأثير غيرتي؟

.لقد سكن الصمت بيننا في الأيام الأخيرة .لم أسأله يومها عن قراره الأخير وكأنني أخاف أن يعترف لي بأمر أخشاه أو .وأصبحت أتحاشى الجلوس إليه .بقرار أتوقعه

ألا " :قال لي معتذراً فقط .لم يقل شيئاً وهو يسافر محمّلاً بحقيبة يد صغيرة أنت تدري أن مضايقات المطارات ..يزعجك أن أترك هذه الأيام الحقيبة عندك "..كثيرة هذه الأيام، ولا أريد أن أنقل أشيائي مرة أخرى من مطار إلى آخر

خاصة أن لا شيء ينتظرني في المطار " :ثم أضاف بما يشبه السخرية ".!الأخير

.لم يكن في انتظاره سوى رصاصة الموت ..لم يخطئ حدسه إذن

..على يد الجميع متنا ..لنا في كل وطن مقبرة" :مازلت أذكر قوله مرة "..باسم كل الثورات وباسم كلّ الكتب

!قتلته هويته فقط ..ولم تقتله قناعاته هذه المرة

.نخب ضحكته سكرت ذلك المساء

.ذلك الذي لا يعادله حزن ..نخب حزنه المكابر أيضاً

.نخب رحيله الأخير ..نخب رحيله الجميل

..بكيته ذلك المساء

.ذلك البكاء الموجع المكابر الذي نسرقه سراً من رجولتنا .وتساءلت أي رجل فيه كنت أبكي الأكثر

ولِمَ البكاء؟

مقاتلاً في معركة ما كما أراد .ذات صيف كما أراد ..لقد مات شاعراً كما أراد .أيضاً

.لقد هزمني حتى بموته

الذي كتب "جان كوكتو"تذكّرت وقتها تلك المقولة الرائعة للشاعر والرسام

يوماً سيناريو فيلم يتصور فيه موته مسبقاً، فتوجه إلى بيكاسو وإلى أصدقائه القلائل الذين وقفوا يبكونه، ليقول لهم بتلك السخرية الموجعة التي كان يتقنها:

"إنهم يتظاهرون .فالشعراء لا يموتون ..تظاهروا فقط بالبكاء ..لا تبكوا هكذا بالموت فقط!".

ليقنعني أن ..وماذا لو كان زياد يتظاهر بالموت فقط؟ لو فعل ذلك عن عناد الشعراء يموتون حقاً في الصيف ويبعثون في كل الفصول؟

..وأنتِ

تراك تدرين؟ هل أتاك خبر موته؟ أم سيأتيك ذات يوم وسط قصة أخرى وأبطال آخرين؟

أم تجلسين لتبني له ضريحاً من ..وماذا ستفعلين يومها؟ أستبكينه الكلمات، وتدفنيه بين دفّتي كتاب، كما تعودت أن تدفني على عجل كلّ من أحببت وقررت قتلهم يوماً؟

هو الذي كان يكره الرثاء، كراهيته لربطات العنق والبدلات الفاخرة، بأية لغة سترثينه؟

.لقد هزمك زياد كما هزمني ..في الواقع
فليس كل الأبطال .والموت ..وضعك أمام الحد الفاصل بين لعبة الموت .قابلين للموت على الورق

.ولا يمكننا قتلهم لمجرد رواية ..هنالك من يختارون موتهم وحدهم

.كبطل جاهز لرواية ..وكان يكذب

ويعترف أحياناً فقط بعد أكثر من .كان يكابر ويدّعي أن فلسطين وحدها أمّه كأس، أن لا قبر لأمه، تلك التي دفنت في مقابر جماعية لمذبحة أولى كان .(تلّ الزعتر)اسمها

وإنهم أخذوا صوراً تذكارية، ورفعوا علامات النصر ووقفوا بأحذيتهم على جثث .قد تكون بينها جثّتها ..

.ولحظتها فقط كان يبدو لي أنه يبكي

فَلِمَ البكاء زياد؟

وها أنت ذا .في كلّ مذبحة تركت قبراً مجهولاً .في كل معركة كانت لك جثّة .فلا شي كان في انتظارك غير قطار الموت .تواصل بموتك منطق الأشياء

أو قطار (82بيروت)هنالك من أخذ قطار تلّ الزعتر، وهنالك من أخذ قطار ..صبرا وشاتيلا

وهناك من هنا أو هناك، مازال ينتظر رحلته الأخيرة، في مخيّم أو في بقايا ..بيت، أو في بلد عربي ما

.قطار ..وبين كلّ قطار وقطار

.موت ..بين كلّ موت وموت

ما أسعدهم وما أتعسنا أمام كلّ .فما أسعد الذين أخذوا القطار صديقي !نشرة أخبار

أصبحت ظاهرة ."الرحلات الجماعية"و "وكالات السفريات"بعدهم كثرت ..عربية يحترفها كلّ نظام على طريقته

وأصبحت في أعماق كلّ منّا سكّة .بعدهم أصبح الوطن مجرد محطة .ويحزننا أن يسافر دوننا ..يحزننا أن نأخذه ..حديدية تنتظر قطاراً ما

..رحل زياد إذن

وإذا بحقيبته السوداء المنسيّة في ركن خزانته، منذ عدة شهور، تغطّي .فجأة على كل أثاث البيت، وتصبح أثاثي الوحيد، حتى أنني لا أرى غيرها

عندما .أشعر أنها تنتظرني وأنني على موعد معه .عندما أعود إلى البيت أترك بيتي، أشعر أنني أهرب منها وأنها كانت بلغزها جاثمة على صدري، .دون أن أدري

ولكن كيف الهروب منها وهي تتربص بي كل مساء، عندما أطفئ جهاز ..التلفزيون، وأجلس وحيداً لأدخن سيجارة قبل النوم فيبدأ العذاب

وماذا أفعل بها؟ ..ماذا داخل هذه الحقيبة :وأعود إلى السؤال نفسه

بثيابهم مثلاً .أحاول أن أتذكّر ماذا يفعل الناس عادة بأشياء الموتى إلى الذاكرة ومعها تلك الأيام المؤلمة التي (أمّ)فتعود .وحاجاتهم الخاصة .سبقت وتلت وفاتها

العنابي التي لم تكن أجمل أثوابها، (كندورتها)أتذكّر ثيابها وأشياءها، أتذكر

فقد تعودت أن أراها تلبسها في كل .ولكنها كانت أحب أثوابها إليّ المناسبات.

كانت الثوب الذي يحمل الأكثر عطرها ورائحتها المميزة، رائحة فيها شيء مزيج من .من العنبر، شيء من عرقها، وشيء شبيه بالياسمين المعتّق عطور طبيعية بدائية، كنت أستنشق معها الأمومة.

فقيل لي بشيء من (أمّا)بعد أيام من وفاة (الكندورة)سألت عن تلك الاستغراب إنها أعطيت مع أشياء أخرى للنساء الفقيرات، اللاتي حضرن لإعداد الطعام في ذلك اليوم.

إن أشياء " :ولكن خالتي الكبرى قالت "..كنت أريدها ..إنها لي" :صرخت ما عدا بعض الأشياء ..الميت يجب أن تخرج من البيت قبل خروجه منه الثمينة التي يحتفظ بها للذكرى أو للبركة".

ذلك السوار الذي لم يفارق معصمها يوماً وكأنها ولدت به، ..(أمّا)ومقياس ماذا تراهم فعلوا به؟

لم أجرؤ على السؤال.

كان أخي حسّان الذي لم يكن يتجاوز السنوات العشر، لا يعي شيئاً مما وغيابها النهائي (أمّا)يحدث حوله سوى وفاة.

كأن ذلك البيت .وكنت محاطاً بحشد من النساء اللاتي كن يقرّرن كل شيء أصبح فجأة لهن:

أمّا؟ من الأرجح أن يكون قد أصبح من نصيب إحدى الخالات، (مقياس)أين أو ربما استحوذ عليه أبي مع بقية صيغتها ليقدّمها هدية لعروسه الجديدة.

كلما عدت إلى هذه الذكرى وتفاصيلها، ازدادت علاقتي بهذه الحقيبة تعقيداً .

فقد كان لبعض الأشياء على بساطتها، قيمة لا علاقة لها بمقاييس الآخرين فماذا أفعل بحقيبة تركها صاحبها منذ ثمانية أشهر دون .للتركة والمخلفات ومات؟ ..أية وصية أو توضيح خاص

هل أتصدق بها على الفقراء، مادامت أشياء الموتى يجب أن تلحق بهم، أم أحتفظ بها كذكرى من صديق مادمنا لا نحتفظ إلا بالأشياء الثمينة؟

أم أمانة؟ ..أهي عبء

لماذا أخذتها منه دون مناقشة، لماذا لم أقنعه بحملها معه، ..وإذا كانت عبئا بحجة أنني قد أترك باريس مثلاً؟

فهل نتصدّق بوصايا .ألم تتحول بموت صاحبها إلى وصية ..وإذا كانت أمانة هل نضعها عند بابنا هدية لأول عابر سبيل؟ ..الشهداء

وكنت أدري خلال تلك الأيام التي عشتها مسكوناً بهاجس تلك الحقيبة أنني أرهق نفسي هباءً، وأن محتواها وحده يمكن أن يحدد قيمتها وصفتها، ولذا بدأت أخافها فجأة، أنا الذي لم .ويحدد بالتالي ما يمكن أن أفعله بها .أكن أعيرها اهتماماً من قبل

ترى أكان موت زياد هو الذي أضفى عليها ذلك الطابع المربك، أم أنني في الحقيقة، كنت أخاف أن تحمل لي سرّك، تحمل شيئا عنك كنت أخاف أن أعرفه؟

***

.لأغلق أبواب الشكّ ..كان لا بد أن أفتح تلك الحقيبة
أخذت ذلك القرار ذات ليلة سبت، بعد مرور أسبوع على قراءتي خبر .استشهاد زياد

كان هناك احتمال آخر فقط، لا يخلو من الحماقة، كأن آخذها إلى مقر المنظمة وأسلّمها لأحدهم هناك، ليتكفّل بإرسالها إلى أقرباء زياد في لبنان ..أو في مكان آخر

ولكنني عدلت عن هذه الفكرة الساذجة وأنا أتذكّر أنه لم يعد لزياد من أهل وعند أية قبيلة وأية فصيلة سينتهي ..فلمن سيسلّمها هؤلاء .في لبنان مصيرها؟

يعتقد أنه ينفرد وحده بأبوّة "أبو"وهنالك أكثر من .."أبوها"من سيكون وأن الآخرين ..القضية الفلسطينية، وأنه الوريث الشرعي الوحيد للشهداء خونة؟

ومن أدراني على يد من مات زياد؟

" :أم على يد المجرمين الأعداء؟ أما كان يقول .."الإخوة"على يد المجرمين حتى يمكنهم قتلنا تحت تسمية أخرى غير ..إلى قضايا "القضية"لقد حوّلوا "..الجريمة

وخيرة الشباب الفلسطيني قتل برصاص فلسطيني ..فبأية رصاصة مات زياد

أو عربي لا غير؟ ..

ارتجفت يدي وأنا أفك أقفال تلك الحقيبة ..في ذلك المساء.
شيء ما جعلني أتذكّر أنني أملك يداً واحدة.

وكأنه تعمّد أن يتركها لي .لم تكن الحقيبة مغلقة بمفتاح ولا بأقفال جانبية شبه مفتوحة كما يترك أحد الباب مواربةً، في دعوة صامتة للدخول.

، ولهذا الإذن السابق أو المتأخر "الالتفاتة"شعرت بشيء من الارتياح لهذه ..عن أوانه، الذي منحه لي زياد لدخول عالمه الخاص دون إحراج

تراه فعل ذلك لأنه كان يكره الأقفال المخلوعة، والأبواب المفتوحة عنوة كراهيته للمخبرين ولأقدام العسكر؟

أم لأنه كان يتوقّع يوماً كهذا؟

كل هذه الافتراضات لم تمنع قشعريرة من أن تسري في جسدي، وفكرة أخرى تعبرني..

وهذه الحقيبة كانت معدّة لي .لقد كان يعرف مسبقاً أنه ذاهب إلى الموت فهي لم تعد موجودة .وكان بإمكاني أن أفتحها منذ عدة شهور .منذ البداية بالنسبة إليه منذ أن غادر هذا البيت.

كالعادة ..إنها طريقته في قطع جذور الذاكرة.

وألقيت ..رفعت النصف الفوقي للحقيبة، بعد أن وضعتها على طرف السرير نظرة أولى على ما فيها.

وإذا بالموت والحياة يهجمان عليّ معاً، وأنا أرى ثيابه أمامي، ألمس كنزته الصوفية الرمادية، وجاكيته الجلدي الأسود الذي تعوّدت أن أراه به..

وها هي رائحة الحياة .وحجة حياته ..ها أنا أملك حجة حضوره، وحجة موته والموت تنبعثان معاً وبالقوة نفسها من ثنايا تلك الحقيبة.

أمام بقاياه ..ها أنا معه ودونه.

أغلفه خارجية لكتاب بشريّ ..ثياب ..ثياب.

واجهة قماشية لمسكن من زجاج.
انكسر المسكن وظلّت الواجهة، ذاكرة مثنية في حقيبة، فلماذا ترك لي الواجهة؟.

..بين الثياب قميص حريري سماوي اللون، مازال في غلافه اللامع الشفاف
.أستنتج دون جهد أنه هدية منك .لم يفتح بعد

ثم ثلاثة أشرطة موسيقية، أحدها لتيودوركيس، والأخرى مقطوعات
..كلاسيكية أضعها جانباً وأنا أتذكر أن زياد كلما سافر ترك لي أشرطة وكتباً
.وحبّاً معلّقاً أيضاً ..وثياباً

ولكن هذه هي المرة الأولى التي يترك أشياءه مجموعة في حقيبة، مرتبة
كأنه .بعناية وكأنه أعدها لنفسه وجمع فيها مل ما يحب استعداداً لسفر ما
أراد أن يأخذها معه حيث سيذهب وحيث كان يريد أن يرتدي جاكيته الأسود
!ويستمع إلى موسيقى تيودوركيس ..المفضّل

ترتعش .فأصاب بهزّة أولى .وفجأة تقع يدي على روايتك أسفل الحقيبة
أجلس على طرف السرير قبل .يدي، تتوقف لحظات قبل أن تمسك بالكتاب
.وكأنني سأفتح طرداً ملغوماً .أن أفتحه

.وكأنني لا أعرفه .أتصفح الكتاب بسرعة

وأركض إلى الصفحة الأولى بحثاً عن الإهداء، فتقابلني ..ثم أتذكّر شيئاً
فأشعر بنوبة حزن تشلّ .دون توقيع أو إهداء .دون كلمة واحدة ..ورقة بيضاء
.يدي، وبرغبة غامضة للبكاء

لمن منّا أهديت نسختك المزوّرة؟ وكلانا يملك نسخة دون توقيع؟

_كما يسكن قلبك _من منا أوهمته أنه يسكن الصفحات الداخلية للكتاب
وأنه ليس في حاجة إلى إهداء؟

لدرجة أنه قرّر أن يأخذ معه هذه _هو أيضاً_هل صدّقك ..وهل صدّقك زياد
!هناك ..الرواية ليعيد قراءتها، حيث سيذهب

كانت تقول بالكلمات التي لم .كانت تلك الصفحة البيضاء كافية لإدانتك
فهل كان مهماً بعد ذلك ألا أجد أية ..تكتب، أكثر مما كان يمكن أن تكتبي
رسالة لك في تلك الحقيبة؟

.ووحدي كنت أعرف ذلك ..لقد كنتِ امرأة تتقن الكتابة على بياض

ما عدا روايتك لم أجد سوى مفكرة سوداء متوسطة الحجم موضوعة أسفل
.كسرّ عميق _أيضاً_الحقيبة

التي كان يستعملها "البطاقة البرتقالية"ما كدت أرفعها حتى وقعت منها

الشهر الأخير الذي رحل (أكتوبر)داخلها قصاصة بتاريخ .زياد للتنقلّ بالميترو فيه.

أنظر على تلك البطاقة على عجل، وأنا لا أفكر إلا في الإطلاع على تلك المفكرة. ولكن صورته تستوقفني..

مربكة صور الموتى..

فجأة يصبحون أكثر حزناً وأكثر .موجعة دائماً .ومربكة أكثر صور الشهداء غموضاً من صورتهم.

يصبحون أجمل بلغزهم، ونصبح أبشع منهم ..فجأة.
نخاف أن نطيل النظر إليهم ..فجأة.
نخاف من صورنا القادمة ونحن نتأمّلهم ..فجأة!
كَمْ كان وسيماً ذاك الرجل.

ها هو حتى في صورة .تلك الوسامة الغامضة المخفيّة التي لا تفسير لها سريعة تلتقط له في ثلاث دقائق، بخمسة فرنكات، يمكنه أن يكون مميزا.

وكأنه .يمكنه أن يكون حتى بعد موته مغرياً، بذلك الحزن الغامض الساخر يسخر من لحظة كهذه.

كما .لقد أحببته قبلك بطريقة أخرى .وأفهم مرة أخرى أن تكوني أحببته فنكثر من الجلوس .نحب شخصاً نعجب به ونريد أن نشبهه، لسبب أو لآخر وكأننا نعتقد في أعماقنا أن الجمال .إليه والخروج برفقته والظهور معه والجنون والموهبة والصفات التي تبهرنا فيه قد تكون قابلة للعدوى والانتقال إلينا عن طريق المعاشرة.

لم أكتف أنها كانت سبب كارثتي إلا مؤخراً !أية فكرة حمقاء كانت تلك..
"لا تبحث عن الجمال" (..رسام أيضاً)عندما قرأت قولاً رائعاً لكاتب فرنسي
"!لأنك عندما تجده، تكون قد شوّهت نفسك

ولم أكن فعلت شيئاً غير هذه الحماقة.

أعدت بطاقته وصورته إلى الحقيبة، ورحت أقلّب تلك المفكرة..

كنت أشعر أنها تحمل شيئاً قد يفاجئني، قد يعكر مزاجي ويشرع الباب فماذا تراه كتب في هذا الدفتر؟ .للعواصف المتأخرة عن مواسمها

وكنت أشعر أن الحقيقة هنا كانت .كنت أدري أن الحقيقة تولد صغيرة دائماً فخفت المفكرة .صغيرة في حجم مفكرة جيب..

واستلقيت على ذلك السرير لأتصفح جرحي .بحثت عن سيجارة أشعلها على مهل..

.كانت الصفحات تتالى مليئة بالمقاطع الشعرية المبعثرة بين تاريخ وآخر ثم بقصائد أخرى تشغل وحدها أحياناً صفحتين أو ثلاثاً ..بالكتابات الهامشية ..ثم خواطر قصيرة من بضعة سطور مكتوبة وسط الصفحة بلون أحمر دائماً . .وكأنه كان يريد أن يميزها عن بقية ما كتب

.ربما لأنها لم تكن شعراً وربما لأنها كانت أهم من الشعر

من أي مدخل أدخل هذه الدهاليز السرية ..من أين أبدأ هذه المفكرة؟ لزياد، التي حلمت دائماً بالتسلل إليها عساني أكتشفك فيها؟

أحاول فك لغز الكلمات .كانت العناوين تستوقفني، فأبدأ في قراءة قصيدة أبحث عنك وسط الرموز تارة، ووسط التفاصيل الأكثر اعترافاً ..المتقاطعة .أحياناً أخرى

ثم لا ألبث أن أتركها وألهث مسرعاً إلى صفحة أخرى، بحثاً عن حجج ما الذي ..أخرى، عن إيضاحات أكثر، عن كلمات تقول لي بالأسود والأبيض .حدث

ولكنني كنت في الواقع على درجة من الانفعال والأحاسيس المتطرفة المتناقضة التي كانت تكاد تشلّ تفكيري، وتجعلني عاجزا عن التمييز بين .ما أقرأ وما أتوهم قراءته

كان منظر تلك الحقيبة المفتوحة أمامي بأشيائها المبعثرة، وبذلك الدفتر الأسود الصغير الذي كنت ممسكاً به تجعلني أخجل من نفسي في تلك وكأنني بفتحها لم أفعل شيئاً غير تشريح جثّة زياد المبعثرة .اللحظة بأشيائها وأشلائها على سريري، لأخرج منها هذا الدفتر الذي هو قلبه لا .غير

قلب زياد الذي نبض يوماً لك، والذي هاهو اليوم حتى بعد موته بواصل نبضه ..وشهوة ..حزناً ..بين يديّ على وقع الكلمات المشحونة حسرة وخوفاً

على جسدي مررّي شفتيك"
فما مرّروا غير تلك السيوف عليّ
أشعليني أيا امرأة من لهب
يقرّبنا الحب يوماً
يباعدنا الموت يوماً
..ويحكمنا حفنة من تراب

تقرّبنا شهوة للجسد
ثم يوماً
يباعدنا الجرح لمّا يصير بحجم جسد
توحدت فيك
أيا امرأة من تراب ومرمر
..سقيتك ثم بكيت وقلت
..أميرة عشقي
أميرة موتي
؟!تعالي

بأحاسيس جديدة كل مرة، بشكٍّ جديد كل .كم من مرة قرأت هذا المقطع وأين يبدأ ..أين ينتهي الخيال ..مرة، وتساءلت بعجز من لا يحترف الشعر الواقع؟

أين يقع الحد الفاصل بين الرمز والحقيقة؟

وكانت المرأة هنا جسداً ملتحماً .كانت كل جملة تلغي التي سبقتها .بالأرض إلى حد لم يعد فيه الفصل أو التمييز بينهما ممكناً

:ولكن كانت هناك كلمات لا تخطئ بواقعيتها وبشهوتها المفضوحة

"مرري على جسدي شفتيك"
"أشعليني أيا امرأة من لهب"
"تقربنا شهوة للجسد"
"توحدت فيك"

أكانت الثورة إذن حشواً من الكلمات لا أكثر برّأ بها زياد نفسه؟

..مراوغة شخصية ..قضيّة كبرياء .كان يفضّل أن يهزمه الموت ولا تهزمه امرأة .."..تعالي ..أميرة موتي"

وأنت تراك جئت في ذلك اليوم؟ .ها هو الموت جاء أخيراً

..أتوحّد فيك ..أأشعلته ..أمرّرت على جسده شفتيك ..هل انفرد بك حقاً ؟..وهل

فتاريخ هذه القصيدة يصادف تاريخ .من الأرجح أن يكون ذلك قد حصل .سفري إلى إسبانيا

.كان القلب قد بدأ يطفح بعاطفة غريبة لا علاقة لها بالغيرة

ولكننا لا يمكن أن نغيّر طعم المرارة في ..نحن لا نشعر بالغيرة من الموات
.هذه الحالات

..فهل أمنع عيني اللتين يستوقفهما اللون الأحمر، من أن تقرأ هذه الخاطرة
.دون دموع

لم يبق من العمر الكثير"
أيتها الواقفة في مفترق الأضداد
..أدري
ستكونين خطيئتي الأخيرة
.أسألك
حتى متى سأبقى خطيئتك الأولى
لك متّسع لأكثر من بداية
.وقصيرة كل النهايات
إني أنتهي الآن فيك
"!فمن يعطي للعمر عمراً يصلح لأكثر من نهاية

..تستوقفني بعض الكلمات، وتستدرجني إلى الذهول
..ويأخذ الحبر الأحمر فجأة لوناً شبيهاً بدم وردي خجول يتدحرج على ورق
."..خطيئتك الأولى"ليصبح لون
فأسرع بإغلاق تلك المفكرة وكأنني أخاف إن أنا واصلت قلب الصفحات، أن
!أفاجئكما في وضعٍ لم أتوقعه

.بعيد ..يحضرني كلام قاله زياد مرة في زمن بعيد

أنا أكنّ احتراماً كبيراً لآدم، لأنه يوم قرر أن يذوق التفاحة لم يكتف " :قال
ربما كان يدري أنه ليس هناك من أنصاف خطايا .بقضمها، وإنما أكلها كلّها
تفادياً _وعلينا .ولذلك لا يوجد مكان ثالث بين الجنة والنار ..ولا أنصاف ملذّات
"!أن ندخل إحداهما بجدارة _للحسابات الخاطئة

فما الذي يؤلمني اليوم في .كنت آنذاك معجباً بفلسفة زياد في الحياة
أفكار شاطرته إياها؟

ترى كونه سرق تفاحته هذه المرة من حديقتي السرية؟ أم كونه راح
بشهية من حسم اختياره وارتاح؟ ..يقضمها أمامي

لا تملك الأشجار إلا "
أن تمارس الحب واقفة أيضاً
قفي ..يا نخلة عشقي
وحدي حملت حداد الغابات التي
أحرقوها

ليرغموا الشجر على الركوع
"واقفة تموت الأشجار"
تعالي للوقوف معي
أريد أن أشيّع فيك رجولتي
"..إلى مثواها الأخير

.فجأة بدأت أشعر بحماقة فتح تلك المفكرة

.أتعبتني تأويلاتي الشخصية لكل كلمة أصادفها

لا .فأنا برغم كل شيء لا أريد أن أكره زياد اليوم .وبدأت أشعر بالندم
.أستطيع ذلك

وها أنا صغير أمامه وأمام .لقد منحه الموت حصانة ضد كراهيتي وغيرتي
.موته

فلماذا أصرّ .ها أنا لا أملك شيئاً لإدانته، سوى كلماته القابلة لأكثر من تأويل
على تأويلها الأسوأ؟

لماذا أطارده بكل هذه الشبهات، وأنا أدري أنه شاعر يحترف الاغتصاب
اللغوي، نكاية في العالم الذي لم يخلق على قياسه، بل ربما خلق على
فهل أطلق النار عليه بتهمة الكلمات؟ .حسابه
فهل أحاسبه حتى .ولا قدر له سوى قدر الأشجار ..لقد ولد هكذا واقفاً
وعلى طريقة حبّه؟ ..على طريقة موته

.وأذكر الآن أنني عرفته واقفاً

أذكر ذلك اليوم الذي زارني فيه في مكتبي لأول مرة، عندما أبديت له بعض
.ملاحظاتي عن ديوانه، وطلبت منه أن يحذف بعض القصائد

أذكر صمته، ثم نظرته التي توقفت بعض الوقت عند ذراعي المبتورة، قبل أن
قال .يقول تلك الجملة التي كانت بعد ذلك سبباً في تغيير مجرى حياتي
"..سأطبعه في بيروت .سيدي، ردّ لي ديواني..لا تبتر قصائدي" :لي

لماذا قبلت إهانته يومها، دون رد؟ لماذا لم أصفعه بيدي الثانية غير المبتورة
وأرمي له بمخطوطه؟

ألأنني احترمت فيه شجاعة الأشجار ووحدتها، في زمن كانت فيه الأقلام
سنابل تنحني أمام أول ريح؟

.وواقفاً غادرني ..واقفاً عرفت زياد

ولكن دون أيّ تعليق هذه المرة .أما مخطوط تركني كأول مرة.
واليوم صمتها ...تواطؤ الغابات _منذ ذلك الحين_لقد أصبح بيننا.

ورحت أقلّب ذلك الدفتر وأعدّ .فجأة استيقظت داخلي بقايا مهنة سابقة
وإذ بحماس مفاجئ يدبّ في قلبي ويغطّي .صفحاته وأتصفحها بعيني ناشر
وقرار جنوني يسكنني .على بقية الأحاسيس.

"أو "الأشجار"سأنشر هذه الكتابات في مجموعة شعرية، قد أسمّيها
أو عنواناً آخر قد أعثر عليه أثناء ذلك .."مسودات رجل أحبك.

أن أمنحه عمراً آخر لا صيف فيه .أن تصدر هذه الخواطر الأخيرة لزياد ..المهم
فهكذا ينتقم الشعراء دائماً من القدر الذي يطاردهم كما يطارد الصيف ..
..الفراشات

فمن يقتل الكلمات؟ .إنهم يتحوّلون إلى دواوين شعر

***

..أنقذني دفتر زياد من اليأس دون أن أدري

فقد حدث في تلك الأيام .منحني مشاريع لأيام كانت فارغة من أي مشروع
أن قضيت ساعات بأكملها وأنا أنسخ قصيدة، أو أبحث عن عنوان لأخرى،
وأحاول ترتيب فوضى تلك الخواطر والمقاطع المبعثرة، لوضعها في سياق
صالحٍ للنشر.

..كنت أشعر بلذّة ومرارة معاً

لذّة الانحياز للفراشات، وبعث الحياة في كلماتٍ وحدي أملك حق وأدها في
مفكرة، أو منحها الخلود في كتاب.

..ومرارة أخرى

مرارة التنقيب في أوراق شاعر مات، والتجول في دورته الدموية، في نبضه
وحزنه ونشوته، ودخول عالمه المغلق السري دون تصريح ولا رخصة منه،
والتصرف نيابة عنه في الاختيار وفي الإضافة والحذف.

؟ ومن يمكن أن يدّعي أنه لسبب أو لآخر ..أحقاً كنت أملك صلاحية كهذه
موكّل بمهمة كهذه؟

ولكن من يجرؤ أيضاً على الحكم بالموت على كلمات الآخرين، ويقرر الاستحواذ عليها وحده؟

كنت أدري في أعماقي، أنه إذا كان لموتِ الشعراء والكتّاب نكهة حزن إضافية، تميزهم عن موت الآخرين، فربما تُعزى لكونهم وحدهم عندما رؤوس أحلام، ..يموتون يتركون على طاولتهم ككل المبدعين، رؤوس أقلام ومسودات أشياء لم تكتمل.

بقدر ما يحزننا ..ولذا فإن موتهم يحرجنا.

أما الناس العاديون، فهم يحملون أحلامهم وهمومهم ومشاعرهم فوقهم. إنهم يلبسونها كل يوم مع ابتسامتهم، وكآبتهم، وضحكتهم، وأحاديثهم، فتموت أسرارهم معهم.

في البدء، كان سر زياد يحرجني، قبل أن يستدرجني إلى البوح، وإذا بكتاباته تخلق عندي رغبة لا تقاوم للكتابة.

رغبة كانت تزداد في تلك المرات التي كنت أشعر أن كلماته لا تطال أعماقي، وأنها أقصر من جرحي. ربما لأنه كان يجهل النصف الآخر للقصة، تلك التي كنت أعرفها وحدي.

متى ولدت فكرة هذا الكتاب؟

ترى في تلك الفترة التي قضيتها محاصراً بإرث زياد الشعريّ، في ذلك اللقاء غير المتوقع لي مع الأدب والمخطوطات التي انفصلت عنها منذ انفصالي منذ عدة سنوات في الجزائر؟ ..عن وظيفتي

أم في لقائي غير المتوقع الآخر، مع مدينة حجز لي القدر نفسه موعداً متأخراً معها؟

أكان يمكن لي أن أجد نفسي وجهاً لوجه مع قسنطينة، دون سابق إنذار، دون أن تنفجر داخلي الدهشة، شلالات شوق وجنون وخيبة..

إلى حيث أنا ..فتجرفني الكلمات!

الفصل الخامس

مازلت
عندما رن الهاتف ذلك المساء بتوقيت نشرة ..أذكر ذلك السبت العجيب
.الأخبار

كان سي الشريف على الخط بحرارة وشوق أسعداني في البداية،
.وأخرجاني من رتابة صمتي الليلي ووحدته

كان صوته عندي عيداً بحد ذاته والصلة الوحيدة التي ظلت تربطني بك،
.بعدما سدّت كل الطرق الموصلة إليك

.إنه يحمل دائماً احتمال لقاءٍ بك بطريقة أو بأخرى .وكنت أستبشر خيراً به
..ولكنه هذه المرة كان يحمل لي أكثر من هذا

راح سي الشريف يعتذر أولاً عن انقطاعه عني منذ سهرتنا الأخيرة، بسبب
قبل أن ..مشاغله الكثيرة، وزيارات المسؤولين التي لا تتوقف إلى باريس
:يضيف

"لقد علّقت لوحتك في الصالون وأصبحت ..إنني لم أنسك طوال هذه الفترة
أتدري، لقد تركت التفاتتك تلك أثراً كبيراً في نفسي، ..أتقاسم معك البيت
وكل مرة لا بد أن أشرح للآخرين صداقتنا ..وخلقت لي أكثر من حاسد
".وعلاقتنا التي تعود إلى أيام الشباب

..كنت أستمع له وكان القلب قد ذهب بحماقة على عجل إليك

كان يكفي أن أعرف أن تلك المكالمة تأتي من بيتٍ أنتِ فيه، لأعود عاشقاً
.مبتدئاً بكل انفعالات العشّاق وحماقاتهم

:ولكن صوته أعادني إلى الواقع عندما سألني

..أتدري لماذا طلبتك الليلة؟ إنني قررت أن أصحبك معي إلى قسنطينة -
..لقد أهديتني لوحة عن قسنطينة وأنا سأهديك سفرة إليها

:صحت متعجّباً

لماذا قسنطينة؟ ..قسنطينة -

:قال وكأنه يزفّ لي بشرى

..لحضور عرس ابنة أخي الطاهر -

.ثم أضاف بعد شيء من التفكير

- لقد حضرت افتتاح معرضك منذ شهور مع ابنتي ناديا .ربما تذكرها ..

شعرت فجأة أن صوتي انفصل عن جسدي، وأنني عاجز عن أن أجيب
.بكلمة واحدة

أيمكن للكلمات أن تنزل صاعقة على شخص بهذه الطريقة؟

أيمكن للجسد أن يصبح إثر كلمة، عاجزاً عن الإمساك بسماعة؟
..يحدث في لحظات كهذه، أن أتذكر فجأة أنني أملك يداً واحدة
.سحبت بقدمي كرسياً مجاوراً وحلست عليه

:فقطع ذهولي قائلاً ..وربما لاحظ سي الشريف صمتي وحدوث شيء ما

- يا خويا .. ما الذي يخيفك في سفرٍ كهذا؟ لقد جاء ذكرك منذ أيام في جلسة مع بعض الأصدقاء في الأمن، وأكدوا لي أنه لا توجد أية تعليمات في شأنك، وأن بإمكانك أن تزور الجزائر متى شئت .لقد تغيرت الأمور كثيراً منذ إنني أتحمل .. مجيئك، ولا بد أن تعود إلى الجزائر ولو في زيارة خاطفة فما الذي يقلقك إلى .. ستسافر معي وعلى حسابي .. مسؤولية عودتك هذا الحد؟

:أجبته وأنا أبحث عن مخرج لتوتري

- وأفضّل أن تكون .. الحقيقة أنني لست مستعداً نفسياً بعد لزيارة كهذه في ظروف أخرى..

:قال

- أنا واثق من أنني إذا لم أجرّك .. أنت لن تجد ظروفاً أحسن من هذه للعودة .هكذا من يدك هذه المرة، فقد تمضي عدة سنوات أخرى قبل أن تعود إليها هل ستقضي عمرك في رسم قسنطينة؟ ثم ألا يسعدك حضور زواج ابنة سي الطاهر؟ إنها ابنتك أيضاً، لقد عرفتها طفلة ويجب أن تحضر عرسها افعل هذا لوجه أبيها، يجب أن تقف معي في ذلك اليوم مكان سي .. للبركة الطاهر..

.كان سي الشريف يعرف نقطة ضعفي، ويدري مكانة سي الطاهر عندي
.فراح يحرّك ما تبقّى داخلي من وفاء لماضينا وذاكرتنا المشتركة
.كان في ذلك الموقف شيء من السريالية واللامعقول

..كنت أقف على الحد الفاصل بين العقل والجنون، بين الضحك والبكاء

."عرفتها أنثى أيضاً وهذه هي المشكلة !لا يا صديقي "..لقد عرفتها طفلة"
كان ..لا لم تكن ابنتي، كان يمكن فقط أن تكون زوجتي "..إنها ابنتك أيضاً"
.يمكن أن تكون لي

:سألته

لمن ستكون؟ -

:قال

لا أدري ما رأيك ..لقد سهرت معه المرة الماضية (....سي)أعطيتها لـ -
.فيه، ولكنني أعتقد أنه رجل طيب برغم ما يُقال عنه

.كان في جملته الأخيرة جواب مسبق على ردٍ كان يتوقعه

!إذن ولا أحد غيره (....سي)

هل الطيبة هي حقاً صفته المميزة الأولى؟ أعرف أنا أكثر من "..رجل طيب"
.رجل طيب كان يمكن إذن أن يصبح زوجها

كان رجل الصفقات السرية والواجهات .كان أكثر من ذلك (....سي)ولكن
..كان رجل العسكر .كان رجل العملة الصعبة والمهمات الصعبة .الأمامية
فهل مهم بعد هذا أن يكون طيباً أو لا يكون؟ .ورجل المستقبل

تجمعت في الحلق أكثر من غصة، منعتني من أن أبدي رأيي فعلاً في ذلك
تراه يعتقد حقاً أن بإمكان :الشخص، وأسأل سي الشريف سؤالاً واحداً فقط
أن يكون طيباً؟ ..رجل لا أخلاق له

وأنا أسأل "صهره"أم تراني صمتّ لأنني كنت بدأت لا أفرق كثيرا بينه وبين
أن يكون ..هل يمكن لشخص يتصاهر مع رجل قذر ..نفسي سؤالاً آخر
نظيفاً حقاً؟

.أخرستني الصدمات المتتالية في مكالمة واحدة .فقدت فجأة شهية الكلام
:فاختصرت كل الكلام في جملة واحدة قابلة لأكثر من تفسير

..كل شيء مبروك -

:رد سي الشريف حسب التقاليد

..ويبارك فيك ..الله يهنيك -

:ثم أضاف بسعادة من نجح في امتحان

سنسافر بعد عشرة أيام تقريباً فالزواج ..راني نعوّل عليك..إذن سنراك-
.أطلبني هاتفياً كي نتّفق على تفاصيل سفرك ..يوليو 15سيكون في

.انتهت المكالمة، وبدأت مرحلة جديدة من حياتي
هل خرجت ..ولكن .بدأ عمري الآخر الذي أعلنت يومها رسمياً خروجك منه حقاً؟

كانت كل المربعات .أحسست أن رقعة الشطرنج أصبحت فارغة إلا مني بيدٍ ..وكل القطع أصبحت قطعة واحدة أمسكها وحدي ..بلون واحد لا غير واحدة!

كيف لي أن أعرف ذلك؟ لقد تقلصت ..فهل كنت الرابح أم الخاسر الوحيد الرقعة، ومعها مساحة الأمل والترقب، حسمها طرف آخر، كنا نلعب جميعاً إنه القدر :منذ البدء نيابة عنه!

كنت أحقد على ذلك القدر أحياناً، ولكن كنت كثيراً ما أستسلم له دون بلذّة غامضة وبفضول رجل يريد أن يعرف كلّ مرة، إلى أي حد يمكن .مقاومة لها القدر أن يكون أحمق، ولهذه الحياة أن تكون غير عادلة، وأن تكون عاهرة لا تهب نفسها سوى لذوي الثروات السريعة، ولأصحاب السلوك المشبوه ..الذين يغتصبونها على عجل

وأجد .وعندها كنت أجد سعادتي النادرة في مقارنة نفسي بتفاهة الآخرين .في هزائمي الذاتية، دليلاً على انتصارات أخرى ليست في متناول الجميع

تراني في لحظة جنون كهذه قبلت أن أحضر عرسك، وأن أكون شاهداً على مأتمي، وعلى الحقارة التي يمكن أن يصلها البعض دون خجل؟

أم تراني ككل المبدعين، كنت مازوشيّاً بتفوق، وأصرّ في غياب السعادة المطلقة، أن أعيش حزني المطلق، وأن أذهب معك إلى أبعد نقطة في تعذيب النفس، فأمارس كيّ هذا القلب بنفسي ليشفى منك؟

.كرهتك ذلك اليوم بشراسة لم أكن عرفتها من قبل

انقلبت عواطفي مرة واحدة إلى عاطفة جديدة، فيها مزيج من المرارة .وربما الاحتقار أيضاً ..والغيرة والحقد

ما الذي أوصلك هنا؟

وبضعف ما تجاه ..وهل النساء حقاً مثل الشعوب، يشعرن دائماً بإغراء حتى الباهتة منه؟ ..البدلات العسكرية!

كيف قبلت يومها أن أذهب إلى قسنطينة ..ما زلت حتى اليوم أتساءل لحضور عرسك؟

كنت أعرف مسبقاً أن دعوتي لم تكن مجرد نية حسنة، والتفاتة ود وصداقة لرجل تجمعني به أكثر من قرابة.

ولكن كانت قبل كلّ شيء، استغلالاً للذاكرة واستعمالاً سيئاً لاسم من الأسماء القليلة التي ظلّت نظيفة في زمن انتشر فيه وباء القذارة.

كان سي الشريف يدري أنه يسقوم بصفقة قذرة، وأنه يبيع بزواجه اسم أخيه، وأحد كبار شهدائنا مقابل منصب وصفقات أخرى..

وأنه يتصرف باسمه، بطريقة لم يكن ليقبلها لو كان حياً.

ولا أحد غيري لأبارك اغتصابك، أنا صديق سي الطاهر ..وكان يلزمه أنا الوحيد ورفيق سلاحه.

أنا الهيكل المفتت الأطراف الأخير، الذي بقي من ذلك الزمن الغابر.

كانت تلزمه مباركتي، ليُسكت بحضوري ضميره ويعتقد أن سي الطاهر سيغفر له، هو الذي عاش من اسمه طويلاً.

فلماذا قبلت الدخول في تلك اللعبة؟ لماذا قبلت دون نقاش أن أسلمك لأظافرهم؟

ألأنني أدري أن مباركتي قضية شكلية، لن تقدم ولن تؤخر في شيء، وأنه آخر من السادة (....سي)لكنت من نصيب (....سي)لو لم يزوّجك من الجدد.

فماذا يهم في النهاية، أي اسم من أسماء الأربعين لصاً ستحملين!

ألكل هذا أم لأنني استسلمت لإغراء قسنطينة، ..لماذا قبلت السفر ولندائها السرّي الذي كان يلاحقني ويطاردني من الأزل، كما يطارد نداء الحوريات في الجزر المسحورة أولئك البحارة الذين نزلت على بواخرهم لعنة الآلهة..

أم تراني كنت عاجزاً عن أن أخلف موعداً معك، حتى ولو كان ذلك مناسبة

زواجك؟

هنالك قرارات وليدة ضدها، فكيف يمكن لي اليوم أن أفسّر قراراً أخذته خارج المنطق؟

كنت كعالم فيزيائي مجنون، يريد أن يجمع بين صيغتين متفجّرتين في وقسنطينة، صيغتين صنعتهما بنفسي في نوبة شوق ..أنت :الوقت نفسه وعشق وجنون، قست قدرتهما التدميرية كلا على انفراد، وأردت أن أجربهما معاً كما تجرّب قنبلة ذرية في صحراء.

يدمرني ..يهزّني وحدي ..أردت أن أعيشهما معاً في انفجار داخلي واحد وأشلاء رجل ..وأخرج بعده من وسط الحرائق والدمار، إما رجلاً آخر ..وحدي.

؟"شهوة اللهب"ألم تقولي مرة إن هناك رغبة سرية تسكننا جميعاً اسمها

اكتشفت بعدها بنفسي التطابق بينك وبين تلك المدينة.

وقدرة خارقة على ..كان فيكما معاً، شيء من اللهيب الذي لم ينطفئ ..إشعال الحرائق

إنه زيف المدن .ولكنكما معاً، كنتما تتظاهران بإعلان الحرب على المجوس أليس كذلك؟ ..ونفاق بنات العائلات ..العريقة المحترمة

***

..دون أية نبرة حزن أو فرح مميزة .جاء صوتك يوم الاثنين هكذا دون مقدمات دون ارتباك ولا أي خجل واضح.

ورحت تتحدّثين إليّ، وكأنك تواصلين حديثاً بدأناه البارحة، كأن صوتك لم يعبر هذا الخط الهاتفي منذ أكثر من ستّة أشهر.

!وما أغرب ذاكرتك ..ما أغرب علاقتك بالزمن

هل أيقظتك؟ ..أهلاً خالد -

ولكنني قلت بصوت من .كان يمكن أن أقول لا، وكان من الأصح أن أقول نعم :يخرج من غيبوبة عشق

!؟..أنتِ -

تلك الضحكة الطفولية التي أسرتني يوماً وقلت ..ضحكت:

- أعتقد أنني أنا ..هل نسيت صورتي؟!

ثم أضفت أمام صمتي:

- كيف أنت؟

- أحاول أن أصمد..

- تصمد في وجه من ؟.

- في وجه الأيام..

وكأنك شعرت بذنبٍ ما ..قلت بعد شيء من الصمت:

- كلنا نحاول ذلك..

ثم أضفتِ:

- هل أخباري هي التي أزعجتك؟

كعلاقتك بمن تحبّين .عجيب كذاكرتك .عجيب سؤالك!

قلت:

- أخبارك ليست سوى جزء من تقلّبات الأيام.

أجبت ببراءة كاذبة:

- لقد سمعت عمي .كنت أتوقع أن تستقبل خبر زواجي بطريقة أخرى يتحدث إليك أمس على الهاتف، وتعجبت أن تكون قبلت المجيء إلى ..لقد أسعدني ذلك كثيراً، وقررت أن أطلبك .قسنطينة دون مناقشة أو تردد من ..فأنا أريد أن تحضر إلى هذا العرس ..استنجت أنك لم تعد عاتباً عليّ ..الضروري أن تحضر

لا أدري لماذا أعادتني كلماتك إلى مكالمتي السابقة مع سي الشريف، .وإلى ذلك الموقف العجيب، عندما كان يقنعني أنك ابنتي

شعرت مرة أخرى أنني أقف على الحد الفاصل بين العقل واللاعقل، بين

..البكاء والضحك

:سألتك بشيء من المرارة الساخرة

..أتمنى أن أفهم سر إصراركم جميعاً على حضوري -

:قلتِ

ولكنني أدري أنني .سبب إصرار عمي على حضورك لا يهمني إطلاقاً - ..سأكون تعيسة لو تغيّبت عن المجيء

:أجبتك بتهكم

آخر هواياتك؟ ..هل السادية -

:قلتِ بنبرة فاجأتني

.لقد أحببت هذه المدينة من أجلك -

لقد "أجبتك بتلك الطريقة نفسها التي أجبتني بها يوماً، وأنا أعترف لك ..".كان ينبغي ألا تقرأني"فقلتِ "أحببتك يوم قرأتك

:قلتُ

..كان ينبغي ألا تحبّيها إذن -

..ويبثّ شحنة كهربائية في جسدي ..يوقظني ..وإذا بجوابك يدهشني

!ولكنني أحببتك ... -

أم .فهل أشكرك أم أبكي .ها هي الكلمة التي انتظرتها عاماً دون جدوى ولماذا كلّ هذا العذاب إذن؟ ..لماذا الآن ..أسألك لماذا اليوم

:سألتك فقط

وهو؟ -

:أجبتني وكأنك تتحدّثين عن شيء لا يعنيك تماماً

.إنه قدر جاهز -

قاطعتك:

- كيف قبلت أن ..كنت أتوقع قدراً غير هذا .لكل شخص القدر الذي يستحقّه ترتبطي به؟

قلتِ:

- أنا أهرب إليه فقط من ذاكرة لم تعد تصلح للسكن، بعدما ..أنا لا أرتبط به ..أثثتها بالأحلام المستحيلة والخيبات المتتالية

- أنت ..كيف يمكن أن تمرّغي اسم والدك في مزبلة كهذه ..ولكن لماذا هو لست امرأة فقط، أنت وطن، أفلا يهمّك ما سيكتبه التاريخ يوماً؟

أجبتِ بشيء من السخرية المرة:

- وحدك تعتقد أن التاريخ جالس مثل ملائكة الشر والخير على جانبينا، أو كبواتنا وسقوطنا المفاجئ نحو ..ليسجّل انتصاراتنا الصغيرة المجهولة !إنه يمحو فقط .التاريخ لم يعد يكتب شيئاً .الأسفل

ولم أناقشك في نظرتك الخاطئة .لم أسألك ما الذي تريدين محوه بالضبط ..للقيم

سألتك:

- ما الذي تريدينه مني على التحديد؟

قلتِ كأنك طفلة يسألونها عن أيّ حلوى تريد:

- أريدك..

خطر بذهني لحظتها أنك ربما كنت امرأة عاجزة عن حب رجل واحد، وأنه .والآخر ..وأصبحا اليوم أنا .كانا في الماضي زياد وأنا .يلزمك دائماً رجلان

عاد صوتك يقول:

- إنه حدث أن أردتك واشتهيتك حدّ الجنون ..أتدري أنني أحببتك ..خالد.. كانت ..ولكنني قررت أن أشفى منك ..شيء فيك جرّدني من عقلي يوماً ..علاقة حبّنا علاقة مرضيّة، أنت نفسك قلت هذا

سألتكِ:

لماذا عدت اليوم إذن؟ -

قلتِ:

- أريد أن تباركنا تلك المدينة ولو مرة. عدت لأقنعك بالمجيء إلى قسنطينة أدري.. تباركنا ولو كذباً، لقد تواطأت معنا وأوصلتنا إلى جنوننا هذا.. واحدة ولكن سأكون لك ما دمنا. وقد لا نتصافح.. قد لا نتحدث.. أننا لن نلتقي فيها ووحدها ستعرف أنني أمنحك ليلتي.. سنتحداهم على مرأى منها. فيها أيسعدك هذا؟.. الأولى

كم من ليلة أولى كنت تملكين؟ كم من ليلة وهمية أولى كنت قادرة على نسختين مزوّرتين لي.. أن تهبي على بياض، كما وهبتِ روايتك الأولى موقّعتين على بياض.. ولزياد.

لمن ستكونين بعد كل ليلة وهمية؟ ومع من بدأت كذبتك الأولى؟ لمن أهديت هديّتك الملغومة الأولى؟

عندما أذكر كلامك اليوم، أضحك وأنا أشبّه نفسي آنذاك بأثيوبي جائع يسردون عليه قائمة من الأطباق الشهية التي لن يذوقها، ويسألونه بعدها وإذا كان ذلك يسعده.. كيف وجدها..

يسعدني" ..ولكن وقتها لم أضحك، بل ربما بكيت وأنا أجيبك بحماقة عاشق ..".

لم أنتبه إلى أنك كنت تمنحينني ليلةً وهمية، عليّ أن أتنازل عنها مباشرة لرجل آخر، سيستفيد منها فعلياً!

مادمت أتنازل عن شيء ليس في جميع الحالات لي؟ ..ولكن هل يهم ذلك

ندعوه في المناسبات ليتكفّل.. هكذا التاريخ دائماً عزيزتي وهكذا الماضي بفتات الموائد.

نتحايل على الذاكرة، نرمي لها عظمة تتلهى بها، بينما تُنصب الموائد للآخرين.

كثيراً من الأحلام المعلّبة،.. وهكذا الشعوب أيضاً، نهبها كثيراً من الأوهام من السعادة المؤجلة، فتغضّ النظر عن الولائم التي لن تدعى إليها..

بعدما رفعت الموائد، وانسحب. ولكن لم أعِ كل هذا إلا بعد فوات الأوان أمام فتات الذاكرة.. الجميع لأبقى وحدي.

قلتُ:

- أريد أن أراكِ..

صحتِ:

- لا ..لم يعد لقاؤنا ممكناً الآن .وربما كان هذا أفضل. يجب أن نبحث عن فلا داعي لمزيد ..لتكن قسنطينة لقاءنا وفراقنا معاً .نهاية أقل وجعاً لقصّتنا من العذاب.

..قررت قتلي حسب الأصول، بجرّة سكّين واحدة، ذهاباً وإياباً ..هكذا إذن وما أغباني ..فما أرأفك بي .في لقاءٍ وفراقٍ واحد!

أكثر من سؤال ظلّ معلّقاً في الحلق، لم أطرحه عليك يومها.

..أكثر من رغبة ..أكثر من عتاب ..أكثر من لوم

ولكن هاتفك انتهى كما جاء خارج الزمان، وأنا بين الصحوة واليقظة ممدد بذهول في فراشي.

هل طلبتني حقاً في ذلك الصباح أم أنني :حتى أنني تساءلت بعدها فقط؟ ..حلمت

..ها نحن مثل أطفال إذن
نمحو كل مرة آثار الطباشير على الأرض لنرسم قوانين لعبة جديدة.

فتتّسخ ثيابنا ونصاب بخدوش .نتحايل على كل شيء لنربح كل شيء
ونحن نقفز على رجْل واحدة من مربع مستحيل إلى آخر.
كل مربع فخّ نصب لنا، وفي كل مربع وقفنا وتركنا أرضاً شيئاً من الأحلام.

كان لا بد أن نعترف أننا تجاوزنا عمر النط على رجْل واحدة، والقفز على الحبال، والإقامة في مربعات الطباشير الوهيمة.

..أخطأنا حبيبتي

الوطن لا يرسم بالطباشير، والحب لا يكتب بطلاء الأظافر.
التاريخ لا يكتب على سبورة، بيد تمسك طباشير وأخرى تمسك ..أخطأنا

..ممحاة

.والعشق ليس أرجوحة يتجاذبها الممكن والمستحيل

نسينا .لحظة عن الجري في كل الاتجاهات .دعينا نتوقف لحظة عن اللعب .ومن منا سيلتهم مَنْ ..في هذه اللعبة مَنْ مِنّا القط، ومَن الفأر

.نسينا أنهم سيلتهموننا معاً

لا .لا شيء أمامنا سوى هذا المنعطف الأخير .لم يعد أمامنا متّسع للكذب .شيء تحتنا غير هاوية الدمار

.فلنعترف أننا تحطّمنا معاً

..لستِ حبيبتي

أنت مشروع قصّتي القادمة وفرحي القادم .أنتِ مشروع حبي للزمن القادم .أنتِ مشروع عمري الآخر ..

أحبّي من شئتِ من الرجال، واكتبي ما شئتِ من القصص ..في انتظار ذلك ..

وحدي أعرف أبطالك .وحدي أعرف قصّتك التي لن تصدر يوماً في كتاب .المنسيين وآخرين صنعتهم من ورق

وحدي أعرف طريقتك الشاذة في الحب، طريقتك الفريدة في قتل من .لتؤثثي كتبك فقط ..تحبين

.أنا الذي قتلتني لعدة أسباب غامضة، وأحببتك لأسباب غامضة أخرى

أنا الرجل الذي حوّلك من امرأة إلى مدينة، وحولته من حجارة كريمة إلى .حصى

.لا تتطاولي على حطامي كثيراً

لم ينته زمن الزلازل، وما زال في عمق هذا الوطن حجارة لم تقذفها .البراكين بعد

..كفاك كل ما قلته من كذب .دعينا نتوقف لحظة عن اللعب

.أعرف اليوم أنك لن تكوني لي

.دعيني إذن، أنحشر معك يوم الحشر حيث تكونين، لأكون نصفك الآخر

دعيني أحجز مسبقاً مكاناً لي إلى جوارك، ما دامت كل الأماكن محجوزة
..حولك هنا، وما دامت مفكّرتك ملأى بالمواعيد حتى آخر أيامك

..يا امرأة على شاكلة وطن

أيهمّ بعد اليوم أن نبقى معاً؟

.حقيبة صغيرة فقط لملاقاة الوطن

..قمصان ..زجاجتيْ وسكي .ولا شي سوى بدلة سوداء لحضور حفل زفافك
.وشفرات حلاقة
!هنالك أوطان تنتج كل مبرّرات الموت، وتنسى أن تنتج شفرات حلاقة

.على أصابع الجرح أعود إلى الوطن
.دون أمتعة شخصية، دون زيادة في الوزن ولا زيادة في حساب
وحدها الذاكرة أصبحت أثقل حملاً، ولكن من سيحاسبنا على ذاكرة نحملها
بمفردنا؟

.مشياً على جرحي الأخير أعود إليه على عجل

كنت أتوقع لقاءً غير .عشر سنوات من الغياب، وها هوذا الرجوع المفاجئ
..هذا

فيحدث للذاكرة في مثل .كنت سأحجز لي مكاناً في الدرجة الأولى مثلاً
.هذه المناسبات، أن ترفض الجلوس في الكراسي الخلفية

كانت كل الكراسي الأمامية محجوزة مسبقاً، ..ولكن، لا يهم سيدتي
..لأولئك الذين حجزوا كراسي الوطن أيضاً بأمر
.فلأعد إليه كما جئت منه إذن، على كرسي جانبي للحزن

ما في .نغادر الوطن، محمّلين بحقائب نحشر فيها ما في خزائننا من عمر
.أدراجنا من أوراق

..نحشر أبوم صورنا، كتباً أحببناها، وهدايا لها ذكرى

وأخرى كنّا ..رسائل كتبت لنا ..عيون من أحبّونا ..نحشر وجوه من أحببنا كتبناها.
آخر نظرة لجارة عجوز قد لا نراها، قبلة على خد صغير سيكبر بعدنا، دمعة على وطن قد لا نعود إليه.

نحمل الوطن أثاثاً لغربتنا، ننسى عندما يضعنا الوطن عند بابه، عندما يغلق قلبه في وجهنا، دون أن يلقي نظرة على حقائبنا، دون أن يستوقفه دمعنا.. ننسى أن نسأله من سيؤثثه بعدنا.

وحفنة أحلام فقط ..نعود بحقائب الحنين ..وعندما نعود إليه.

تاتي"، فالحلم لا يستودر من محلات "بأكياس وردية"لا ..نعود بأحلام وردية الرخيصة الثمن ".

هنالك إهانات .عارٌ أن نشتري الوطن ونبيعه حلماً في السوق السوداء أصعب على الشهداء من ألف عملة صعبة!

بحقيبة يدٍ صغيرة، هنا في اللامكان ..ها أنذا.

والهاربة بي من ذاكرة إلى .في هذه النقطة المعلقة بين الأرض والسماء أجلس على مقعد في الدرجة الثانية للنسيان .أخرى.

على ارتفاع تصعب معه الرؤية، ويصعب معه .أحلّق على تضاريس حبّك تراني أرتكب آخر حماقات عمري، :وأتساءل رغم فوات الأوان .النسيان أنا الذي لم أشف بك .وأهرب منك إلى الوطن؟ أحاول أن أشفى منك به منه؟

ها هي اللوحة التي أحضرتها هدية لعرسك تشغل مكانك الفارغ إلى جواري.

..أنا وأنت _أخيراً معاً _ها نحن نسافر

ولا للاتجاه نفسه ..ولكن ليس للرحلة نفسها .نأخذ طائرة واحدة لأول مرة.

..ها هي قسنطينة

ساعتان فقط ليعود القلب عمراً إلى الوراء.

تشرع مضيفةٌ باب الطائرة، ولا تتنبّه إلى أنها تشرع معه القلب على مصراعيه .فمن يوقف نزيف الذاكرة الآن؟

من سيقدر على إغلاق شبّاك الحنين، من سيقف في وجه الرياح المضادة، وينظر إلى عينها دون بكاء ..ليرفع الخمار عن وجه هذه المدينة.

..ها هي قسنطينة إذن
وها أنذا أحمل بيدي الوحيدة حقيبة يد، ولوحة تسافر معي سفرها الأخير، بعد خمس وعشرين سنة من الحياة المشتركة.

، النسخة الناقصة عن قسنطينة، في لقاء ليليّ مع اللوحة "حنين"ها هي الأصل..

وارتباكاً ..ودهشة ..تكاد مثلي تقع من على سلّم الطائرة تعباً.

وكل .تتقاذفنا النظرات الباردة المغلقة، تتقاذفنا العبارات التي تنهى وتأمر ..هذه الوجوه المغلقة، وكل هذه الجدران الرمادية الباهتة

فهل هذا هو الوطن؟

..قسنطينة

واشك؟ ..كيف أنتِ يا اميمة

..موجعة هذه العودة ..موجعة تلك الغربة ..أشرعي بابك واحضنيني

باردٌ ليلك الجبلي الذي لم يعد يذكرني .باردٌ مطارك الذي لم أعد أذكره.

دثّريني يا سيدة الدفء والبرد معاً.

أجّلي خيبتي قليلاً ..أجلي بردك قليلاً.

قادمٌ إليك أنا من سنوات الصقيع والخيبة، من مدن الثلج والوحدة.

فلا تتركيني واقفاً في مهب الجرح.

كانت الإشارات المكتوبة بالعربية، وبعض الصور الرسمية، وكل تلك الوجوه المتشابهة السمراء، تؤكد لي أنني أخيراً أقف وجهاً لوجه مع الوطن. وتشعرني بغربة من نوع آخر تنفرد بها المطارات العربية.

..وحده وجه حسّان ملأني دفئاً مفاجئاً عندما أطلّ، وأذاب جليد اللقاء الأول مع ذلك المطار.

وعندما احتضنني، وأخذ عني حمولة يدي، وقال بلهجة جزائرية مازحة وهو يحمل عني تلك اللوحة:

"واش..مازلت تنقّل في الطابلوهات؟" ثم أضاف "آ سيدي..هذا نهار مبروك من هو اللي قال نشوفك هنا..!".

شعرت أن قسنطينة أخذت فجأة ملامحه، وأنها أخيرا جات ترحّب بي.

وهل كان حسان غير تلك المدينة نفسها..غير حجارتها..قرميدها وأزقّتها وذاكرتها؟ ..وجسورها ومدارسها

لم يغادرها إلا نادراً في هنا ولد، وهنا تربّى ودرس، وهنا أصبح مدرّسا. زيارات قصيرة إلى تونس أو إلى باريس

كان يحضر لزيارتي من سنة إلى أخرى، لكي يطمئنّ عليّ وليشتري بالمناسبة بعض لوازم عائلته التي ما فتئت تكبر وتتضاعف. وكأن حسان قرر أن يتحمل بمفرده مسؤولية عدم اندثار اسم العائلة، بعدما يئس من تزويجي وأدرك بعد محاولات إغراء فاشلة، أنه لن يكون لي بنات و لا بنون..ما عدا تلك اللوحات التي تنفرد بحمل اسمي.

أكتشف اليوم، أن هذا الرجل الفارع القامة، المهذّب المظهر، والذي يتحدث دائماً بحماسة الأساتذة وعنادهم وتكرارهم، وكأنه يواصل حديثه لتلاميذه لا غير..وليس للآخرين، هو أخي.

أكنت أجهل هذا؟ لا!

أشعر أن قرابته والفرحة..ولكن في هذا اليوم الاستثنائي الألم والخيبة! بي تصبح الأرض الصلبة الوحيدة التي يمكن أن أقف عليها وسط زلازلي الداخلية، والصدر الوحيد الذي كنت لولا الكبرياء، بكيت عليه في تلك اللحظة.

حدث خلالها في بعض المرّات أن انتظرته أنا في مطار عشر سنوات..(أورلي الدولي).

وكنت أشعر آنذاك أنني وأنا المنتظر..كان هو القادم. كانت الأدوار معكوسة أقوم بواجب عائلي لستُ ملزماً به، ولكن كنت أحرص عليه فقد كانت تلك بكل مسؤولياته وواجباته "الأخ الكبير"إحدى فرصي القليلة لألعب دور الدور الذي لم أوفّق دائماً في أدائه فقد عشت في الواقع دائماً بعيداً عن وتعلقه..حسّان، حسان الذي كنت أدرك جوعه للحنان ويتمه المبكّر العاطفي بي.

تُراه لهذا أيضاً تزوّج باكرا على عجل، وراح يكثر من الأولاد ليحيط نفسه أخيراً بتلك العائلة التي حرم منها دائماً في طفولته، والتي كنت عاجزاً عن أن أكون وغيابي المتنقّل من منفى إلى آخر ..أعوضها له بحضوري العابر.

فلماذا يقلب لقائي بحسان اليوم كل مقاييسي السابقة، ويشعرني برغم فارق العمر، وبرغم أولاده الستة، أنني الأخ الأصغر وأنه في هذه اللحظة يكبرني بسبع سنوات، وربما بأكثر..

ترى لأنه هو الذي يحمل حقيبتي ويمشي أمامي، ويسألني عن تفاصيل سفري.. أم أن هذا المطار الذي يستفزّ رجولتي وكبريائي يجرّدني من وقار عمري. فأترك حسان يتصرف فيه نيابة عني، وكأن تجربته مع هذه المدينة ومعايشته لطباعها المتقلّبة، جعلته اليوم يبدو أكبر..

حنانا ..تلك الأم المتطرفة العواطف، حباً وكراهية ..أم تراها قسنطينة وقسوة، هي التي حوّلتني بوطأة قدم واحدة على ترابها، إلى ذلك الشاب المرتبك الخجول الذي كنته قبل ثلاثين سنة؟

نظرت إليها من زجاج سيارة كانت تنقلني من المطار إلى البيت، وتساءلت:
أتراها تعرفني؟

هذه المدينة الوطن، التي تُدخل المخبرين وأصحاب الأكتاف العريضة والأيدي وتدخلني مع طوابير الغرباء وتجّار الشنطة ..القذرة من أبوابها الشرفيّة..
والبؤساء.

وتنسى أن تتأملني؟ ..هي التي تتأمل جوازي بإمعان ..أتعرفني

سُئلت أعرابية يوماً: "من أحبّ أولادك إليك؟" :قالت "غائبهم حتى يعود..
وصغيرهم حتى يكبر ..ومريضهم حتى يشفى".

ومريضها الذي لم يشف وصغيرها الذي لم يكبر.. وكنت أنا غائبها الذي لم يعد..

فلم أعتب عليها .ولكن قسنطينة لم تكن قد سمعت بقول تلك الأعرابية.
عتبت على ما قرأت من كتب التراث العربي!

لم أنم تلك الليلة..
أكان ذلك العشاء الذي أعدته عتيقة زوجة حسان، وكأنها تعدّ وليمة، والذي استسلمت له بشهية أكاد أقول تاريخية، هو الذي كان سبب قلقي، بعدما

تناولت الكثير من أطباقه التي لم أذق معظمها من سنين؟

أم أن السبب هو صدمة لقائي العاطفي الآخر مع ذلك البيت، الذي ولدت فيه وتربّيت، والذي على جدرانه وأدراجه ونوافذه وغرفه وممراته، كثير من وأيام عادية أخرى، تراكمت ذكراها في ..ذاكرتي، من أفراح ومآتم وأعياد كذكريات فوق العادة تلغي كل شيء عداها؟ ..أعماقي لتطفو الآن فجأة

ها أنا أسكن ذاكرتي وأنا أسكن هذا البيت، فكيف ينام من يتوسّد ذاكرته؟

(أمّا)أكاد أرى ذيل كندورة .مازال طيف الذين غادروه يعبر هذه الغرف أمامي وصوت أبي .العنابي يمر هنا، ويروح ويجيء بذلك الحضور السري للأمومة لينبّه "الطريق ..الطريق"يطالب بالماء للوضوء، أو يصيح من أسفل الدرج النساء في البيت أنه قادم صحبة رجل غريب، وأن عليهن أن يفسحن .الطريق ويذهبن للاختباء في الغرف البعيدة

أكاد أرى خلف الجدران الجديدة البياض آثار المسمار الذي علق عليه أبي ثم جوارها بعد سنوات شهادة .يوماً شهادتي الابتدائية منذ أربعين سنة ..أخرى

..وبعدها لا شيء

توقّف اهتمامه بي ليبدأ اهتمامه بأشياء أخرى، ومشاريع أخرى، انتهت .وزواجه الذي كان جاهزاً للاستهلاك، ومعداً في ذهنه منذ مدة (أما)بموت

يخرج مرة أخرى من ها الباب الضيق يليه حشد من (أما)أكاد أرى جثمان .ونساء يحترفن البكاء في المآتم ..قراء القرآن

ونساء ..أكاد أرى موكباً آخر يعود بعد أسابيع، بعروس صغيرة هذه المرة .يحترفن الزغاريد والمواويل
.ثم تلك الليلة التي قبّلت فيها حسان وودعته قبل أن ألتحق بالجبهة

كان حسان وهو في عامه الخامس .لم يسألني ليلتها إلى أين كنت ذاهباً .عشر، قد سبق عمره بسنوات

وعلّمه ذلّه أن يصمت ويحتفظ ..كان مثلي جعله اليتم يكبر على عجل .لنفسه بالأسئلة

:سألني

- .. وأنا؟

وأجبته بالذهول نفسه:

- انتظرني ..مازلت صغيراً يا حسان..

وخوفها المرضيّ عليّ (أما)فقال وكأنه يتقمّص فجأة صوت:

- آ خالد ..عندك على روحك..

وأجهش بالبكاء.

ها هو الوطن الذي استبدلته بأمي يوماً.
كنت أعتقد أنه وحده قادر على شفائي من عقدة الطفولة، من يتمي ومن ذلّي.

أن ..بعد كل هذا العمر، بعد أكثر من صدمة وأكثر من جرح، أدري ..اليوم هنالك مذلّة الأوطان، ظلمها قسوتها، هنالك .هناك يُتم الأوطان أيضاً جبروتها وأنانيتها.

أوطان شبيهة بالآباء ..هنالك أوطان لا أمومة لها.

***

لم أنم ليلتها حتى ساعة متقدمة من الصباح.

وما كدت أغفو .كان للقائي الليلي مع تلك المدينة مذاق مسبق لمرارة ما حتى أيقظني من غفوتي أصغر أولاد حسان، الذي استيقظ باكراً وراح يبكي بكاء رضيع يطالب بحضن أمه، ووجبته الصباحية.

وقدرته على قول ما يريد دون كلام ..حسدت براءته وجرأته الطفولية.

في ذلك الصباح، وفي أول لقاء لي مع تلك المدينة، فقدت لغتي.
شعرت أن قسنطينة هزمتني حتى قبل أن نلتقي، وأنها جاءت بي إلى هنا، لتقنعني بذلك لا غير!

ولم أشعر برغبة في مقاومة قدري.

لقد هزمت من مرّوا قبلي، وصنعت من جنونهم بها أضرحة للعبرة.

..وأنا آخر عشاقه المجانين

الآخر، وأحمق قسنطينة "أحدب نوتردام"أنا ذا العاهة الآخر الذي أحبها، أنا ما الذي أوصلني إلى جنون كهذا؟ ما الذي أوقفني عند أبواب قلبها ..الآخر عمراً؟

..وكانت تشبهك
خارجة لتوّها من التاريخ، .تحمل اسمين مثلك، وعدة تواريخ للميلاد
.وآخر للتذكار ..واحد للتداول :باسمين

.كمدينة أنثى ..قاهرة كانت ."سيرتا"كان اسمها يوماً

!في غرور العسكر ..وكانوا رجالاً

.وقبلهم آخرون ..ويوغررطة ..ماسّينيسا ..من هنا مرّ صيفاكس

.نقشوا حبّهم وخوفهم وآلهتهم .تركوا في كهوفها ذاكرتهم

تركوا تماثيلهم وأدواتهم، وصكوكهم النقدية، أقواس نصرهم وجسوراً رومانية ..

.و رحلوا ..

"ولم يبق من أسمائها سوى اسم .لم يصمد من الجسور سوى واحد ".قسطنطن"الذي منحه لها من ستة عشرة قرناً "قسنطينة

أحسد ذلك الإمبراطور الروماني المغرور، الذي منح اسمه لمدينة لم تكن .وإنما اقترن بها لأسباب تاريخية محض ..حبيبته بالدرجة الأولى

.وحدي منحتك اسما لم يكن اسمي

"وأنادي تلك المدينة .وربما لذلك، يحدث أن أعاكس قانون الحماقات هذا .لأعيدها إلى شرعيّتها الأولى "سيرتا

".حياة"كما أناديك ..تماما

.أخطأ قسطنطين ..ككلّ الغزاة

.نحن لا نمتلكها لمجرد أننا منحناها اسمنا ..المدن كالنساء

مدينة نذرت للحب والحروب، تمارس إغراء التاريخ، "سيرتا"لقد كانت وتتربّص بكل فاتح سبق أن ابتسمت له يوماً من علوّ صخرتها.

كنسائها كانت تغري بالفتوحات الوهمية..

ولكن لم يعتبر من مقابرها أحد!

والحفصيين ..والفاطميين ..والبيزنطيين ..والوندال ..هنا أضرحة الرومان ..وواحد وأربعين بايآ تناوبوا علها قبل أن تسقط في يد ..والعثمانيين الفرنسيين.

هنا وقفت جيوش فرنسا سبع سنوات بأكملها على أبواب قسنطينة.

، لم تفتح هذه المدينة الجالسة على 1830فرنسا التي دخلت الجزائر سنة ، سالكة ممراً جبليا تركت فيه نصف جيشها، وتركت 1837صخرة، إلا سنة فيه قسنطينة خيرة رجالها.

منذ ذلك اليوم، ولد أكثر من جسر حول تلك المدينة، وكثرت الطرقات المؤدية إليها.

ولكن، كانت الصخرة دائماً أكبر من الجسور، لأنها تدري أن لا شيء تحت الجسور سوى الهاوية!

تلف نفسها بملاءتها السوداء وتخفي ..ها هي مدينة تتربص بكل فاتح سرّها عن كل سائح.

تحرسها الوهاد العميقة من كل جانب، تحرسها كهوفها السرية وأكثر من وليّ صالح، تبعثرت أضرحتهم على المنعرجات الخضراء تحت الجسور.

أعبرها تلقائيا وكأنني أرسمها، .أقرب جسر لبيتي ولذاكرتي ..هنا القنطرة مشياً على الأقدام، بين الدوار المبهم والتذكار وكأنني أعبر حياتي، أجتاز العمر من طرف إلى آخر.

السيارات والعابرون وحتى .كل شيء كان يبدو مسرعاً على هذا الجسر الطيور، وكأن شيئاً ما كان ينتظرهم على الطرف الآخر.

ربما كان بعضهم يجهل آنذاك أن الذي يبحث عنه، قد يكون تركه خلفه، وأنه الفرق الوحيد هو ما في فوقه .في الحقيقة، لا فرق بين طرفي الجسر..وما تحته.

تلك الهاوية المخيفة التي يفصلك عنها حاجز حديدي لا أكثر، والتي لا

..يتوقف أحد لبنظر إليها، ربما لأن الإنسان بطبعه لا يحب أن يتأمل الموت كثيرا.

وحدي تستوقفني هذه الهاوية الموغلة في العمق.

ترى لأنني أتيتها بأفكار مسبقة وذاكرة متوارثة؟ أم سلكت هذا الطريق، لأنفرد بهذه المدينة على جسر؟

***

هنالك حماقات يجب عدم ارتكابها، كأن تأخذ موعداً مع ذاكرتك على جسر. خاصة عندما تتذكر فجأة، تلك القصة التي نسيتها تماماً منذ سنين.. بعدما ..قصة جدك البعيد الذي رمى بنفسه يوماً من جسر ربما كان هذا عندما جاءه خبر خيانته وتآمره عليه مع بعض ..توعده أحد البايات بالقتل ورجل ..هو الذي كان مبعوثه ورسوله الخاص .وجهاء قسنطينة للإطاحة به ثقته.

كان جدّي يومها أضعف من أن يقف بمفرده في وجه ذلك الأمر القاطع ..وكان أيضاً أكبر من أن يُقاد ليقف بين يدي ذلك الباي ذليلاً .بالقتل كان جدي جثة في هوة سحيقة ..ولذا عندما أرسل الباي من يحضره إليه كهذه، أسفل وادي الرمال، فقد رفض أن يمنح الباي شرف قتله.

سمعت هذه القصة مرة واحدة من فم أبي، يوم سألته عن سر هذا الاسم الذي نحمله.

فقد كان الانتحار في حدّ ذاته عاراً .يبدو أنه كان لا يحب رواية هذه الحادثة ولهذا هاجرت عائلتنا بعد ذلك إلى .وكفراً في مجتمع قسنطيني متدين ولم تعد إلى قسنطينة إلا .غرب الجزائر مستبدلة باسم نكرة اسمها الأول بعد جيل وأكثر، باسمٍ لمدينة أخرى.

أعيد نظري إلى أسفل.
ماذا تراني جئت أبحث هنا، في هذا الجسر المعلّق على ارتفاع مئة وسبعين متراً من جوف الأرض، والذي تعبره أسراب الغربان على عجل؟

يقال إنه كان وسيماً وذا ..تراني أبحث عن بقايا جدّ ما، كان اسمه أحمد ليترك حزنه وجرحه إرثاً ..مالٍ وعلم كبير، وأنه رمى يوماً كل شيء من هنا لتلك العائلة.

..هذه هي قسنطينة

مدينة لا يهمها غير نظرة الآخرين لها، تحرص على صيتها خوفاً من القيل والبُعد والهجرة ..وتشتري شرفها بالدم تارة .والقال الذي تمارسه بتفوق تارة أخرى.

تراها تغيّرت؟

أذكر أنني سمعت وأنا شاب بعائلة غادرت قسنطينة فجأة إلى مدينة اليوم، "الفرقاني"أخرى، بعدما شاع أن إحدى الأغاني التي ما يزال يغنّيها قد نظمها أحدهم تغزّلاً في إحدى بناتها!
ما الذي جئت أفعل هنا فوق هذا الجسر؟ ..ويظل السؤال
تراني على موعد مع ذاكرتي، أم فقط مع لوحتي في هذا الصباح؟
ها أنا أقف أمامها اليوم دون فرشاة ولا ألوان، وبلا قلق أو خوف من مربّع القماش الأبيض.

أنا جزء منها .لست رسّامها ولا مبدعها .أنا لست خالقها في هذه اللحظة .ويمكنني أن أصبح حتى جزءاً من تفاصيلها وتضاريسها
يمكنني أن أجتاز هذا الحاجز الحديدي الذي يفصلني عنها، وكأنني أجتاز كأنني أخترقها لأسكنها إلى الأبد ..إطار لوحة.
على ..أتدحرج نحو هذا الوادي الصخري العميق نقطة بشرية، قطرة للونٍ ما فرسمني ..لوحةٍ أبدية، لمنظر أردت أن أرسمه.
أليست هذه أجمل نهاية لرسّام، أن يتوحد مع لوحته في مشهد واحد؟

كنت أدري في تلك اللحظة وأنا أنظر إلى الوهاد العميقة تحتي، إلى تلك "الهاوية الأنثى"الأنفاق الصخرية التي يشطرها نهر الرمال ببطء زبديّ، أن كانت تستدرجني إلى العمق، في موت شبقيّ أخير، ربما كان فرصتي الأخيرة للتوحد الجسديّ مع قسنطينة، ومع ذاكرة جدّ بدأت أشعر بتواطؤ غامض معه.

ترى شهوة السقوط والتحطم هي التي أشعرتني عندئذٍ بالدوار، وأنا معلّق على ذلك الجسر وحدي؟

وحدهم .وأكاد أعتذر لها ..وإذا بي أشعر فجأة بالخجل من هذه المدينة فمتى بالتحديد وضعتني قسنطينة في .الغرباء هنا يشعرون بالدوار خانتهم؟

ورغم ذلك أعترف، أنني لم أكن يومها مستعداً للموت.

ولكن لأنني وصلت بذلك الحزن الجارف العميق .ليس تمسكاً منيّ بالحياة .الذي اجتاحني منذ وطئت هذه المدينة، إلى عاطفة غامضة متطرفة أخرى

لقد وصلت بمرارتي وخيبتي حد الطمأنينة والسعادة المبهمة.

فلقد تعلّمت أن أسخر من استفزاز الأشياء لي، وأقابل تلك المواجهة مع الذاكرة بشيء من التهكم المرّ.

ألم آت هنا إثر قرارٍ جنوني، ربما بحثاً عن الجنون في مدينة تكاد تحترفه! ولذا بدأت أتلذّذ سراً بهذه اللعبة الموجعة، وأحرص على أن أعيش صدماتي بمازوشيّة متعمّدة. فربما كانت خيبتي اليوم مع هذه المدينة، هي منجم جنوني وعبقريتي القادمة.

وبرغم ذلك قررت فجأة أن أهرب من ذلك الجسر الذي كان بداية جنوني يوماً.
فجأة تطيّرت منه، أن الذي أولعت به طويلاً وحولته إلى ديكور لحياتي، بعدما أحطت نفسي بأكثر من نسخة منه.
أيكون ذلك الإحساس جاءني، وأنا ألمح من حيث كنت تلك السفوح الجبلية وأزهار النرجس المنثور بين التي كانت يوماً مرشوشة بشقائق النعمان.. الممرات الخضراء، والتي كان أهل قسنطينة يأتون إليها كل سنة لاستقبال الربيع.. وحلويات وقهوة "براج"محمّلين بما أعدّته النساء لتلك المناسبة من والتي تبدو اليوم حزينة، وكأن أزهارها غادرتها لسبب غامض؟ ..

وإذا الذي يعود فجأة إلى الذاكرة (سيدي محمد الغراب)أم تراه منظر مزار فتعبرني بي أستعيد ما قرأته عنه مؤخراً في كتاب تاريخي عن قسنطينة. قشعريرة غامضة.

ماذا لو لاحقتني دون أن أدري اللعنة التي لاحقت صالح باي أكبر بايات قسنطينة على الإطلاق بسبب هذا الجسر؟ هو الذي كان يريد أن يختم إنجازاته المعمارية الهائلة، وإصلاحاته المختلفة التي وهبها لتلك المدينة، بإصلاح جسر القنطرة، اللسان الترابي الوحيد الذي كان يربط المدينة بالخارج، والجسر الوحيد الذي صمد من بين خمسة جسور رومانية.

(صالح باي)تقول أسطورة شعبية، إن هذا الجسر كان أحد أسباب هلاك ونهايته المفجعة..

، أحد الأولياء الذين كانوا يتمتّعون بشعبية (سيدي محمد)فقد قتل فوقه وعندما سقط رأس الرجل الولي على الأرض، تحول جسمه إلى كبيرة. غراب، وطار متوجهاً نحو دار صالح باي الريفية التي كانت على تلك السفوح ولعنه واعداً إياه بنهاية لا تقل قسوة ولا ظلماً عن نهاية الولي الذي قتله .

فما كان من صالح باي إلا أن غادر بيته وأراضيه إلى الأبد، تطيّراً من ذلك الغراب، واكتفى بداره في المدينة.

، ليبقى "سيدي محمد الغراب"هكذا أطلق الناس على ذلك المكان اسم بعد قرنين مزار المسلمين واليهود في قسنطينة، يأتونه في نهايات الأسبوع وفي المواسم، لقضاء أسبوع كامل يرتدون خلاله ثياباً وردية، يؤدون بها طقوساً متوارثة جيلاً عن جيل، فيقدّمون له ذبائح الحمام، ويستحمون في المياه الدافئة لبركته الصخرية حيث كانت تستحمّ السلاحف، ويعيشون لا غير، والاستسلام لنوبات رقص بدائية، في حلقات "العروق"على شرب ."الفقيرات"على وقع بندير ..جماعية يؤدونها في الهواء الطلق

ولكن قسنطينة، لم تحقد على بايها الذي وهبها الكثير من الوجاهة .والرفاهية
.بين القاتل والقتيل ..سوّت فقط بطيبة أو بجنون

أشهر مزار وليّ قسنطيني على (سيدي محمد الغراب)صنعت من .الإطلاق، في مدينة يحمل كل شارع فيها اسم وليّ
وخلّدت من بين واحد وأربعين بايا حكمها، اسم صالح باي وحده، فكتبت فيه ومازالت تلبس .أجمل أشعارها، وغنّت فجيعة موته في أجمل أغنية رثاء !دون أن تدري ..حداده حتى اليوم مع ملاءات نسائها السوداء

..هذه هي قسنطينة
لا فرق بين لعنتها ورحمتها، لا حاجز بين حبّها وكراهيّتها، لا مقاييس .معروفة لمنطقها
.تمنح الخلود لمن تشاء، وتنزل العقاب بمن تشاء
فمن عساه يحاسبها على جنونها، ومن عساه يحسم موقفه منها، حباً أو دون أن يعترف أنها تحمل في كل الحالات ضدّها؟ ..إجراماً أو براءةً ..كراهية

***

في كل يوم كنت أقضيه في تلك المدينة، كنت أتورط أكثر في ذاكرتها، فرحت أبحث في سهراتي مع حسان، وأحاديثنا الجانبية الطويلة، التي .عن وصفة أخرى للنسيان ..تمتد بنا أحياناً حتى ساعة متأخرة من الليل

أبحث في ذلك الجو العائلي الذي افتقدته طويلاً عن طمأنينة أخرى خارج .فضائها
.كان لوجودي في ذلك البيت العائلي الذي أعرفه ويعرفني، تأثير على لقد .وربما كان سندي السريّ الذي لم أتوقّعه .نفسيّتي في تلك الأيام كنت أعود إليه كل ليلة، وكأنني أصعد نحو دهاليز طفولتي البعيدة، لأصبح ..جنيناً من جديد

.أختبئ في جوف أمٍ وهمية، مازال مكانها هنا فارغاً منذ ثلاثين سنة

يحدث في تلك الليالي أن أذكر زياد، يوم أقام عندي لبضعة أشهر في الجزائر، عندما رفض مستأجره أن يجدّد له عقد إيجار البيت.

تعوّدت وقتها أن أترك له سريري، وأنام على فراش آخر وضعته على الأرض في غرفة أخرى.
وكان زياد يحتج ويشعر بشيء من الإحراج، معتقداً أنني أفعل ذلك مجاملة له.

وكنت أوكّد له كل مرة، أنني اكتشفت بفضله أنني أسعد أكثر بالنوم على الأرض. فقد كان ذلك الفراش الأرضي يذكّرني بطفولتي وبنومي إلى جوار أمي لعدة سنوات، على ذلك المطرح الصوفي الذي ما زلت أذكر لونه الأزرق كل خريف، لغسل الصوف وتجديد (أمّا)بل وتلك الأيام التي كانت تخصّصها تلك المطارح الصوفية التي كانت الأثاث الأساسي لغرفة نومي.

تمنّيت لو طلبت من عتيقة أن تضع لي في المستقبل فراشاً على الأرض، تماماً كما تفعل مع أولادها الذين ينامون في الغرف الأخرى، على فراش أرضي مشترك يوحي بالدفء والرغبة بالانزلاق تحت أغطيته الصوفية الجميلة التي تثير غيرتي وحنيني لزمنٍ لم أعد أدري لبعده، إن كنت عشته أم تخيّلته ..حقاً.

ولكن أيعقل أن أطلب هذا الطلب من عتيقة؟ هي التي أعطتني أجمل غرف بيتها، غرفة نومها العصرية المعدّة لاستقبال الضيوف، أكثر منها لقضاء ليالٍ زوجية..؟ للحب
فقد كانت لو فعلت هذا فلربما أحرجتها، ولما وجدت تفسيراً لجنوني هذا. عتيقة تشارك أحياناً في سهرتنا، وتحاول أن تستنجد بي، بصفتي رجلاً متحضّراً قادماً من باريس، لأقنع أخي بالتخلي عن هذا البيت العربي القديم، وهذه الطريقة المتخلّفة في العيش وتكاد تعتذر لي عن كل الأشياء التي كانت تبدو في نظري جميلة ونادرة..

ولأنني لم أكن أملك القدرة على إقناعها برأيي، ولا الجرأة على معاكسة رأيها، كنت أكتفي بالاستماع إلى نقاشها مع حسان، ذلك النقاش الذي يكاد يتحول أحياناً إلى شجار قبل أن تنسحب هي إلى النوم، ويعلّق حسان شبه معتذر:

" على التلفزيون، أن (دالاس)لا يمكن أن تقنع امرأة تشاهد مسلسل لا بد أن يوقفوا هذا المسلسل، ماداموا تسكن بيتاً كهذا وتحمد الله.. وحياة أفضل عاجزين عن منح الناس سكناً محترماً..".

وأعجب بفلسفته في الحياة. كنت أحسد قناعة حسان.

فإذا كان في .لكي تكون سعيداً عليك أن تنظر إلى من تحتك" :كان يقول
.يدك قطعة رغيف، ونظرت لمن ليس في يده شيء، ستسعد وتحمد الله
فأنت لن "كعك"وأما إذا رفعت رأسك كثيراً ونظرت لمن في يدهم قطعة
".!وتتعس باكتشافك ..تشبع، بل ستموت قهراً فقط

وهكذا ففي نظر حسان أن العيش في بيت كهذا برغم كل سلبياته التي
تبدو أحياناً مزعجة، بتفاصيلها الصغيرة التي تجاوزها العصر، يظل أفضل مما
بل وعشرات الآلاف الذين لم يجدوا بيتاً واسعاً كهذا .يعانيه آلاف الناس
بل كثيراً ما يتقاسمون مع أهلهم .يسكنونه بمفردهم مع أولادهم وزوجتهم
.وأقاربهم، الشقة الضيقة التي تكون بيتاً لعائلتين لعدة سنوات

..هكذا كان حسان
لقد كانت نظرته إلى الأشياء نظرة عمودية، فقد تعلم كل ما تعلمه في "
".صباه على سبورة بالحائط..
وكان سعيداً بتلك النظرة التي قد تعود أيضاً إلى عقليته كموظف محدود
!ومحدود الأحلام ..الدخل
فَمِمَ يمكن أن يحلم أستاذ للعربية يقضي يومه في شرح النصوص الأدبية،
وتصحيح أخطائهم ..وسرد سيرة الكتّاب والشعراء القدامى على تلاميذه
لشرح ما كان _أو الجرأة_النحوية والإنشائية، ولا يجد متسعاً من الوقت
يحدث أمامه، وتصحيح أخطاء أكبر ترتكب على مرأى منه باسم كلمات
.خرجت فجأة من اللغة، لتدخل قاموس الشعارات والمزايدات؟
ولكنه .كان في أعماق حسان مرارة غامضة تبدو على كل تفاصيل حياته
.كان يحتفظ بها لنفسه

من الواضح أنه كان متعباً وغارقاً في مشكلات أولاده الستّة وزوجته الشابة
وأما هو فلم يكن يجرؤ .التي تحلم بحياة أخرى غير حياة قسنطينة المغلقة
على الحلم، أو بالأحرى كان يحلم آنذاك بالعثور على شخص يتوسط له
!لا غير ..ليحصل على ثلاجة جديدة

عندما عرفت أمنيته البسيطة الصعبة، حزنت وأنا أكتشف أننا لم نكن
وبدا ..متخلّفين عن أوربا وفرنسا فقط، كما كنت اعتقد، وإلا لهان الأمر
يوم كنّا تحت .لقد كنا متخلّفين عما كنّا عليه منذ نصف قرن وأكثر .منطقياً
.الاستعمار

.وأحلامنا أكبر ..يومها كانت أمنياتنا أجمل

يكفي أن تتأمل وجوه الناس اليوم وأن تسمع أحاديثهم وأن تلقي نظرة
.على واجهات المكتبات لتفهم ذلك
.مع كل نشرة أخبار إلى كل شعوب العالم ..يومها كنّا وطناً يصدّر الأحلام

وكانت هذه المدينة بمفردها تصدّر من الجرائد والمجلات والكتب ما لا تصدّره

.ولا عداً ..اليوم المؤسسات الوطنية لا نوعاً

والشعراء والظرفاء والكتاب، ما يملأنا ..يومها كان لنا من المفكرين والعلماء .زهواً وغروراً بعروبتنا

لم يعد أحد يشتري الجرائد ليحتفظ بها في خزانة، إذ لم يعد في ..اليوم .الجرائد ما يستحق الحفظ

لقد أصبح البؤس الثقافي .ولم يعد أحد يجلس إلى كتاب ليتعلّم منه شيئاً لقد كانت الكتب " .ظاهرة جماعية، وعدوى قد تنتقل إليك وأنت تتصفّح كتاباً دائماً على صواب في ذلك العهد، وكان الواحد منّا فصيحاً يتكلم كما تتكلم ".."..الكتب

..ولذا تقلّص صدقنا .مثلها مثل الجرائد ..واليوم أصبحت الكتب تكذب أيضاً وماتت فصاحتنا، منذ أصبح حديثنا يدور فقط حول المواد الاستهلاكية !المفقودة

عندما قلت يومها هذا الكلام لحسان، ظل يتأملني بذهول وكأنه اكتشف :ثم قال بشيء من الحسرة ..شيئاً لم ينتبه له من قبل

وانتصارات .لقد خلقوا لنا أهدافاً صغيرة لا علاقة لها بقضايا العصر ..صحيح - فردية وهمية، قد تكون بالنسبة للبعض الحصول على شقة صغيرة بعد أو قد تكون الحصول على ثلاجة، أو التمكن من شراء ..سنوات من الانتظار ولا أحد عنده متسع من الوقت والأعصاب !أو حتى دواليبها فقط ..سيارة ..ليذهب أكثر من هذا، ويطالب بأكثر من هذا

أهلكتنا هموم الحياة اليومية المعقّدة التي تحتاج دائماً إلى ..نحن متعبون فكيف تريد أن نفكّر في أشياء أخرى، عن أيّ .وساطة لحل تفاصيلها العادية لقد تحولنا ..وما عدا هذا ترف ..حياة ثقافية تتحدث؟ نحن همّنا الحياة لا غير ..إلى أمة من النمل، تبحث عن قوتها وجحر تختبئ فيه مع أولادها لا أكثر

:سألته بسذاجة

وماذا يفعل الناس؟ -

:قال مازحاً

والبعض الآخر ينتحر، ..والبعض يسرق ..البعض ينتظر ..؟ لا شيء..الناس - !والحجة نفسها ..هذه مدينة تقدم لك الاختيارات الثلاثة بالمبررات نفسها

وانتابتني فجأة قشعريرة مبهمة ..يومها خفت على حسان من تلك المدينة

.

وكأنني أسأله أي الوصفات الثلاثة أختار ..سألته دون تفكير:

- وهل لك أصدقاء هنا تلتقي بهم؟ ..وتخرج معهم

أجابني وكأنه يعجب لسؤالي، أو يسعد لاهتمامي المفاجئ بكل تفاصيل حياته:

- لي أصدقاء معظمهم مدرسون معي في الثانوية .. ما عدا هذا ليس لي أحد.. لقد فرغت قسنطينة من أهلها، ورحلت كل العائلات القديمة التي عرفناها.

وراح يسرد عليّ أسماء عائلات كبيرة هاجرت أو راحت تستقر في العاصمة جاء معظمهم من القرى و المدن ..أو في الخارج، لتترك تلك المدينة لآخرين الصغيرة المجاورة.

قبل أن يضيف تلك الجملة التي لم تستوقفني ساعتها، والتي أخذت بعد ست سنوات كل أبعاد القدر الأحمق، قال:

- لقد أصبح سكان هذه المدينة الأصليون، لا يزورونها سوى في الأعراس.. أو في المآتم!

وقبل أن أعلّق على كلامه، أضاف وكأنه تذكّر شيئاً:

- سأعرفك على ناصر ابن سي الطاهر من المؤكد أنه سيأتي بعد غدٍ .. لقد أصبح رجلاً بطولك وبضخامتك، وهو يتردد .. سترى .لحضور زواج أخته إنه الوحيد الذي .عليّ منذ بضعة أشهر، منذ قرّر أن يستقر في قسنطينة لا أحد يصدّق !تصور ..لقد رفض حتى منحة إلى الخارج .قام بهجرة معاكسة عندما سألته لماذا لم يسافر مثل الآخرين ويهرب من هذا البلد، قال ..هذا كل أصحابي الذين سافروا لم يعودوا ..أخاف إن سافرت ألا أعود أبداً" :لي ..".

ضحكت وأنا أكتشف هذا التطرف الذي يذكّرني بك، وكأنه سمة عائلية أو ..وشعرت برغبة في إطالة ذلك الحديث الذي كان يؤدي إليك بطريقة ..بأخرى

سألته:

- وماذا يفعل الآن؟

- لقد أعطوه بصفته ابن شهيد محلاً تجارياً وشاحنة يعودان عليه بدخل كبير ولكنه مازال ضائعاً متردداً، يفكر أحياناً في مواصلة دراسته، ثم أحياناً . فمن المؤسف .والحقيقة أنني عاجز عن نصحه .أخرى في التفرّغ للتجارة أن ينقطع إنسان عن دراسته العليا، لأنه سيظل يشعر بذلك النقص طوال ومن ناحية أخرى، لم تعد تفيد الشهادات اليوم في شيء حسب ..حياته قوله، وهو يرى شباباً بشهادات عليا عاطلين عن العمل، وآخرين جهلة ليس هذا زمناً ..يتنقّلون في سيارات مرسيدس ويسكنون فيلات فخمة فكيف يمكن أن تقنع اليوم صديقك أو حتى ..إنه زمن الشّطارة ..للعلم ..لقد اختلت المقاييس نهائياً .تلميذك بالتفاني في المعرفة؟

:قلت لحسان

هل المال هو ..المهم أن يعرف الإنسان ما هو هدفه الحقيقي في الحياة أم المعرفة وتوازنه الداخلي؟ ..مشكلته الأولى

:ردّ حسان مازحاً

- لا أحد فينا يدري .نحن شعب نصف مختلّ ..؟ عن أي توازن تتحدث..توازن إن المشكل الحقيقي هو هذا ..ولا ماذا ينتظر بالتحديد ..ما يريد بالضبط إنه يفقدك .الجو الذي يعيشه الناس، وهذا الإحباط العام لشعبٍ بأكمله ولا ..فلا المثقفون سعداء .شهية المبادرة والحلم والتخطيط لأي مشروع ماذا يمكن أن ..قل لي يرحم والديك .الجاهلون ولا البسطاء ولا الأغنياء تفعل بعلمك إذا كنت ستنتهي موظفاً يعمل تحت إشراف مدير جاهل، وُجِد لكثرة معارفه وعرض أكتافه ..في منصبه مصادفة ليس لسعة معرفته، وإنما سوى أن تدفعها ..وماذا يمكن أن تفعل بأموالك في قسنطينة مثلاً !. أو تقيم ..عمولة لتحصل على شقة غير صالحة للسكن في معظم الأحيان ؟ أما إذا كان كل ما تملكه لا يتجاوز العشرين "الفرقاني"عرساً بها يغنّي فيه لمسؤول محليّ يختبئ "شراب قهوة"فيبقى أمامك أن تدفعها ..ألف دينار وهكذا يمكنك أن تؤدي .خلف أيّ موظّف آخر، ليبيع جوازات سفر إلى الحجّ !بعدما ضاقت بك الدنيا ..فريضتك وتحجز لك غرفة صغيرة في الآخرة

:صحت عجباً

؟!هل يبيعون جوازات سفر إلى الحج بمليونين ..أحقاً تقول ..واش -

- لأن الحكومة حددت عدد الحجاج كل عام بسبب تكاليفهم الباهظة ..طبعاً بالعملة الصعبة، بعدما اكتشفت أن معظمهم يسافر عدة مرات لأسباب لا وإلا كيف تفسر أن يكون .علاقة لها بالحج، وإنما لأغراض تجارية محض بعضهم قد حج ست مرات أو سبعاً دون أن يكون ذلك واضحاً على سلوكه لا تفارق الخمرة بيته، وأعرف آخر "سوكارجي"وأخلاقه؟ أنا أعرف حاجاً ..وتغيير العملة الصعبة في الأسواق السوداء ..."البزنيس"متفرغاً للترافيك و

يمكنهم أن يحصلوا على عشرين ألف .هؤلاء مازالوا يسافرون كل عام للحج وأما أنا فمن أين لي هذا المبلغ لأقوم بتأدية فريضتي، .دينار بسهولة ودخلي لا يتجاوز الأربعة آلاف دينار في الشهر؟

:قلت له وأنا أنتقل من دهشة إلى أخرى

- هل تنوي الحج؟ ..علاش

- ألست مسلماً؟ لقد عدت إلى الصلاة منذ سنتين ولولا ..ولم لا ..طبعاً كيف يمكن أن تصمد أمام كل هذا المنكر وهذا .إيماني لأصبحت مجنوناً :انظر حولك ..الظلم دون إيمان؟ وحدها التقوى تعطيك القدرة على الصمود لقد توصّل جميع الناس إلى هذه النتيجة وربما الشباب أكثر من غيرهم وحتى ناصر نفسه أصبح يصلّي منذ ..لأنهم الضحية الأولى في هذا الوطن !عدوى أيضاً ..عاد إلى قسنطينة، ربما لهذا السبب وربما لأن الدين كالكفر لو رأيتهم يوم الجمعة يتجهون إلى المساجد بالآلاف حتى ..والله يا خالد لوقفت معهم تصلي دون أن ..وتفيض بهم الشوارع ..تضيق بهم جدرانها !تتساءل لماذا

لم أجد شيئا أعلّق به على كلام حسان في تلك السهرة العجيبة، التي فقد كان حسان سعيداً بوجودي، وسعيداً ببدء .طالت بنا حتى الثانية صباحاً العطلة الصيفية التي تسمح له بالسهر والتحدث إليّ طويلاً بعد كل هذه .السنوات التي باعدتنا

ويعري أمامي هذا الوطن الذي كنت كسوته حنيناً وعشقاً ..فتركته يتحدث .وجنوناً
أكان يخاف عليّ من خيبتي،ويخشى أن يفقد فرحة عودتي إليه وإلى هذا الوطن مرة أخرى، عندما كان يتوقف أحياناً عن الحديث لينتقل بي إلى موضوع آخر؟ كأن يستدرجني مثلاً بطريقة غير مباشرة إلى الدين وإلى ويغريني بالتوبة، وكأن وجودي في فرنسا بحد ذاته قد .التقوى والإيمان .أصبح ذنبا وكفراً

.أهذا هو حسان؟

لم أمنع نفسي ساعتها من الابتسام وأنا أتذكر أنني أحضرت له معي ..زجاجتيْ ويسكي كالعادة
..حاولت أن ألخصها، أن أحصرها .تساءلت ليلتها وأنا في فراشي عن ذنوبي ..فلم أجدها أكبر من ذنوب غيري، بل وربما وجدتها أقل بدرجات

..ولا خائناً ..ولا سكّيراً ..ولا كاذباً ..ولا كافرا ..ولا مقامراً ..لم أكن مجرماً .لم تكن لي زوجة ولا سرير شرعي استبدلت به آخر

السنوات "نصفها تماماً ما يمكن أن أسمّيه .خمسون سنة من الوحدة
.تلك التي قضيتها بذراعٍ واحدة، مشوّه الجسد والأحلام "المعطوبة

منذ حبّي الأول لتلك الجارة اليهودية .لم أعد أذكر .كم أحببت من النساء؟
..إلى نساء أخريات .إلى تلك الممرضة التونسية التي أغرتني .التي أغريتها
لم أعد أذكر أسماءهن ولا ملامحهن، تناوبن على سريري لأسباب جسدية
..محض، وذهبن محملات بي لأبقى فارغاً منهن

..وجئتِ أنتِ
المرأة الوحيدة التي لم أمتلكها، والذنب .أكبر ذنوبي على الإطلاق كنت أنتِ
.الوحيد الذي لم أقترفه حقاً
اليد .."ذنوب اليد اليمنى"لقد كانت ذنوبي معك، هي ما يمكن أن أسميه
!وهما ..واغتصبتك بها ..واستحضرتك بها ..الوحيدة التي رسمتك بها

؟!فهل سيعاقبني الله على ذنوب يدٍ لم يترك لي سواها
!ليس الفضيلة تجنّب الرذيلة، الفضيلة في ألا تشتهيها" :لا أذكر من قال

.لم أكن رجلاً فاضلاً ..وأعتقد أنني بهذا المفهوم فقط
كان لحبك طعم .وألا أبدأ رذيلتي معك ..فقد كان لا بد ألا أشتهيك أنتِ
المحرمات والمقدسات التي يجب تجنّبها، والتي كنت أنزلق نحوها دون
.تفكير

لقد كان الأمر المدهش حقاً في قصتي معك، أن تكون المبررات التي
ولهذا ربما .جعلتني أحبك، هي التي كان يجب أن تجعلني أعدل عن حبك
وبالتطرف نفسه كل .أكثر من مرة في اليوم ..كنت أحبك وأعدل عن حبك
.مرة

وأنا لا أفعل شيئاً في النهاية هنا، سوى البحث عن حدٍ لهذا المدّ والجزر
.العاطفي الذي أعيشه معك كل لحظة
كنت أدري أن العاشق مثل المدمن، لا يمكن أن يقرر بمفرده الشفاء من
ولكنه لا .دائه، وأنه مثله يشعر أنه ينزل تدريجياً كل يوم أكثر نحو الهاوية
يمكن أن يقف على رجليه ويهرب، مادام لم يصل إلى أبعد نقطة في
.الجحيم، ويلامس بنفسه قعر الخيبة والمرارة القصوى

..وكنت سعيداً في تلك الليلة
تلك السعادة الغامضة المرة، لأنني كنت أدري أن كل شي سوف يحسم
.في اليومين القادمين، وأنني بطريقة أو بأخرى سأنتهي منك

كانت زوجة حسان في تلك السهرة منهمكة في إعداد نفسها للحدث
.الهام، ولمرافقة الموكب النسائي في الغد إلى الحمام، ثم إلى ليلة الحنة

وكانت كثيرة الحركة ومشغولة عنا وعن أولادها بهمومها النسائية، وبما ستأخذه في حقيبتها من ثياب للحمام، حيث ستستعرض النساء مثل ليتظاهرن بغناهنّ الكاذب في ..العادة كل شيء حتى ثيابهن الداخلية أو ليقنعن أنفسهن فقط، أنهن مازلن برغم كل شيء ..معظم الأحيان والتي ..قادرات على إغراء رجل، تماماً مثل تلك العروس التي يرافقنها يتأمّلنها بحسد سريّ.

وينتهي ذلك الزمن الذي سرقناه من ..غداً تبدأ طقوس أفراحك ..فليكن الزمن.

أجمل الأحلام إذن سيدتي في انتظار غدك.

أيها الحزن ..ولتصبح على خير!

***

ويرمي بي في الشوارع ..يوقظني الحب المضاد في هذا الصباح الصيفي.

قررت حال استيقاظي أن أهرب من البيت، ومن حديث عتيقة الذي لا ينقطع عن مراسيم الحفل، وعن أسماء الشخصيات والعائلات الكبيرة التي جاءت خصيصاً لتحضر ذلك الحدث الذي لم تشهد قسنطينة مثله منذ سنوات.
ولكنها لحقت بي حتى الباب لتواصل حديثها:

- على بالك ..يقال إنهم حضروا كل شيء من فرنسا ..منذ شهر والطائرة ..يا حسرة ..لو رأيت جهاز العروس وما لبسته البارحة ..تنقل لوازم العرس ..وواحد يوانس فيه ..واحد عايش في الدنيا"قال لك"!

أجبتها وأنا أغلق خلفي الباب، وكأنني أغلق بعنف أبواب قلبي:

- ما عليهش ..ما عليهم والطائرات أيضاً .البلد لهم كما أخذوا ويمكنهم أن يجلبوا إليه منه ما شاؤوا!

أين أهرب؟

سواي ..ها أنا أوصدت الباب خلفي، وإذا لا شي أمامي.

رميت بخطاي دون تفكير وسط أفواج المارة الذين يجوبون الشوارع هكذا كل يوم دون جهة محددة.

أنت تملك الخيار بين أن تمشي، أو تتكئ على جدار، أو تجلس في هنا.. على حائط الرصيف المقابل ..مقهى لتتأمل الذين يمشون أو يتكئون أمامك ..

رحت أمشي..

شعرت في لحظة ما، أننا نطوف جميعاً حول هذه المدينة الصخرة، دون أن وعلى ماذا يجب أن نفعل بغضبنا، ماذا يجب أن نفعل ببؤسنا ..ندري تماماً.. من نرمي هذا الحصى الذي امتلأت به جيوبنا الفارغة.

أم من الأوْلى بالرّجم في هذا الوطن؟ من؟ ذلك الجالس فوق الجميع.. أولئك الجالسون فوقنا؟

"الأصفار تدور حول نفسها" ..حضرني لحظتها عنوان رواية لمالك حداد.

تمنيت لو أنني قرأتها، عساني أجد تفسيراً لكل هذه الدوائر التي تحولنا إليها.

ثم قادتني أفكاري إلى مشهد شاهدته يوماً في تونس لجمل مغمض العينين)سيدي بوسعيد(بوسعيد، يدور دون توقف في ساحة ، ليستخرج الماء من بئر أمام متعة السواح ودهشتهم.

استوقفني يومها عيناه اللتان وضعوا عليهما غمامة ليتوهم أنه يمشي إلى الأمام دائماً، ويموت دون أن يكتشف أنه كان يدور في حلقة مفرغة وأنه .. قضى عمره دائراً حول نفسه!

ترانا أصبحنا ذلك الجمل الذي لا يكاد ينتهي من دورة حتى يبدأ أخرى تدور به بطريقة أو بأخرى حول همومه الصغيرة اليومية؟

تُرى هذه الجرائد التي تحمل لنا أكياساً من الوعود بغدٍ أفضل، ليست سوى رباط عينين، يخفي عنا صدمة الواقع وفجيعة الفقر والبؤس الحتمي الذي أصبح لأول مرة يتربص بنصف هذا الشعب؟

تراني لم أعد أعرف المشي إلى الأمام في خط مستقيم لا يعود بي وأنا.. إلى هذا الوطن الذاكرة؟ ..تلقائياً إلى الوراء

من أين له هذه القدرة الخارقة على لَيّ المستقيمات، وهذا الوطن..

!وأصفار ..وتحويلها إلى دائرة

.ها هي الذاكرة سياج دائري يحيط بي من كل جانب
وفي كل اتجاه أسلكه تمشي إلى .تطوّقني أول ما أضع قدمي خارج البيت
..جواري الذكريات البعيدة

أبحث عن المقاهي القديمة تلك ..فأمشي نحو الماضي مغمض العينين
التي كان لكل عالم أو وجيه مجلسه الخاص فيها، حيث كانت تعد القهوة
كان .ويخجل نادل أن يلاحقك بطلباته ..على الوجاق الحجري وتقدم بالجزوة
.يكفيه شرف وجودك عنده

في ذلك الزمن كان لابن باديس المقهى الذي كان يتوقف عنده، وهو في
.(مقهى بن بامينة)كان اسمه .طريقه إلى المدرسة

حيث كان مجلس بلعطّار وباشتارزي وحيث (مقهى بو عرعور)وكان هنالك
.كنت ألمح أبي أحياناً وأنا أمر بهذا الطريق

أين ذلك المقهى لأحتسي فيه هذا الصباح فنجان قهوة نخب ذكراه؟

في ..كيف أعثر على مقهى لم يكن كبيراً سوى بأسماء رواده؟ كيف أجده
وإذا بها .هذا الزمن الذي كبرت فيه المقاهي وكثرت، لتسع بؤس المدينة
متشابهة وحزينة كوجوه الناس؟

حتى تلك الهيبة التي كانت سمة أهل قسنطينة، .لم يعد يميزها شيء
.وذلك الشاش والبرنس المتألق بياضاً، أصبح نادراً وباهتاً اليوم

ربما كان أول ما لفت نظري ذلك الصباح، ذلك الزيّ الموحّد لتلك المدينة
ذلك اللون القاتم المتدرج والمشترك .التي تستيقظ كما تنام بحزن غامض
.بين الجنسين
.النساء ملفوفات بملاءاتهن السوداء التي لا يبدو منها شيء سوى عيونهن
ولا ..والرجال في بدلاتهم الرمادية أو البنية التي لا تختلف عن لون بشرتهم
.والتي يبدون وكأنهم اشتروها جميعاً عند خياط واحد .لون شعرهم

وقلما كان يبدو من بين الحشود نقطة ضوء، أو لون زاهٍ لفستانٍ أو لبدلةٍ
.صيفية

تراني كنت أنظر ذلك الصباح إلى تلك المدينة، بعيون رسام لا تلفت نظره
أم تراني كنت أراها فقط .سوى الألوان، ويكاد لا يرى سواها في كل شيء
بعيون الماضي وخيبة الحاضر؟

شعرت .رميت بنفسي وسط أمواج الرجال الضائعين مثلي في تلك المدينة

لأول مرة أنني بدأت أشبههم.

فلا أملك إلا أن أمشي .مثلهم أملك وقتاً ورجولة لا أدري ماذا أفعل بها وبؤسي ..محملاً ببؤسي الحضاري ..ساعات في الشوارع كما يمشون الجنسي الآخر.

في لون شعرنا ولون بدلتنا وجرّ .ها نحن نتشابه فجأة في كل شيء أحذيتنا وخطانا الضائعة على الأرصفة.

ولكن هل يغير ذلك شيئاً؟ .نتشابه في كل شيء، وأنفرد وحدي بك

.حبك الذي استدرجني حتى هذه المدينة، أعادني إلى تخلّفي دون علمي رمى بي وسط هذه الجموع الرجالية، التي تسير ببطء تحت الشمس الصيفية، دون وجهة محددة، ودون أن تدري ماذا تفعل بتلك الأشعة التي تختزنها الأجساد المحمومة في النهار، وتنفقها الأيدي البائسة سرّاً في في الملذات الفردية ..الليل.

.تتوقف فجأة خطواتي أمام جدران بيت لا يشبه بيوتاً أخرى

وكان لها ثلاثة أبواب تؤدي إلى .يرتادها الرجال "دار مغلقة"هنا كانت أكبر شوارع وأسواق مختلفة.

لقد كانت في الواقع داراً مغلقة مشرعة، مدروسة ليتسلل إليها الرجال من أية جهة، ويخرجوا منها من أية جهة أخرى.

كان الرجال يؤمونها من كل صوب، هرباً من المدن والقرى المجاورة، التي لا ملّذات فيها ولا نساء.
وكانت النساء الجميلات والبائسات، يأتين أيضاً من كل المدن المجاورة ليختفين خلف هذه الجدران المصفرة، التي لا يخرجن منها إلا عجائز لينفقن ثروتهن في الصدقات والحسنات، وتطهير الأيتام في موسم توبتهن الأخيرة.

!..هنا أنفق أبي ثروته ورجولته

أحاول ألا أتوقف عند ذلك البيت الاستثنائي، الذي كان لعدة سنوات سبب حزن أمي السري، وربما موتها قهراً.

وكان لعدة سنوات أيضاً سرّ نشوتي السرية، وأحلامي المكبوتة أيام صباي، يوم كنت أحلم به ولا أجرؤ على دخوله، ربما خوفاً من أن ألتقي بأبي هناك، وربما أيضاً لأنني كنت مكتفياً بمغامراتي العابرة المسروقة فوق السطح تارة، أو في غرف المؤونة التي قلما يفتحها أحد..

من "البيت"اليوم لم يعد أبي هناك ليمنعني احتمال وجوده في هذا الدخول.

لقد رحل بعدما ترك تاريخه بامتياز خلف هذه الجدران، تماماً كما يفعل أيّ فلسطيني ثري ومحترم على أيامه.

ألم تكن جدتي تقول وقتها لتعلم أمي الصبر، وتعودها على تقبّل تلك الخيانة بفخر: "إن ما يفعله الرجال..طرّز على أكتافهم"!.

دون أن يدري (أمّا)وكان أبي يطرّز مغامراته جرحاً ووشماً على جسد.

لست أدري "البيت"ماذا أصبح هذا..
بعدما أغلقت أبوابه الأخرى، يُقال إنهم أغلقوه وربما ظل له باب واحد فقط.. في إطار سياسة تقليص الملذات في هذه المدينة، أو احتراماً لعشرات المساجد التي نبتت على صدر هذه الصخرة، والتي يرتفع صوتها مجتمعة مرات في اليوم، ليذكّر الناس بمزايا الإيمان والتوبة..

وكنت في تلك اللحظة، كمعظم رجال هذه المدينة، أقف في الحد الفاصل بين شهوة الجسد وعفة الروح. يتجاذبني إلى أسفل النداء السري لتلك ويسمو بي إلى أعلى ذلك حيث تحلو الخطايا..الغرف المظلمة الشبقية.. النداء الآخر، لتلك المآذن التي افتقدت طويلاً تكبيرها، ورهبة آذانها الذي كان يدعو إلى الصلاة، فيخترق بقوته دهاليز نفسي، ويهزني لأول مرة منذ سنوات.
لقد أصبحت في بضعة أيام رجلاً مزدوجاً كهذه المدينة، وبدأت أعي أن ليس في هذا العالم المسكون بالأضداد من مدن بريئة.ومدن فاجرة.

وأخرى أقل نفاقاً فقط..هنالك مدن منافقة..

وقسنطينة أكثر المدن وحرفة واحدة..وليس هناك من مدن بوجه واحد.وتناقضاً..وجوهاً.

ثم تردعك بالقوة نفسها التي ها هي مدينة تستدرجك إلى الخطيئة.تستدرجك بها.

شيء ما في هذه المدينة يغري كل شيء هنا دعوة مكشوفة للجنس..صباحاتها الدافئة الكسلى..قيلولاتها التي لا تنتهي :بالحب المسروق أنفاقها السرية طرقاتها المعلّقة بين الصخور.وليليها الموحش المفاجئ.. غابات منظر جبل الوحش وما حوله من ممرات متشعّبة..الموبوءة الرطوبة.وكل تلك المغارات والأنفاق المختبئة..الغار والبلّوط.

عليك أن تكتفي بالتفرج على عادات النفاق المتوارثة هنا من أجيال، ولكن..

!وترتبك ..وتتحاشى النظر إلى هذه المدينة في عينيها حتى لا تربكها

فالجميع هنا يعرفون أن خلف شوارعها الواسعة تختبئ الأزقّة الضيقة الملتوية، وقصص الحب غير الشرعية، واللذة التي تسرق على عجل خلف الرغبة .وتحت ملاءتها السوداء الوقور، تنام الرغبة المكبوتة من قرون ..باب التي تعطي نساءها تلك المشية القسنطينية المنفردة، وتمنح عيونهن ..، ذلك البريق النادر(العجار)تحت
تعوّدت النساء هنا منذ قرون، على حمل رغبتهنّ كقنبلة موقوتة، مدفونة لا تنطلق من كبتها إلا في الأعراس، عندما تستسلم النساء .في اللاوعي لوقع البندير، فيبدأن الرقص وكأنهن يستسلمن للحب، بخجل ودلال في فتستيقظ .."الزندالي"يحركن المحارم يمنة ويسرة على وقع .البداية
.أنوثتهن المخنوقة تحت ثقل ثيابهن وصيغتهن
.يصبحن أجمل في إغرائهن المتوارث
.تهتز الصدور وتتمايل الأرداف، ويدفأ فجأة الجسد الفارغ من الحب

ويتواطأ البندير الذي تسخنه .تشبّ فيه فجأة الحمى التي لم يطفئها رجل .النساء مسبقاً مع الجسد المحموم، فتزيد الضربات فجأة قوة وسرعة وتنفك ضفائر النساء، وتتطاير خصلات شعرهن، وينطلقن في حلبات الرقص كمخلوقات بدائية تتلوى وجعاً ولذة في حفلة جذب وتهويل، يفقدن خلالها كل علاقة بما حولهن، وكأنهن خرجن فجأة من أجسادهن، من ذاكرتهن .وأعمارهن، ولم يعد يمكن أحدا أن يعيدهن إلى هدوئهن السابق

وطقوس العذاب، يدري الجميع أنه لا يجب وقف ..وكما في طقوس اللذة ضربات البندير، ولا قطع وقعها المتزايد، قبل أن تصل النساء إلى ذروة لا شعورهن ولذتهن، ويقعن على الأرض مغمى عليهن، تمسكهن نساء من حتى ..خصورهن، وترشهن أخريات بالريحة والعطر الجاهز لهذه المناسبات .يعدن تدريجياً إلى وعيهن

!وَهْماً في قسنطينة ..هكذا تمارس النساء الحب

بليلة حب وهمية، وقبلت صفقتها السرية، مقابل ..قسنطينة التي أغرتني .شيء من النسيان

وفي كل منعطف يتربص بي جرح؟ ..فأين النسيان قسنطينة

هل الحنين وعكة صحية؟
.مريض أنا بك قسنطينة
.كان موعدنا وصفة جرّبتها للشفاء، فقتلتني الوصفة
تراني تجاوزت معك جرعة الشوق المسموح بها في هذه الحالات؟
لم أشترِكِ في صيدلية جاهزة في طريق، لأرفع دعوى على بائع الأقدار .الذي وضعك في طريقي

..لقد صنعتك أنا بنفسي، وقست كل تفاصيلك على مقاييسي
..أنت مزيج من تناقضي، من اتّزاني وجنوني، من عبادتي وكفري
.وكل عقد عمري .أنت طهارتي وخطيئتي
.لا شيء ..الفرق بينك وبين مدينة أخرى
..لعلك كنت فقط المدينة التي قتلتني أكثر من مرة لسبب مناقض للأول
.كل مرة
فأين الحد الفاصل بين جرعة الشفاء وجرعة الموت هذه المرة؟ وفي مواسم الخيبة، تصبح الذاكرة مشروباً مراً يُبتلع دفعة واحدة، بعدما كان حلماً مشتركاً يُحتسى على مهل؟

.هنا تبدأ الذاكرة المشتركة، وشوارع يسكنها التاريخ وينفرد بها
.بعضها مشيتها مع سي الطاهر وأخرى مع آخرين
وها أنذا أتوحد بخطاه وأواصل .وشوارع تذكر عبوره ..هنا شارع يحمل اسمه
.طريقاً لم نكمله معاً

ويملؤني فجأة شعور غامض بالغرور .تمشي العروبة معي من حيّ إلى آخر
.

.لا يمكن أن تنتمي لهذه المدينة، دون أن تحمل عروبتها

.زهو ووجاهة وقرون من التحدّي والعنفوان ..العروبة هنا
.وكلمته تحكم هذه المدينة حتى بعد موته (ابن باديس)مازالت لحية

ملتحياً وقاره، متّكئاً على يده، يفكر .مازال يتأملنا في صورته الشهيرة تلك
.في ما ألنا إليه بعده

..النشيد غير الرسمي الوحيد .ومازالت صرخته التاريخية تلك بعد نصف قرن
.الذي نحفظه جميعاً

وإلى العروبة ينتسبْ ***شعب الجزائر مسلم
أو قال مات فقد كذبْ ***من قال حاد عن أصله
رام المحال من الطلبْ ***أو رام إدماجاً له

.لم نمت ..صدقت نبوءتك لنا يا ابن باديس

فماذا نفعل أيها العالم الفاضل؟ .فقط ماتت شهيّتنا للحياة

كيف يموت شعب يتضاعف كل عام؟ .لا أحد توقّع لنا الموت يأساً

وبك الصباح قد اقتربْ ***يا نشء أنت رجاؤنا

لم يعد يترقب الصباح، مذ حجز الجالسون فوقنا ..ذلك النشء الذي تغنيت به .ولا يفكر سوى بالهرب ..إنه يترقب البواخر والطائرات .الشمس أيضاً ..
أمام كل القنصليات الأجنبية تقف طوابير موتانا، تطالب بتأشيرة حياة خارج .الوطن
أصبحت فرنسا هي التي ترفضنا، وأصبح الحصول .دار التاريخ وانقلبت الأدوار !"المحال من الطلب"هو ..إليها ولو لأيام "فيزا"على

.فوحدها الإهانات تقتل الشعوب .متنا قهراً ..لم نمت ظلماً

كان يكفي أن .في زمن ما كنا نردد هذا النشيد في سجن قسنطينة ينطلق من زنزانة واحدة، لترددده زنزانات أخرى، لم يكن مساجينها .سياسيين

.اكتشفنا مصادفة هناك صوتنا الواحد .كان لكلماته قدرة خارقة على توحيدنا

.قبل أن ترتعد أجسادنا تحت التعذيب .كنا شعباً واحداً ترتعد الجدران لصوته

مذ أصبح هذا .أم أصبح هناك صوت يعلو على الجميع ..هل بحّ صوتنا اليوم الوطن لبعضنا فقط؟

***

37ولدت كل هذه الأفكار في ذهني وأنا أعبر ذلك الشارع، وألتقي بعد .سنة مع جدران سجن كنت يوماً أراها من الداخل

ولكن هل يصبح السجن شيئاً آخر لمجرد أننا ننظر إليه من الخارج، وهل يمكن للعين أن تلغي الذاكرة اليوم، وهل يمكن لذاكرة أن تلغي أخرى؟

.جزءاً من ذاكرتي الأولى التي لن تمحوها الأيام "الكديا"كان سجن

وها هي الذاكرة تتوقف أمامه وترغم قدميّ على الوقوف، فأدخله من جديد مع خمسين ألف سجين ألقيّ عليهم 1945كما دخلته ذات يوم من سنة .ماي الحزينة الذكر 8القبض بعد مظاهرات

.وكنت أكثر حظاً، قياساً إلى الذين لم يدخلوه يومها

خمسة وأربعون ألف شهيد سقطوا في مظاهرة هزّت الشرق الجزائري كله .بين قسنطينة وسطيف وقالمة وخرّاطة
جاء استشهادهم سابقاً لحرب .وكانوا أول دفعة رسمية لشهداء الجزائر

.التحرير بسنوات

هل أنساهم؟

أأنسى أولئك الذين دخلوه ولم يخرجوا منه، وظلّت جثثهم في غرف التعذيب؟ وأولئك الذين ماتوا بأكثر من طريقة للموت، رفاقنا الذين اختاروا موتهم وحدهم؟

وكانت له مهمة حفظ .كان مجرد عامل في البناء .هنالك إسماعيل شعلال وكان أول من تلقّى زيارة .وأرشيفه السري "حزب الشعب"وثائق "الاستخبارات العامة الذين دقّوا باب غرفته الصغيرة الشاهقة صارخين ".افتح..البوليس

ورمى بنفسه .فتح نافذته الوحيدة ..وبدل أن يفتح إسماعيل شعلال الباب .على وادي الرمال، ليموت هو وسرّه في وديان قسنطينة العميقة

أيمكن اليوم، وحتى بعد نصف قرن، أن أذكر إسماعيل دون دموع، هو الذي مات حتى لا يبوح بأسمائنا تحت التعذيب؟

الذي كانت صرخات تعذيبه تصل حتى (عبد الكريم بن وطاف)وهنالك صوت .زنزانتنا، خنجراً يخترق جسدنا أيضاً ويبعث فيه الشحنات الكهربائية نفسها فيأتي ..وصوته يشتم بالفرنسية معذّبيه ويصفهم بالكلاب والنازّيين والقتلة .متقطّعاً بين صرخة وأخرى

"criminels.. assassins.. salauds.. nazis"

.فيرد عليه صوتنا بالأناشيد الحماسية والهتاف

.ويصمت صوت بن وطاف

أقرب صديق إلى سي الطاهر، أحد رجال التاريخ (بلال حسين)وهنالك .المجهولين، وأحد ضحاياه

.لم يكن رجل علم ولكن على يده تعلّم جيل بأكمل الوطنية .كان بلال نجّاراً .مقرّ الاجتماعات السرية (سيجي راشد)فقد كان محلّه القائم تحت جسر

أذكر أنه كان يستوقفني وأنا أمرّ بمحلّه متجهاً إلى ثانوية قسنطينة، فيعرض .أو منشوراً سرياً "الأمة"عليّ قراءة جريدة

ويضعني ."حزب الشعب"وكان خلال سنتين يهيؤني سياسياً للانخراط في أمام أكثر من امتحان ميداني، كان لا بد لكل عضو أن يمر به قبل أن يؤدي

ويبدأ نشاطه في إحدى الخلايا التي كان .قسم الانخراط في الحزب يحددها بلال.

ويعطي .في ذلك المحل الذي لا أثر له اليوم، كان يلتقي القادة السياسيون وفيه نوقشت الشعارات التي رفعها .تعليماته الأخيرة (مصالح الحاج) المتظاهرون، وكُتبت ليلاً على اللافتات لتكون مفاجأة فرنسا.

كما خطط لها (سيدي راشد)وعندما انطلقت تلك المظاهرة من فوق جسر بلال لأسباب تكتيكية، يسهل معها تجمع المتظاهرين ثم تبعثرهم من كل أدهشت القوات الفرنسية بدقتها ونظامها غير .الطرقات المؤدية للجسر ومن عذّب للعبرة ..وكان بلال أول من أُلقي القبض عليه يومها .المتوقع.

ترك .قضى سنتين في السجن والتعذيب .ولم يمت بلال حسين كغيره فيهما جلده على آلات التعذيب.

أذكر أنه ظلّ لعدة أيام عاري الصدر، عاجزاً حتى أن يضع قميصاً على جلده، حتى لا يلتصق بجراحه المفتوحة، بعدما رفض طبيب المستشفى تحمل مسؤولية علاجه.

وعاش بلال حسين مناضلاً .ثم خرج محكوماً عليه بالنفي والرقابة المشددة ولم يمت إلا مؤخراً .في المعارك المجهولة، ملاحقاً مطارداً حتى الاستقلال ، في الشهر نفسه الذي مات 1988ماي 27في عامه الواحد والثمانين في فيه لأول مرة.

مات بائساً، وأعمى، ومحروماً من المال والبنين.

اعترف قبل موته ببضعة أشهر لصديقه الوحيد، أنهم عندما عذّبوه تعمدوا تشويه رجولته، وقضوا عليها إلى الأبد.

وأنه في الواقع مات منذ أربعين سنة..

يوم وفاته، جاء حفنة من أنصاف المسؤولين لمرافقته إلى مثواه الأخير. أولئك الذين لم يسألوه يوماً بماذا كان يعيش، ولا لماذا لا أهل له.

ثم عادوا إلى سياراتهم الرسمية، دون أدنى شعور ..مشوا خلفه خطوات بالذنب.

لم يكن أحد يعرف سره الذي احتفظ به أربعين سنة كاملة، بحياء رجل من جيله ومن طينته.

فهل كان يستحق ذلك السر، كل ذلك الكتمان؟

..كان بلال حسين آخر الرجال في زمن الخصيان

..وكان المبصر في زمن عميت فيه البصائر

فهل أنسى بلال حسين؟

***

..(الكديا)ها هوذا سجن

أتأمله كما نتأمل جدران سجن أول، دخلناه كما ندخل حلماً مزعجاً لم نكن مهيأين له.

مرت سنوات كثيرة، قبل أن أدخل سجناً آخر، كان جلادوه هذه المرة طريقه (أمّا)ولم يكن له من عنوان معروف، ليعرف طيف جزائريين لا غير. إليّ فيأتيني كما كانت تأتي لزيارتي هنا في الماضي، باكية متضرّعة لكل حارس..

كم من قصص مؤلمة، وأخرى مدهشة عرفها هذا ..(الكديا)ها هوذا سجن السجن، الذي تناوب عليه أكثر من ثائر، لأكثر من ثورة.

عاد هذا 1945.ماي 8أي عشر سنوات بالضبط بعد أحداث ..1955سنة السجن للصدارة، بدفعة جديدة لسجناء استثنائيين كانت فرنسا تعدّ لهم عقاباً استثنائياً.

كان ثلاثون من قادة الثورة المعدة لانتظار الموت ..8في الزنزانة رقم ورجالها الأوائل، ينتظرون موثقين، تنفيذ الحكم بالإعدام عليهم، بينهم مصطفى بن بولعيد والطاهر الزبيري ومحمد لايفا وإبراهيم الطيب رفيق ديدوش مراد وباجي مختار وآخرون.
كان كل شيء معداً للموت يومها، حتى أن حلاق مساجين الحق العام، أخبر الشهيد القائد مصطفى بولعيد في الصباح، أنهم غسلوا المقصلة "نفذوا"بالأمس، وأنه حلم أنهم.

وكانت هذه الكلمة تحمل معنيَيْن بالنسبة لمصطفى بن بولعيد، الذي كان وكان شرع مع رفاقه منذ عدة أيام، ..(الكديا)يعدّ منذ أيام خطة للهرب من في حفر ممر سري تحت الأرض، أوصلهم في المرة الأولى إلى ساحة فأعادوا الحفر من جديد، ليصلوا بعد ذلك إلى خارج مغلقة داخل السجن. السجن.

، بعد صلاة المغرب، وبين الساعة السابعة والثامنة 1955نوفمبر 10يوم مساءً بالتحديد، كان نصطفى بولعيد ومعه عشرة آخرون من رفاقه، قد ، وقاموا بأغرب عملية هروب من زنزانة لم يغادرها أحد (الكديا)هربوا من .سوى إلى المقصلة ..ذلك اليوم

بعد ذلك سقط القائد مصطفى بولعيد وبعض من فرّوا معه، شهداء في معارك أخرى لا تقل شجاعة عن عملية فرارهم، فتصدّروا برحيلهم كتب .التاريخ الجزائري، وأهم الشوارع والمنشآت الجزائرية

.بينما نُفِّذ حكم الإعدام، في من ظلّوا بالزنزانة، دون أن يتمكنوا من الهروب

ولم يبق اليوم من السجناء الأحد عشر الذين هربوا من الكديا، سوى اثنين ومات الرجال الثمانية والعشرون الذين جمعتهم الزنزانة .على قيد الحياة .واحداً ..رقم ثمانية يوماً، لقدرٍ كان مقرراً أن يكون

كلما وقفت أمام الجدران العالية لهذا السجن تبعثرت ذاكرتي، وذهبت لأكثر وشعرت برغبة في فتح أبواب .من وجه، لأكثر من اسم، ولأكثر من جلاد سجون أخرى مازالت مغلقة على أسرارها، دون أن تجد كاتباً واحداً يردّ دين .من مرّوا بها

.وقتها كنت أحسد ذلك الرفيق الذي جمعتني به زنزانة هنا لبضعة أسابيع

وربما كان ياسين يصغرني .أنا وهو، أصغر معتقلينْ سياسيينْ ..كنا آنذاك .ببضعة أشهر

.كان عمره ستة عشر عاماً فقط

ورغم أنهم أطلقوا سراحي لصغر سنّي، فقد رفضوا أن يطلقوا سراح ياسين وبامرأة تكبره ..يحلم بالحرية .أربعة عشر شهراً (الكديا)وبقي في سجن . "وكان اسمها ..بعشر سنوات، كانت في السادسة والعشرين من عمرها !"نجمة

وبينما عدت أنا بعد ستة أشهر من السجن إلى الدراسة، راح ياسين يكتب ."نجمة"بعد عدة سنوات رائعته

في ذلك الليل الطويل، .تلك الرواية الفجيعة، التي ولدت فكرتها الأولى هنا .وفي مخاض المرارة والخيبة والأحلام الوطنية الكبرى
كان مسكوناً بالرفض وبرغبة في .أذكر أن ياسين كان مدهشاً دائماً .التحريض والمواجهة

وكنا نستمع إليه، ونجهل وقتها .ولذا كان ينقل عدواه من سجين إلى آخر الجزائر، وأننا نشهد ميلاد شاعر سيكون يوماً، اكبر ما أنجب (لوركا)أننا أمام .هذا الوطن من مواهب
مرت عدة سنوات، قبل أن ألتقي بكاتب ياسين في منفاي الإجباري الآخر .بتونس
.اكتشفت بفرح لا يخلو من الدهشة أنه لم يتغير
مازال يتحدث بذلك الحماس نفسه، وبلغته الهجومية نفسها، معلناً الحرب .على كل من يشتمّ فيهم رائحة الخضوع لفرنسا أو لغيرها

..لقد كانت له حساسية ضد الإهانات المهذبة، وضد قابلية البعض للانحناء !الفطري

كان يومها يلقي محاضرة في قاعة كبرى بتونس، عندما راح فجأة يهاجم .السياسيين العرب، والسلطات التونسية بالتحديد
.ولم يستطع أحد يومها إسكات ياسين
فقد ظل يخطب ويشتم حتى بعدما قطعوا عليه صوت الميكروفون، وأطفأوا .الأضواء ليرغموا الناس على مغادرة القاعة

يومها دفعت في جلسة تحقيق مع البوليس ثمن حضوري في الصف ".."آ ياسين ..تعيش"الأمامي وهتافي على ياسين

ولكن بعض من كان يعنيهم الأمر .لم ينتبه أحد وقتها إلى وجوه من صفّقوا .وإعجاباً ..انتبهوا إلى يدي الوحيدة المرفوعة تأييداً

فقدر صاحبها أن يكون معارضاً .يومها اكتشفت البعد الآخر لليد الواحدة !عاجز عن التصفيق ..ورافضاً، لأنه في جميع الحالات

"..لو رزقت ولداً سأسميه ياسين ..ياسين" :احتضنته بعدها وقلت

وشعرت بشيء من العنفوان والمتعة، كأنني أقول له أجمل ما يمكن أن .نقوله لصديق أو لكاتب

فضحك ياسين وهو يربت على كتفي بيدٍ عصبية كعادته عندما يربكه اعتراف .ما

"!مازلت مجنوناً ..أنت أيضاً لم تتغير" :وقال بالفرنسية
.وضحكنا لنفترق لعدة سنوات أخرى

تراني كنت أريد أن أكون وفيّاً لذاكرتنا المشتركة، أم فقط، كنت أريد أن ، الرواية التي لن أكتبها، والتي كنت "نجمة"أعوّض بذلك عن عقدتي تجاه بأحلامي وخيباتي، بملامح .أشعر أنها بطريقة أو بأخرى، كانت قصّتي أيضاً

الواقفة على حافة اليأس والجنون، الراكضة بين السجن والأولياء (أمّا) الصالحين، تقدّم الذبائح لسيدي محمد الغراب، والعمولات لحارس السجن حتى يأتيني بين الحين والآخر بقفّة الأكل الذي ..اليهودي، الذي كان جارنا التي كدت لا أعرفها عندما غادرت السجن بعد ستة أشهر، (أمّا) .تعدّه لي والتي أمام انشغال أبي عني وعنها، بتجارته وعشيقاته، أصبحت لا تطلب وكأنني الشيء الوحيد الذي يمكن أن يبرر وجودها، .من الله إلا عودتي لها والشاهد الوحيد على أمومتها وأنوثتها المسلوبة.

نعم كنا في النهاية جيلاً بقصة واحدة، بجنون الأمهات المتطرفات في الحب، بخيانة الآباء المتطرفين في القسوة، وبقصص حب وهمية، وخيبات عاطفية، يصنع منها البعض روائع عالمية في الأدب، ويتحول آخرون على يدها إلى مرضى نفسانيين.

تراني لا أفعل شيئاً بكتابة هذا الكتاب، سوى محاولة الهروب من صنف المرضى إلى صنف المبدعين؟

..منذ ذلك الوداع ..كم تغير العالم منذ ذلك اللقاء ..آه ياسين
:أنت الذي أنهيت روايتك قائلاً على لسان ذلك البطل

"..!أيّ شباب عجيب ذاك الذي عشناه ..وداعاً أيها الرفاق"

!لم تكن تتوقع وقتها، أن عمرنا سيكون أعجب من سنوات شبابنا بكثير

..غداً سيكون عرسكِ إذن
وعبثاً أحاول أن أنسى ذلك، وأمشي في شوارع قسنطينة، يسلّمني زقاق وذاكرة إلى أخرى ..إلى آخر.

أما قلتِ إنك لي مادمنا في هذه المدينة؟

في أي زقاق من هذه المدينة ..أين تكونين الآن إذن؟ في أي شارع المتشعّبة الطرقات والأزقة كقلبك، والتي تذكّرني بحضورك وغيابك الدائم، وتشبهك حد الارتباك؟

..لستِ لي

يعدّون جسدك لرجل آخر ليس .أدري أنهم يعدّونك الآن لليلة حبك القادمة بينما أهيم أنا على جرحي لأنسى الذي يحدث هناك .أنا.

مليئاً كان يومك، كيوم عروس، وفارغاً كان يومي، كيوم موظّف متقاعد.

وها نحن نعيش بمفكّرتين .منذ زمان أخذ كلّ واحد منا طريقاً مخالفاً للآخر فكيف أنسى ذلك؟ .متناقضتينْ، إحداهما للفرح وأخرى للحزن

كانت كل الطرق تؤدي إليك، حتى تلك التي سلكتها للنسيان، والتي كنت تتربّصين لي فيها.

كلّ ..."البيوت المغلقة"كلّ ..كل المآذن ..كلّ المدارس والكتاتيب العتيقة كل الحمامات التي كانت تخرج منها النساء ..كل المقاهي ..السجون أمامي جاهزات للحب، كل الواجهات التي تعرض الصيغة والثياب الجاهزة تلك المقبرة التي ألقيت نفسي في سيارة أجرة، ورحت ..وحتى .للعرائس ، وأستعين بسجلات حارسها لأتعرف على أرقام (أمّا)أبحث فيها عن قبر أوصلتني إليك لا غير ..الممرات التي كانت توصل إليها.

لماذا قادتني قدماي إليها ذلك اليوم بالذات، في ليلة عرسك بالذات؟ ..(أمّا) أم رحت أدفن جوارها امرأة أخرى توهمّتها يوماً أمي؟ ..أرحت أزورها فقط

والكثير الغبار كقلبي، ..عند قبرها الرخامي البسيط مثلها، البارد كقدرها تسمّرت قدماي، وتجمّدت تلك الدموع التي خبأتها لها منذ سنوات الصقيع والخيبة.

شبر من التراب، لوحة رخامية تخفي كل ما كنت أملك ..(أمّا)ها هي ذي طلّتها ..خصلات شعرها المحنّاة ..رائحتها ..صدر الأمومة الممتلئ .من كنوز ..عندك يا خالد يا ابني" ..ووصاياها الدائمة ..حزنها ..ضحكتها .."..

ولم أكبر ..عوّضتها بألف امرأة أخرى (أمّا).

عوّضت حبها بأكثر من قصة حب .ولم أرتو ..عوّضت صدرها بألف صدر أجمل ولم أشف ..
لوحة غير قابلة للتقليد ولا للتزوير .كانت عطراً غير قابل للتكرار.
فلماذا في لحظة جنون تصوّرت أنك امرأة طبق الأصل عنها؟ لماذا رحت أطالبك بأشياء لا تفهمينها، وبدور لن تطاليه؟

هذا الحجر الرخاميّ الذي أقف عنده أرحم بي منك.
لأجهش بدوره بالبكاء ..لو بكيت الآن أمامه.
لو توسّدت حجره البارد، لصعد من تحته ما يكفي من الدفء لمواساتي.
"؟..واش بيك آ ميمة"لأجابني ترابه مفجوعاً (..يا أمّا)لو ناديته.

من العذاب، هي التي كانت حياتها (أمّا)ولكن كنت أخاف حتى على تراب مواسم للفجائع لا غير.

كنت أخاف عليها حتى بعد موتها من الألم، وأحاول كلّما زرتها أن اخفي عنها ذراعي المبتورة.

ماذا لو كان للموتى عيون أيضاً؟

كم كان يلزمني من الكلام وقتها لأشرح لها ..ماذا لو كانت المقابر لا تنام كل ما حلّ بي بعدها؟

لم أجهش ساعتها بالبكاء، وأنا أقف أمامها بعد كلّ ذلك العمر.
نحن نبكي دائماً فيما بعد.

مرّرت فقط يدي على ذلك الرخام، وكأنني أحاول أن أنزع عنه غبار السنين وأعتذر له عن كل ذلك الإهمال.

ثم رفعت يدي الوحيدة لأقرأ فاتحة على ذلك القبر..

وبدت يدي الوحيدة .بدا لي وقتها ذلك الموقف، وكأنه موقف سريالي الممدودة للفاتحة وكأنها تطلب الرحمة بدل أن تعطيها..

وأخفيت يدي ..فتنهّدت.

والرخام ..وألقيت بخطاي خارج مدينة التراب ..ألقيتها داخل جيب سترتي.

***

كان ترقب حسان وزوجته للعرس، واستعداداتهما الدائمة له، للقاء كل الذين سيحضرونه من شخصيات وعائلات كبيرة، يجعلني أستمع لهما ، سيحلّ بمدينة لم "سيرك"أحياناً، وكأنني أستمع إلى أطفال يتحدثون عن يزرها سيرك ولا مهرّجون من قبل.

وأعذرهما ..وكنت لذلك أشفق عليهما.

لقد كانت قسنطينة في النهاية، مدينة لا يحدث فيها شيء ما عدا الأعراس ،. واحتفظت لنفسي بخيبتي"السيرك عمَّار"فتركتهما لفرحتهما ينتظران .

وكنت أعرف مسبقاً برنامجه من .كان كل شيء استثنائياً في ذلك اليوم أحاديث السهرة.

سيذهب حسان لقضاء حاجاته في الصباح، ثم يصلّي صلاة الظهر في لنذهب جميعاً إلى حضور العرس (ناصر)المسجد، وبعدها سيمر بي صحبة .

.أما عتيقة فقد تأخذ الأولاد وتذهب منذ الصباح لترافق العروس إلى الحلاق .ثم تبقى هناك لتقوم مع نساء أخريات بخدمة الضيوف وإعداد الطاولات

كنت أشعر برغبةٍ في البقاء في سريري في ذلك الصباح، وعدم مغادرته قبل الظهر، ربما بسبب متاعب البارحة، وربما استعداداً للسهر والمتاعب ..الأخرى التي تنتظرني في ذلك اليوم

وربما فقط لأنني لم أعد أدري أين يمكنني أن أذهب، بعدما قضيت أسبوعاً وأنا أهيم على وجهي في تلك المدينة التي كانت تتربّص بذاكرتي في كل ..وكنتِ تختبئين لي فيها خلف كل منعطف .شارع

وجدت بعد تفكير قصير، أن السرير هو المكان الوحيد الذي يمكن أن أهرب .أو على الأقل ألتقي فيه معك بلذّة وليس بألم .منك إليه

..ولكن

في هذه اللحظة التي كنت أدري ..هل سأجرؤ حقاً على استحضارك اليوم أنك تتجمّلين فيها استعداداً لرجل آخر؟

وهل سيغفر لك جسدي ..هل سأجرؤ على استحضارك في هذا الصباح حقاً في لحظة نزوة كلّ خياناتك السابقة واللاحقة؟ كان ذلك جنوناً في !!جنون

سأكون لك " :ولكن أليس هذا الذي كنت تريدينه في النهاية، عندما قلت ".."في تلك الليلة

.كنت أشعر برغبة في امتلاكك في ذلك الصباح
فبعد اليوم .وكأنني أريد أن أسرق منك كل شيء، قبل أن أفتقدك إلى الأبد لن تكوني لي، وستنتهي هذه اللعبة الموجعة الحمقاء التي لم تكن .هوايتي قبلك

.موجعاً كان لقائي معك ذلك الصباح
.فيه كثير من الشراسة والمرارة الغامضة
.فيه كثير من الحقد والشهوة الجنونية
..لو كنتِ لي
في .في ذلك السرير الكبير الفارغ البارد دونك ..آه لو كنتِ لي ذلك الصباح وشهوة الشباب المكبوت ..ذلك البيت الشاسع بذكريات الطفولة المبتورة

.الذي مر على عجل

لاعتصرتك بيدي الوحيدة .لامتلكتك كما لم أمتلك امرأة هنا ..لو كنت لي إلى ..إلى بقايا امرأة ..إلى مواد أولية ..لحوّلتك إلى قطع .في لحظة جنون إلى أي شيء غيرك أنت، أي شيء أقلّ غروراً ..عجينة تصلح لصنع امرأة .أقلّ ظلماً وجبروتاً منك ..وكبرياءً

أنا الذي لم أرفع يدي الوحيدة في وجه امرأة، ربما كنت ضربتك ذلك اليوم ..حدّ الألم، ثم أحببتك حد الأم، ثم جلست إلى جوار جسدك أعتذر له

أقبّل كل شيء فيك، أمحو بشفتيّ حمرة أطرافك المخضّبة بالحناء، لأوشّمك بشراسة القُبَل، عساك عندما تستيقظين تكتشفينني مرسوماً على جسدك كالوشم، بذلك اللون الأخضر الوحيد الذي لا يرسم إلا على !الجسد

من أين جاءني كلّ ذلك الجنون؟ أكنت أريد أن أنفرد بك وأمتلكك قبله، أم كنت أدري يومها بحدسٍ أو بقرارٍ مسبق أنني أنفق معك آخر رعشات اللذّة، وأنني سأضعك خارج هذا السرير بعد اليوم إلى الأبد؟

لو كانت لحسمتها يومها بطريقة أو .لم تكن مشكلتي معك مجرد شهوة .بأخرى
.هنالك أكثر من امرأة هنا يمكن أن يمتلكها رجل دون جهد

.هنالك أكثر من باب نصف مفتوح ينتظر أن يفتحه رجل

هناك جارات تتقاطع خطواتي بهنّ مراراً في هذه البيوت العربية المشتركة، .وأدري رغبتهن السرية في الحب

والمبالغات في ..تعلمت مع الزمن، أن أفكّ رموز نظرات النساء المحتشمات .اللياقة والمفردات المؤدبة

.ولكنني كنت أتجاهل نظرتهن ودعوتهن الصامتة إلى الخطيئة

أم عن حماقة وشعور ..إن كنت أتصرف كذلك عن مبدأ ..لم أعد أدري اليوم غامض بالغثيان؟

وأحتقر أزواجهن الذين يسيرون كالديوك ..كنت في الواقع أشفق عليهن ..المغرورة دون مبرر
سوى أنهم يمتلكون في البيت دجاجة ممتلئة متشحّمة لم يقربها أحد ربما !عن قرف

أو أخرى شهيّة ومدجّنة حسب التقاليد ولا يتوقع صاحبها أنّ جناحيها فطرياً ..مازالا يمارسان القفز ..القصيرين!

يا لحماقة الديوك!

إذا كانت كل النساء عفيفات هنا، وشرف كل الرجال مصوناً، فمع من يزني هؤلاء إذن؟ وكلهم دون استثناء يتبجّح في المجالس الرجالية بمغامراته؟

ولا يدري أن هناك من يضحك ..أليس كل واحد منهم يضحك على الآخر عليه؟!

بنزاهة ..وتلك القذارة المتوارثة ..كم أكره ذلك الجو الموبوء بالنفاق!

يحدث عندما تتقاطع نظراتي بهنّ، أن أستعيد قولك مرة، عندما أبديت لك ورحت أستجوبك بحثاً عن ذاكرة ..دهشتي مما جاء في روايتك الأولى مشبوهة.

قلتِ:

"إن امرأة تكتب هي امرأة .لا يوجد شيء تحت الكلمات ..لا تبحث كثيراً إن الكتابة تطهّر مما يعلق بنا منذ .لأنها شفافة بطبعها ..فوق كل الشبهات أبحث عن القذارة حيث لا يوجد الأدب ..لحظة الولادة!"

وكانت القذارة المتوارثة أمامي في كل مكان، في عيون معظم النساء الجائعات لأي رجل كان.
أمام أول ..في عصبية الرجال الذين يحملون شهوتهم تراكماً قابلاً للانفجار أنثى.
وألا أترك تلك المدينة .ولكن كان عليّ أن أقاوم رغبتي الحيوانية ذلك اليوم تستدرجني إلى الحضيض.

كأن أعاشر امرأة .فهنالك مبادئ لا يمكنني التخلّي عنها مهما حدث متزوجة، تحت أي مبرر كان.

فقد كنت أدري أن مستحيلاً آخر قد أضيف .وربما كان هذا سر حزني الآخر إلى مستحيلات أخرى يومها، وأنك لن تكوني لي أبداً بعد اليوم.

لم أكن خجولاً من يدي اليمنى ذلك اليوم.

شعرت بشيء من الارتياح، وأنا أكتشف أنني برغم كل ما حلّ بي مازلت أحترم جسدي.

المهم في هذه الحالات، ألا نفقد احترام جسدنا ونحن نمنحه لأول عابر سبيل.

وإن رفض أن ينسى ذلك؟ ..فأين يمكن أن نسكن بعد ذلك إن نحن أهنّاه

رميت فجأة بالغطاء، واتّجهت نحو النافذة وأشرعتها وكأنني أفتحها ليخرج طيفك منها إلى الأبد، ويدخل النور إلى تلك الغرفة.

في هذه المدينة المسكونة بالجنّ والسحرة، ماذا لو كنت جنّية تتسلل إليّ مع العتمة، تنام إلى جواري، تقصّ عليّ قصصاً عجيبة، تعدني بألف حلّ ثم تختفي مع أول شعاع وتتركني لهواجسي وظنّي؟ ..سحري لمأساتي

وهرب من .من غرفتي وذاكرتي ..هل خرج طيفك حقاً يومها من سريري تلك النافذة؟ لا أدري!

أدري فقط أن قسنطينة، دخلت من تلك النافذة نفسها، التي قلّما فتحتها.

وإذا بالأذان يفاجئني من أكثر من مئذنة في آن واحد، ويسمّرني في مكاني أمام الأقدام المسرعة في كل الاتجاهات.

يبدو بدوره منهمكاً في حركة دائمة كامرأة (سيدي راشد)وكان جسر مأخوذاً بهمومه اليومية، وبحماس نهايات الأسبوع ..تستعد لحدثٍ ما. ..وجدت في انشغاله عن حزني ذلك الصباح بالذات شيئاً شبيهاً بالخيانة وعدم العرفان بالجميل.

..ورَدَدْت النافذة ..فأغلقت في وجهه وجهي ..قررت بدوري ألا أجامله

تكاد توازي ..زوبعة شهوة الألوان .انتابتني رغبة جارفة للرسم ..وفجأة رغبتي الجنسية السابقة وتساويها عنفاً وتطرّفاً.

شفيت من جسدي وانتقل الألم إلى أطراف ..لم أعد في حاجة إلى امرأة أصابعي..
وحدها تلك .في النهاية لم يكن السرير مساحة للذّتي ولا لطقوس جنوني المساحة البيضاء المشدودة إلى الخشب كانت قادرة على إفراغي من ذاتي.

فيها أريد أن أصبّ الآن لعنتي، أبصق مرارة عمرٍ من الخيبات.
حماقة_مذ انحزت لهذه المدينة الملتحفة ..أفرغ ذاكرة انحازت للون الأسود تحت مثلث أبيض _تناقضاً_بالسواد منذ قرون، والتي تخفي وجهها _ للإغراء.

سلاماً أيتها المدينة التي تعيش مغلقة ..سلاماً أيها المثلث المستحيل (السياسة –الجنس –الدين)وسط ثالوثها المحرم.

فلم يكن أحد يتوقّع أن تكون .ابتلعت من رجال ..كم تحت عباءتك السوداء وشهيته للإغراق (برمودا)لك طقوس مثلث..

والغيظ يملؤني .كانت الأفكار الرمادية تتوالد في ذهني في ذلك الصباح تدريجياً كلما تقدّمت الساعة واقترب وقت قدوم حسان وناصر لمرافقتي إلى ذلك البيت، لأحضر عرسك.
وكان غيظي وخيبتي قد شلا يدي ومنعاني حتى من أن أحلق ذقني أو أستعد لذلك الفرح المأتم.
كنت أذهب وأجيء فجأة في تلك الغرفة بعصبية مدمن تنقصه رشفة أفيونه.

كيف لم أتوقع أن أشعر بهذه الحاجة المرضيّة اليوم لإمساك فرشاة، وبهذه الرغبة الجارفة للرسم؟ تلك الرغبة التي لا تقاوم، والتي تصبح ألماً في أطراف الأصابع، وتوتراً جسدياً ينتقل من عضو إلى آخر؟

أو ..وأقع ميتاً .حتى أفرغ من كل شيء ..وأرسم ..كنت أريد أن أرسم مغمى عليّ إرهاقاً ونشوة.

ربما رسمت نساءً .من الأرجح أنني هذه المرة لن أرسم جسوراً ولا قناطر فاللون .وعيون كاذبات، واعدات بفرح ما ..ومثلثات بيضاء ..بملاءات سوداء تماماً مثل اللون الأبيض ..الأسود لون كاذب في معظم الأحيان.

وقد لا أرسم شيئاً، وأموت هكذا واقفاً، عاجزاً أمام لوحة بيضاء.

فهل أروع من أن نوقّع مساحة بيضاء ببياض، وننسحب على رؤوس الأصابع، مادمنا لم نوقّع شيئاً في النهاية، ووحدها الأقدار توقّع حياتنا، وتفعل بنا ما تشاء؟

لماذا المراوغة؟ ..لماذا التحايل على الأشياء إذن

أما كنتِ لوحتي؟ ما فائدة أن أكون رسمتك ألف مرة، مادام آخر سيضع توقيعه عليك اليوم، سيضع بصماته على جسدك، واسمه جوار أوراقك الثبوتية؟

وماذا تفيد عشرات المساحات التي غطيتها بك، أمام سرير سيحتوي ويخلّد أنوثتك الأبدية؟ ..جسدك

إذا كان هناك دائماً من سيضع توقيعه نيابة عني ..أيّ جدوى لما أرسمه كالعادة؟

***

في تلك اللحظة المتقدمة من اليأس، دقّ فجأة الهاتف، وأخرجني للحظة فرحت أسرع نحو الغرف البعيدة الأخرى، لأردّ عليه .من وحدتي وهواجسي .

سألني دون مقدمات .كان حسان على الخط:

- واش راك تعمل؟..

أجبته بشيء من الصدق:

- كنت غافياً شيئاً ما..

قال:

- حسناً إذن .. توقعت أن تكون جاهزاً وتنتظرني منذ مدة. أخبرك أنني قد أتأخر بعض الوقت .هنالك مشكل صغير يجب أن أحلّه

سألته متعجباً:

- أيّ مشكل؟

قال:

- تصور بماذا طلع لي ناصر اليوم؟ إنه لا يريد أن يحضر عرس أخته..

قلت وأنا أزداد فضولاً:

- لماذا؟

قال:

- إنه ضد هذا الزواج .. ولا يريد أن يلتقي بالضيوف ولا بالعريس ولا حتى بعمّه!

ولكنني سألته .."معه حق"كدت أقاطعه:

وأين هو الآن؟ -

:قال

قال لي إنه يفضّل أن يقضي يومه هناك بدل أن .لقد تركته في المسجد - !"...القوّا"يقضيه مع هؤلاء

ولم أستطع أن أمنع نفسي من التعليق .ولأول مرة ضحكت من قلبي :بصوت عالٍ

!."نستعرف بيه"والله ..رائع ناصر -

:ولكن حسان قاطعني بصوتٍ فيه شيء من العتاب والعجب

..شفت واحد ما يروّحش لعرس أختو ..عيب ..واش بيك هبلت إنت تاني - ..واش يقولوا الناس

..خلينا يا راجل يرحم والديك ..يقولوا واش يحبوا ..الناس ..الناس -

:وقبل أن أقول له شيئاً قال

سنتحدث في هذا .سأمر عليم حال ما انتهي ..ابق في البيت إذن - على ...)الموضع فيما بعد، فأنا أحدثك من مقهى، وحولي كثير من الناس .(!..بالك

:ثم أضاف

..ستجد في المطبخ أكلاً أعدّته لك عتيقة -

.وعدت إلى غرفتي .وضعت السماعة

كنت فقط أشعر بشيء من الظمأ الصباحي، .لم أكن في حاجة إلى أكل وبشيء من المرارة التي صار لها فجأة بعد ذلك الهاتف، مذاق السعادة .الغامضة

شعرت أن هناك شخصاً آخر يشاركني حزني .لقد ملأني موقف ناصر غبطة ..دون علمه، ويقف معي ضدّ هذا الزواج، ولكن على طريقته

.فحلٌ ناصر، جدير بأن يكون ابن سي الطاهر

أن يكون .مثل أبيه (..راسو خشين)ولكن أتوقع أن يكون .لم ألتق به بعد

عنيداً ومباشراً مثله.

وإذا كان فعلاً مثله فلن ينجح حسان أبداً في تغيير رأيه.
مازلت أذكر عناد سي الطاهر وقراراته النهائية دائماً، التي لا يمكن لأحد أن يزيحه عنها.

ثم مع وقتها كنت أجد في تلك المواقف شيئاً من الدكتاتورية، وغرور القائد. الزمن، أدركت أنه كان لا بد للثورة في أيامها الأولى من رجالٍ مثل سي الطاهر، بذلك العناد، وتلك الثقة المطلقة بالنفس، حتى يفرضوا رأيهم وسلطتهم على الآخرين، ليس حباً بالجاه والسلطة، إنما للمّ شمل الثورة وعدم ترك مجال للخلافات والاعتبارات الشخصية، وحتى لا تموت تلك الشعلة الأولى وتبعثرها الرياح..

في لحظة لم أحجزها له .عادت ذكرى سي الطاهر فجأة..

وعادت طلّته، موجعة كتلك الرصاصات التي أفرغوها في جسده يوماً، وأودت به قبل أن يشهد استقلال الجزائر بأشهر.

أين هو ليحضر هذا اليوم الاستثنائي الذي سيخلف موعده أيضاً؟
أكان قدره أن يخلف فرحتين؟
كنت رحل كما جاء، سابقاً لزمنه، وكأنه أدرك أنه لم يخلق للزمن الآتي. أعي بشيء من المرارة، أن كلّ الذين أحبّوكِ لن يحضروا عرسك هذا.

وناصر أيضاً ..سي الطاهر وزياد .سيتغيب عن فرحك كل الذين كنتِ فرحتهم .

لماذا وحدي وقعت عليّ تلك القرعة، وقادتني الأقدار إليك؟

وذلك الحب الجنوني ..ولماذا استدرجتني حتى هنا، باسم الذاكرة والحنين سأكون " ..المستحيل، وقلت تلك الجملة التي ملأت جيوب الأحلام وهماً لك مادمنا في قسنطينة"..

وجئت؟ ..كيف صدّقتك

من ..ولكن .لصيف طويل ..وكنت أدري انك تكذبين، وتهديننني الغيوم البيضاء يقاوم مطر الكذب الجميل؟
لكن عندما هنالك أكاذيب نحاول أن نصدّقها حتى نحرج النشرات الجوية. من يجفف دمع السماء؟ ..تنهطل الأمطار داخلنا

في الواقع كنتِ امرأة ساديّة، وكنت أعرف ذلك.
لو خلّف هتلر ابنة في هذا العالم" :أذكر ذلك اليوم الذي قلت لك فيه..

".!الكنتِ ابنته الشرعية

وعلّقت أنا .ضحكة حاكم جبّار واثق من قوّته ..ضحكت .ضحكتِ يومها
لا أدري ما الذي أوصلني إلى حبك، أنا الهارب من حكم " :بسذاجة الضحية
".!..أيمكن بعد هذا العمر أن أقع في حبّ امرأة طاغية ..الجبابرة

مدهش أنت عندما " :ثم قلت بعد شيء من الصمت ..ابتسمت فجأة
"..سأكتب يوماً هذه الفكرة ..تتحدث، تفجّر فيّ أكثر من موضوع للكتابة

!صحيح أنها تصلح لرواية ..اكتبيها إذن ذات يوم

.في ذلك الصباح، كانت الخمرة ملجئي الوحيد، لأنسى خيبتي معك

في تلك الغرفة التي يؤثثها سرير فارغ، ونافذة تطل على المآذن والجسور،
وطاولة فارغة من لوازم الرسم، لم أجد لي من طوق نجاة سوى بضع أوراق
وأقلام فقط، وزجاجة ويسكي أحضرتها لحسان قبل أن يتوب، ومازالت في
فأحضرتها ورحت أشرب ذلك الصباح نخب زياد وسي الطاهر .حقيبتي تنتظر
.ونخب قسنطينة ..

فكتبت أعلى الصفحة، دون كثير من .تذكّرت مسرحية أعجبت بها يوماً
".كأسك يا قسنطينة"التفكير

وضحكت لهذا الدور الذي كان جاهزاً لي في هذه المدينة التي تمنع عنك
.الخمرة، وتوفر لك كل أسباب شربها

لم أكن أدري وقتها، أنني كنت أخطّ خلاصة خيبتي كلمتين قد تصلحان
.عنواناً لهذا الكتاب، الذي ربما ولدت فكرته يومها
.وهذا الوطن الكاذب ..كانت بي رغبة لتحديك وتحدّي هذه المدينة

نخب .نخب ذاكرتك التي تحترف مثله النسيان ..رفعت كأسي الملآى بك
.عينيك اللتين خلقتا لتكذبا
.نخب بكائي العاجز عن الدموع ..نخب فرح الليلة الجاهز للبكاء
ها أنت تخونينني .أنت التي صالحتني مع الله، وأعدتني يوماً إلى العبادة
..تحلّين دمي، وتطلقين عليّ رصاص الغدر ..ليلة جمعة

!من أكثرنا كفراً يا ترى ..فلماذا لا أسكر اليوم

.كانت مشروب فرحي وحزني التطرف .في الواقع، لم تكن الخمرة هوايتي

ففي كل مرة شربت فيها كنت أؤرخ .ولذا ارتبطت بك وبتقلباتك الجنونية لحدثٍ ما في قصتنا التي لا تنتهي.

فلا .وأرتكب جنوني الأخير ..وها أنا أفتح على شرفك زجاجتي الأخيرة وأشيّعك ..لأنني سأغسل يدي منك اليوم .أعتقد أنني قد أسكر بعد اليوم على طريقتي.

وحده أمر ناصر يعنيني الآن، أخيك الذي يصلي في هذه اللحظة في أحد ..مساجد هذه المدينة، لينسى مثلي، أنهم سيتناوبون على وليمتك الليلة ..وأن هناك من سيتمتع بك في غفلةٍ منا

!الا غير ..كنت أسكر نخبه ..في الواقع

..إيه ناصر

.وهذه المدينة ..وأنت ..أنا

تتلذذ بتعذيب "سادية"مدينة .مدينة تواطأت معنا في التطرف والجنون ووضعتنا كما تضع سلحفاة بحرية أولادها عند .حبلت بنا دون جهد .أولادها ..شاطئ وتمضي دون اكتراث، لتسلمهم لرحمة الأمواج والطيور البحرية

في ذلك المثل "الفكرون"يقول "..وإلا الله لا يجعلكم تفكّروا ..إفكروا" الشعبي وهو يتخلى عن أولاده.

.نبحث عن قدرنا بين الحانات والمساجد ..وها نحن بلا أفكار

قلبوها حتى لا تهرب، قلبوها في .ها نحن سلحفاة تنام على ظهرها ..محاولة انقلاب على المنطق

فكم يشبه الميلاد الموت في المدن العريقة، حيث نولد ونموت وسط مجرى !الهواء والرياح المضادة

!وما أكبر يتم السلاحف في هذه المدينة

عندما جاء حسان بعد ذلك، وفاجأني جالساً أكتب أمام تلك الطاولة وأمامي وظل ينظر إلي .زجاجة ويسكي نصف فارغة، كاد يشهق من العجب مدهوشاً وكأنني بفتح تلك الزجاجة أخرجت له مارداً، أو جنّاً أطلقته في البيت.

:حاولت أن أمازحه فسألته بسخرية

ألم ترَ زجاجة كهذه قبل اليوم؟ ..لماذا تنظر إليّ هكذا -

ولكنه دون أي رغبة في المزاح أخذ الزجاجة من أمامي، وذهب بها إلى المطبخ، وهو يسبّ ويتحدث لنفسه كلاماً لم يكن يصلني.

وعندما عاد قال لي بنبرة فيها شيء من اليأس وبقايا من متاعب ناصر:

وواحد لاتي ..البلاد متّخذة وأنتما واحد لاتي يصلي ..يا أخي واش بيكم - كيفاش نعمل معاكم؟ ..يسكر

البلاد "توقف سمعي عند ذلك التعبير الذي لم أسمعه منذ عدة سنوات أو تشهد حدثاً استثنائياً، ..والذي يعني أن البلاد قائمة قاعدة "متّخذة والذي هو في الواقع تعبير جنسي محض.

ابتسمت وأن أكتشف مرة أخرى قدرة هذه المدينة على زجّ الصور الجنسية ..وذلك ببراءة مدهشة .في كل شيء

رفعت عيني نحوه وقلت له بشيء من السخرية المرة:

والآخرون أثناء ..والبعض يسكر ..البعض يصلّي ..هذه هي الجزائر يا حسان - !"..ياخذوا في البلاد"ذلك

ولكن حسان لم يبدُ على استعداد للتمادي معي في النقاش.

ربما لأنه بعد ذلك الوقت الذي قضاه في إقناع ناصر لم يعد قادراً على المزيد فقال وهو يقاطعني .من المناقشة:

ثم ..سأذهب لأحضر لك القهوة، حتى تفيق وتطير عنك هذه السكرة - يجب ألا .إن الناس ينتظروننا هناك وبعضهم لم يرَك منذ سنوات .نتحدث !تذهب إليهم في هذه الحالة

عندما عاد بعد لحظات بالقهوة سألته:

ماذا فعلت مع ناصر؟ -

قال:

لقد وعدني أنه سيمر هناك وقت العشاء إرضاءً لخاطري فقط، ولكنه لن - إنه لا ..لا أفهم عناده هذا .وبرغم ذلك أشك في أن يحضر فعلاً .يمكث طويلاً ولا يمكن ألا يقف في عرسها أمام ..يملك سوى أخت واحدة في النهاية الناس.

!جنون

ولكن .كنت أحتسي تلك القهوة حتى يطير سكري، حسب تعبير حسان .كنت أشعر في الواقع أنني أزداد سكراً أو جنوناً، وأنا أستمع إليه

كتلك اللحظة التي سألته فيها عن سبب مقاطعة ناصر لهذا العرس، وإذا .بالحديث يجرّنا إلى أكثر من موضوع

:قال

فهو يعتقد أنه استفاد كثيراً من اسم سي .إنه على خلاف مع عمه - .وهذا العرس لا هدف له .الطاهر، وأنه قلّما اهتم بمصير زوجة أخيه وأولاده ..فهو ضد اختيار عمه لهذا غير أسباب وصوليّة ومطامع سياسية محض .فالجميع يتحدّث عن العمولات .العريس السيئ الصيت سياسياً وأخلاقياً ..وعن حساباته في الخارج ..التي يتقاضاها في صفقاته المختلفة إضافة إلى كون هذا الزواج زواجه الثاني، .والأجنبيات ..عشيقاته الجزائريات ..وأن له أولاداً يقارب عمرهم عمر عروسه الجديدة

:سألته

وهل تجد أنت هذا الزواج طبيعياً؟ -

:قال

من المؤكد أنه بمنطق الأشياء .لا أدري بأي منطق تريد أن أحكم عليه - ..إنه ليس أول زواج من هذا النوع، ولن يكون الأخير .عندنا زواج طبيعي وكلهم تخلّوا بطريقة أو .لمعظم الرجال المهمّين هنا أكثر من عشيقة بأخرى عن زوجاتهم وأولادهم، ليتزوجوا من عروس جديدة أصغر عمراً وأكثر ..جمالاً وثقافة من الأولى إنك لا تستطيع أن تمنع رجلاً عندنا زادوا له نجمة على أكتافه، من أن يزيد امرأة في بيته، أو تمنع رجلاً حصل على منصب .جديد لم يحلم به، من أن يبدأ في البحث عن فتاة أحلامه

:وأضاف

أنا حاولت فقط أن أقنع ناصر أن عمه لم يقصد بالضرورة القضاء على - .بل إن أي شخص سواه كان سيرحّب بهذه .مستقبل أخته بهذا الزواج إنها الطريقة الوحيدة ليحل مشكلاته ..ويسعى إليها لاهثاً ..المصاهرة ..ومشكلات ابنته مرة واحدة، ويوفر عليها كثيراً من المتاعب

:سألته

لو كانت لك بنت وخطبها منك هذا الرجل، أكنت زوّجته منها؟ -

قال:

الحرام هو ما يمارسه بعضهم بطرقٍ ..ولم لا؟ إن الزواج حلال ..طبعاً - أو أخته لتحضر له ورقة من ..كأن يرسل أحدهم ابنته أو زوجته .عصرية إدارة، أو تطلب شقّة أو رخصة لمحل تجاري نيابة عنه، وهو يعلم أن لا أحد لقد خلق البسطاء بأنفسهم عملة أخرى .هنا يعطيك شيئاً بلا مقابل !وخذ ما تشاء ..هات امرأة ..للتداول ويقضون بها حاجاتهم

تمتمت بذهول:

أحق ما تقول؟ -

أجاب:

حيث يمكن ..وفي العاصمة بالذات ..إنه ما يحدث الآن في أكثر من مدينة - ..لأي فتاة تمرّ بمكتب ما في الحزب أن تحصل على شقة أو خدمة أخرى والجميع يعرف العنوان طبعاً، ويعرف اسم من يوزّع الشقق والخدمات على يكفي أن ترى منظر الفتيات ..النساء والشعارات على الشعب بالتساوي ..اللاتي يدخلن هناك لتفهم كل شيء

سألته:

ومن أدراك بها؟ -

قال متذمراً:

من؟ لقد سمعته بأذني وشاهدته بعيني يوم ذهبت هناك منذ بضعة - عساه يساعدني في الخروج من ..أشهر لأقابل صديقاً موظّفاً في الحزب ..حتى البواب لم يكلف نفسه مشقة الحديث إليّ ..تصور .سلك التعليم وحدهن النساء .وعبثاً رحت أشرح له أنني قادم من قسنطينة لهذا الغرض أجابني "للأخ الفرّاش"وعندما أبديت تذمّري ..كن جديرات بالعناية هناك أن معظم الزائرات موظفات في الاتحادات "التشناف"بشيء من العصبية، و عضو"بأي "وكدت أسأله وأنا أرى إحداهن تمر أمامي .أو مناضلات ..الحزبية ولكنني سكتّ "؟..ناضلن على التحديد ".

المجالس ..بالسهرات .كل شي أصبح يمر بالنساء اليوم ..يا ولدي روح ..إيه ولذا لو كنت أملك الخيار لزوّجت ابنتي من واحد يمكنه بهاتف أن .الخاصة على أن أعطيها لواحد مثلي يعيش معها في البؤس كما .يأتيها بكل شيء

ويبعثها تدقّ على مئة باب؟ ..أو يدخل في هذه الحلقة القذرة ..أعيش أنا

وتلك المرارة التي ..ربما لاحظ وقتها آثار الصدمة المدهشة على ملامحي أسكتتني من الهول، عندما أضاف وكأنه يستدرك ليخفف من خيبتي:

- حتى لو عرضت ابنتي على سي....)لن يحدث هذا ..على كل حال. إنهم لا يتزوجون إلا من بعضهم .فمن المؤكد أنه لن يقبل بها ففلان لا يريد ويضمنوا لأنفسهم التنقل من "إلا بنت فلان، حتى يبقى زيتنا في دقيقنا"!. كرسي سلطة إلى آخر، فكيف تريد في هذا الجو أن يستطيع شابٌّ بسيط أن يبني حياته؟ كل البنات يبحثن عن المسؤولين والمديرين والرجال الجاهزين ..وهؤلاء يعرفون ذلك فيزيدون من شروطهم كل مرة ..بينما عدد العوانس يزيد كل يوم .إنه قانون العرض والطلب

المهم أن يستر .إذا رأيت الأمور بهذه العين، فإنك حتماً تعذر سي الشريف بنت أخيه، ويضمن لها ولنفسه مستقبلاً سعيداً قدر الإمكان.

فماذا تريد أن تفعل؟ كلهم ..أما كون العريس سارقاً وناهباً لأملاك الدولة هنالك من انفضحت أموره، وهنالك من عرف كيف يحافظ .سرّاق ومحتالون فقط ..على مظهر محترم!

أصبت بذهول وأنا أستمع إليه.

وربما كان سي الشريف أيضاً على .كدت أقول له إنه في النهاية على حق لا أدري ..حقّ.

ولكن كان هناك شيء ما في هذا الزواج، يرفض أن يدخل عقلي وأقتنع به.

الفصل السادس

لعرسك لبست بدلتي السوداء.
وللمآتم ..يمكن أن يلبس للأفراح .مدهش هذا اللون!
لماذا اخترت اللون الأسود؟
ربما لأنني يوم أحببتك أصبحت صوفياً، وأصبحتِ أنتِ مذهبي وطريقتي.
وربما لأنه لون صمتي.
قرأت يوما أن الأسود صدمة للصبر .لكل لون لغته.
ثم سمعت مرة مصمم أزياء شهيراً، يجيب .قرأت أيضاً أنه لون يحمل نقيضه عن سر لبسه الدائم للأسود قال:

."إنه لون يضع حاجزاً بيني وبين الآخرين"

ولكني سأكتفي بقول .ويمكن أن أقول لك اليوم الكثير عن ذلك اللون
.مصمم الأزياء هذا
فقد كنت في ذلك اليوم أريد أن أضع حاجزاً بيني وبين كل الذين سألتقي
.بهم، كل ذلك الذباب الذي جاء ليحط على مائدة فرحك
.وربما كنت أريد أن أضع حاجزاً بيني وبينك أيضاً

لبست طقمي الأسود، لأواجه بصمت ثوبك الأبيض، المرشوش باللآلئ
..والزهور، والذي يقال إنه أعدّ لك خصيصاً في دار أزياء فرنسية
هل يمكن لرسام أن يختار لونه بحياد؟
ونظرة حسان، الذي .أكّدت لي المرآة ذلك .فللحزن أناقته أيضاً .وكنت أنيقاً
هكذا " :استعاد فجأة ثقته بي، وقال بلهجة جزائرية أحبها، وهو يتأملني
".!..إهلكهم ..نحبك آ خالد

.ولكني صمتّ ..كدت أقول له شيئاً ..نظرت إليه

عند الباب المشرع للسيارات، وأفواج القادمين، استقبلني سي الشريف
..بالأحضان

راك ..يعطيك الصحة اللي جيت ..زارتنا البركة ..أهلاً ..أهلاً سي خالد -
.فرحتني اليوم

:قلت .اختصرت ذلك الموقف العجيب مرة أخرى في كلمة

..كل شيء مبروك -

.وحاولت أن أحتفظ به طوال تلك السهرة .وضعت قناع الفرح على وجهي

.ويمتلئ صدري بدخان السجائر التي أحرقها وتحرقني .يمتلئ البيت زغاريد
فأضحك مع .ويتعلم وجهي تلقائياً الابتسامات الكاذبة .يمتلئ قلبي حزناً
أتحدث في الذي أدري والذي لا .أجالس من أعرف ومن لا أعرف .الآخرين
.فأنهار ..حتى لا أفاجئك داخلي ..حتى لا أخلو بك لحظة واحدة .أدري

:أسلّم على العريس الذي يقبّلني بشوق صديق قديم لم يلتق به منذ مدة

!ما كناش شفناك ..كان موش هاذا العرس ..هاك جيت للجزائر آ سيدي -

أحاول أن أنسى أنني أتحدث لزوجك، لرجل يتحدث إليّ مجاملة على
..عجل، وهو يفكر ربما في اللحظة التي سينفرد فيها بك في آخر الليل

بدلته الزرقاء الحريرية التي ..أتأمل سيجاره الذي اختاره أطول للمناسبة أحاول ألا أتوقف عند .بأناقة من تعوّد على الحرير _أو تلبسه_يلبسها أتلهّى بالنظر إلى وجوه الحاضرين .أحاول ألا أتذكر .جسده

..وتطلّين

تدخلين في موكب نسائي، يحترف البهجة والفرح، كما أحترف أنا الرسم والحزن.

أراك لأول مرة، بعد كل أشهر الغيبة تلك، تمرين قريبة وبعيدة، كنجمة هاربة وأغنية .مثقلة الأثواب والخطى، وسط الزغاريد ودقّات البندير ..تسيرين . في .تستفزّ ذاكرتي، وتعود بي طفلاً أركض في بيوت قسنطينة القديمة لم أكن أعرف عنها شيئاً ..خلف عروس أخرى ..مواكب نسائية أخرى يومذاك.

آه كم كنت أحب تلك الأغاني التي كانت تزفّ بها العرائس، والتي كانت !وإذا بها اليوم تبكيني .تطربني دون أن أفهمها

يقال إن العرائس يبكين دائماً عند سماع "..شرّعي الباب يا أم العروس" .هذه الأغنية

تراك بكيت يومها؟

فعدلت .يفصلني عنهما ضباب دمعي وحشد الحضور ..كانت عيناك بعيدتين .عن السؤال

.اكتفيت بتأمّلك، في دورك الأخير

ها أنت ذي تتقدّمين كأميرة أسطورية، مغرية شهية، محاطة بنظرات .مكابرة ..مربكة، بسيطة ..مرتبكة ..الانبهار والإعجاب

تحسدك كل النساء ..ها أنت ذي، يشتهيك كل رجل في سرّه كالعادة ..حولك كالعادة
.أواصل ذهولي أمامك _كالعادة _وها أنذا

.يغنّي لأصحاب النجوم والكراسي الأمامية ..كالعادة .."الفرقاني"وها هوذا

يصبح صوته أجمل، وكمنجته أقوى عندما يزفّ الوجهاء وأصحاب القرار .والنجوم الكثيرة
ويرتفع غناء الجوقة في صوتٍ واحد لترحب ..تعلو أصوات الآلات الموسيقية :بالعريس

..بالعوادة ..يا ديني ما أحلالي عِرسو"
..الله لا يقطعلو عادة
"والخميس عليه .خمسة ..وانخاف عليه

.وتتساقط الأوراق النقدية ..تعلو الزغاريد

وما أكرم الأيدي التي تدفع كما تقبض على .ما أقوى الحناجر المشتراة !عجل

..ها هم هنا

.كالعادة ..كانوا هنا جميعهم

والبدلات التي تلبس على ..والسجائر الكوبية ..أصحاب البطون المنتفخة .أكثر من وجه

أصحاب الحقائب الدبلوماسية، أصحاب المهمات ..أصحاب كل عهد وكل زمن .المشبوهة، أصحاب السعادة وأصحاب التعاسة، وأصحاب الماضي المجهول

..ها هم هنا

مديرون .ومشاريع سرّاق ..سرّاق سابقون .ومشاريع وزراء ..وزراء سابقون وعسكر متنكّرون ..مخبرون سابقون .ووصوليون يبحثون عن إدارة ..وصوليون .في ثياب وزارية

..ها هم هنا

أصحاب العقول الفارغة، .أصحاب النظريات الثورية، والكسب السريع .والفيلات الشاهقة، والمجالس التي يتحدث فيها المفرد بصيغة الجمع

ملتفون دائماً حول الولائم .مجتمعون دائماً كأسماك القرش ..ها هم هنا ..المشبوهة
"!حتى يموت كبار الحارة ..ما تقول أنا"أعرفهم وأتجاهل معظمهم

.أعرفهم وأشفق عليهم

في .في علمهم وفي جهلهم .ما أتعسهم في غناهم وفي فقرهم !وفي انحدارهم المفجع ..صعودهم السريع

.ما أتعسهم، في ذلك اليوم الذي لن يمدّ فيه أحد يده حتى لمصافحتهم

وليرشقوا الوراق .فليأكلوا وليطربوا .هذا العرس عرسهم ..في انتظار ذلك "وليستمعوا للفرقاني يردد كما في كل عرس قسنطيني أغنية .النقدية ".صالح باي

تلك التي مازالت منذ قرنين تُغنّى للعبرة، لتذكّر أهل هذه المدينة بفجيعة ..وخدعة الحكم والجاه الذي لا يدوم لأحد (صالح باي)

والتي أصبحت تُغنّى اليوم بحكم العادة للطرب دون أن تستوقف كلماتها ..أحداً

ماتوا وقبلنا عزاهمْ ***كانوا سلاطين ووزراء
لا غناهُمْ ..لا عزّهم ***نالوا من المال كُثرةْ
"..ما نعطيوْ صالح ولا مالُو ***قالوا العرب قالوا

أتذكر وأنا أستمع لهذه الكلمات، أغنية عصرية أخرى وصلتني كلماتها من وعينيك ..يا صالح ..صالح"تتغزّل بصالح آخر ..مذياع بموسيقى راقصة ".."عجبوني

وليس ..بایاً "صالح"ولكن ليس كل .."صالحه"إيه يا قسنطينة، لكل زمن !كل حاكم صالحاً

أهذا هو الوطن حقاً؟ ..ها هوذا الوطن الآخر أخيراً أمامي

فأجلس أتأمّلهم، وأستمع لهم .في كل مجلس وجه أعرف عنه الكثير .يشكون ويتذمّرون

.لا أحد سعيد منهم حسب ما يبدو

وشتم ..المدهش أنهم هم دائماً الذين يبادرونك بالشكوى، وبنقد الأوضاع .الوطن

!عجيبة هذه الظاهرة

كأنهم ليسوا .كأنهم لم يركضوا جميعاً خلف مناصبهم زحفاً على كل شيء ..كأنهم ليسوا سبباً في ما حلّ به من كوارث .جزءاً من قذارة الوطن

لقد أصبح وزيراً منذ ذلك اليوم الذي زارني .(سي مصطفى)أسلّم على .ورفضت أن أبيعه إياها .فيه ليشتري مني لوحة

..إذن، فقد راهن على حصان رابح (سي الشريف)لقد نجحت تكهّنات

:أسأله مجاملة

واش راك سي مصطفى؟ -

:فيبدأ دون مقدمات بالشكوى

!..على بالك ..رانا غارقين في المشاكل -

فلا ..ليس من حق وزير أن يشكو" :تحضرني وقتها، مصادفة، مقولة لديغول ".!"أحد أجبره على أن يكون وزيراً

..أحتفظ بها لنفسي وأقول له فقط

..على بالي ..إيه -

بتلك المبالغ الهائلة التي تقاضاها في كندا (..على بالي)كنت ..نعم ولكنني كنت أخجل .كعمولة لتجديد معدّات إحدى الشركات الوطنية الكبرى لم يفعلوا ..أن أقول له ذلك، لأنني أدري أن الذين سبقوه إلى ذلك المنصب .أحسن منه

اكتفيت فقط بالاستماع إليه وهو يشكو، بطريقة تثير شفقة أي مواطن ..مسكين

كان أستاذاً ..بينما كان حسان مشغولاً عني بالحديث مع صديق قديم !سفيراً في دولة عربية ..قبل أن يصبح فجأة ..للعربية

كيف حدث ذلك؟

وصداقة قديمة تجمع ذلك الأستاذ بوالد "تركة"وقضية ..يقال إنه ردّ دين !الوحيدة "الحالة الدبلوماسية"وأنها ليست ..إحدى الشخصيات

الذي أعرفه جيداً والذي كان مدير إحدى المؤسسات (سي حسين)مثل وإذا به بين ليلة وضحاها يعيّن سفيراً .الثقافية، يوم كنت أنا مديراً للنشر فتكفلوا بلفّه بضعة أشهر .بعدما طلعت رائحته في الداخل ..في الخارج !وبعثه إلى الخارج مع كل التشريفات الدبلوماسية خلف علم الجزائر

.في جوّه الطبيعي ..ها هوذا اليوم هنا

لقد استدعي إثر قضية احتيال وتلاعب بأموال الدولة في الخارج، ليعاد دون .ولكن على كرسي جانبي هذه المرة ..ضجيج إلى وظيفة حزبية

سلة مهملات شرفيّة ..هنالك دائماً في هذه الحالات!

في مجلس آخر، مازال أحدهم ينظّر ويتحدث وكأنه مفكّر الثورة وكل ما أنه وصل إلى الصفوف ..وإحدى ثورات هذا الشخص .سيليها من ثورات الأمامية في ظروف مشبوهة، بعدما تفرّغ لتقديم طالباته إلى مسؤول عجوز مولع بالفتيات الصغيرات..

هذا هو الوطن..

سيرك لا مكان فيه .."السيرك عمّار"إنه .وها هو عرسك الذي دعوتني إليه والقفز على المراحل ..إلا للمهرّجين، ولمن يحترفون الألعاب البهلوانية..والقفز على القِيَم ..والقفز على الرقاب.

سيرك يضحك فيه حفنة على ذقون الناس، ويروّض فيه شعب بأكمله على الغباء.

فكم كان ناصر محقاً عندما لم يحضر هذا الكرنفال!

ولكن أين هو الآن ..كنت أدري بحدسٍ ما أنه لن يحضر؟.

وهل تغيّر صلاته .لكي لا يلتقي بهم ..تراه مازال يصلي في ذلك المسجد..أو يغيّر سكري شيئاً؟

لقد أصبحوا يصلّون أيضاً ويلبسون ثياب .كفّ عن الصلاة يا ابني !آه يا ناصر فأثناء ذلك ها هوذا الذباب يحطّ .وتعال نفكّر قليلاً ..كفّ عن الصلاة .التقوى على كل شيء، والجراد يلتهم هذه الوليمة.

وانهطل مطر الأوراق .كلما تقدم الليل، تقدم الحزن بي، وتقدم بهم الطرب النقدية عند أقدام نساء الذوات، المستسلمات لنشوة الرق، على وقع موسيقى أشهر أغنية شعبية..

"..فوق فراش حرير ومَخدّاتُو ***إذا صاح الليل وَيْن انباتُو "

أمان ..أمان..

إيه آ الفرقاني غَنّ..

إنها .لا علاقة لهذه الأغنية بأزمة السكن، كما قد يبدو من الوهلة الأولى فقط تمجيد لليالي الحمراء والأسرّة الحريرية التي ليست في متناول الجميع.

"..يا عين ما تبكيش ع اللي ماتوا ..ع اللي ماتوا"

.أمان ..أمان

.ولا لزياد ..ليست هذه ليلة لسي الطاهر ..لن أبكي

إنها ليلة الصفقات التي يحتفل بها علناً .ليست للشهداء ولا للعشاق
.بالموسيقى والزغاريد

"..يا لِندراشْ للغير وإلا ليّ ***خارجة من الحمّامْ بالريحيّةْ "

.أمان ..أمان

تؤكد .الآن أعي أنكِ للغير ولستِ لي .لن أطرح على نفسي هذا السؤال
ذلك الأغنيات، وذلك الموكب الذي يهرب بك، ويرافقك بالزغاريد إلى ليلة
.حبّك الشرعية

وأنت تمشين مشية العرائس تلك، أشعر ..وعندما تمرّين بي، عندما تمرين
وإنما بقدميك المخضّبتين "بالريحيّة"أنكِ تمشين على جسدي، ليس
..وأن خلخالك الذهبي يدّق داخلي، ويعبرني جرساً يوقظ الذاكرة ..بالحناء

..قفي

!ما هكذا تمرّ القصائد على عجل !قسنطينة الأثواب مهلاً

ثوبك المطرّز بخيوط الذهب، والمرشوش بالصكوك الذهبية، معلّقة شعر
وحزام الذهب الذي .كتبتها قسنطينة جيلاً بعد آخر على القطيفة العنابي
.يشد خصرك، لتتدفّقي أنوثة وإغراءً، هو مطلع دهشتي
.هو الصدر والعجز في كل ما قد قيل من شعرٍ عربيّ
..فتمهّلي
أنا الذي قد أموت دون أن يكون لي .وأنك لي ..دعيني أحلم أن الزمن توقّف
.عرس، ودون أن تنطلق الزغاريد يوماً من أجلي
!كم أتمنى اليوم لو سرقت كل هذه الحناجر النسائية، لتبارك امتلاكي لك
ذلك البطل الخرافي الذي يهرب بالعرائس "خطّاف العرائس"لو كنت
وخطفتك منهم ..الجميلات ليلة عرسهنّ، لجئتك أمتطي الريح وفرساً بيضاء
..

لباركتنا هذه المدينة، ولخرج من كل شارع عبرناه وليّ يحرق ..لو كنتِ لي
!قسنطينة ..ولكن ما أحزن الليلة ..البخور على طريقنا
وحدهم جلسوا إلى طاولتي دون سبب واضح ..ما أتعس أولياءها الصالحين

..وحجزوا لذاكرتي الأخرى كرسيّاً أمامياً ..

..وإذا بي أقضي سهرتي في السلام عليهم واحدا واحدا

..سلاماً يا سيدي راشد
يا ..يا سيدي سليمان ..يا سيدي محمد الغراب ..سلاماً يا سيدي مبروك
يا سيدي ..يا سيدي مسيد ..يا سيدي عبد المؤمن ..سيدي بوعنّابة
..يا سيدي جليس ..بومعزة

.أزقّتها وذاكرتها ..سلاماً يا من تحكمون شوارع هذه المدينة
أما كان ..فلا تتخلوا عني ..متعب أنا هذه الليلة ..قفوا معي يا أولياء الله منكم أبي؟

أباً عن جَد؟ "عيساوي"أبي يا
أنت الذي كنت في تلك الحلقات المغلقة، في تلك الطقوس الطُرقيّة فيتخرق ..العجيبة، تغرس في جسدك ذلك السفود الأحمر الملتهب ناراً جسدك من طرفٍ إلى آخر، ثم تخرجه دون أن تكون عليه قطرة دم؟
أنت الذي كنت تمرّر حديده الملتهب والمحمّر كقطعة جمر، فينطفئ جمره من لعابك، ولا تحترق.

.علّمني الليلة كيف أتعذّب دون أن أنزف
.علّمني كيف أذكر اسمها دون أن يحترق لساني
في "عيساوة"علّمني كيف أشفى منها، أنت الذي كنت تردد مع جماعة حلقات الجذب والتهويل، وأنت ترقص مأخوذاً باللهب:

"..يجرح ويداوي ..أنا سيدي عيساوي"

من؟ ..من يداويني يا أبي

..وأحبها

.وأنها لي ..في هذه الساعة المتأخرة من الألم، أعترف أنني مازلت أحبها
وذلك صاحب ..وذلك صاحب اللحية ..أتحدّى أصحاب البطون المنتفخة
..وكل الذين منحتهم الكثير ..وأولئك أصحاب النجوم التي لا تعدّ ..الصلعة
.واغتصبوها في حضرتي اليوم

.أتحداهم بنقصي فقط
بالذراع التي لم تعد ذراعي، بالذاكرة التي سرقوها منّي، بكل ما أخذوه منّا
.

.لأنني وحدي أحبها دون مقابل .أتحداهم أن يحبوها مثلي

وأدري أنه في هذه اللحظة، هناك من يرفع عنها ثوبها ذاك على عجل. يخلع عنها صيغتها دون كثير من الاهتمام ويركض نحو جسدها بلهفة رجل في الخمسين يضاجع صبية.

حزني عليه ..حزني على ذلك الثوب.

كم من الأيدي طرّزته، وكم من النساء تناوبن عليه، ليتمتع اليوم برفعه رجل رجل يلقي به على كرسي كيفما كان، وكأنه ليس ذاكرتنا، كأنه ليس واحد. الوطن.
فهل قدر الأوطان أن تعدّها أجيال بأكملها، لينعم بها رجل واحد؟

وكيف اكتشفت .لماذا وحدي تستوقفني كل هذه التفاصيل ..أتساءل الليلة الآن فقط، معنى كل الأشياء التي لم يكن لها معنى من قبل؟

أم البعد عنه، هو الذي أعطى الأشياء العادية ..أتراه عُشق هذا الوطن قداسة لا يشعر بها غير الذي حرم منه؟

ألأن المعايشة اليومية تقتل الحلم وتغتال قداسة الأشياء كان أحد الصحابة ينصح المسلمين بأن يغادروا مكة، حال انتهائهم من مراسيم الحج، حتى تبقى لتلك المدينة رهبتها وقداستها في قلوبهم، وحتى لا تتحول بحكم العادة إلى مدينة عادية يمكن لأي واحدٍ أن يسرق ويزني ويجور فيها دون رهبة؟

وحدي أعاملها كمدينة .إنه ما يحدث لي منذ وطئت قدماي هذه المدينة فوق العادة.

أسأل عن .أسلم على جسورها جسراً جسراً .أعامل كل حجر فيها بعشق واحداً ..أخبار أهلها، عن أوليائها وعن رجالها، واحداً..

أتأملها وهي تمشي، أتألها وهي تصلي، وتزني وتمارس جنونها ولا أحد يفهم جنوني وسرّ تعلّقي بمدينة يحلم الجميع بالهرب منها.

هل أعتب عليهم؟

وعلى ..هل يشعر سكان أثينا أنهم يمشون ويجيئون على ذاكرة التاريخ تراب مشت عليه الآلهة، وأكثر من بطل أسطوري؟

هل يشعر سكان الجيزة في بؤسهم وفقرهم، أنهم يعيشون عند أقدم معجزة، وأن الفراعنة مازالو بينهم، يحكمون مصر بحجرهم وقبورهم؟

وحدهم الغرباء الذين قرأوا تاريخ اليونان والفراعنة، في كتب التاريخ، يعاملون تلك الحجارة بقداسة، ويأتون من أطراف العالم لمجردّ الاقتراب منها.

تراني أطلت المكوث هنا، واقترفت حماقة الاقتراب من الأحلام حتى الاحتراق، وإذا بي يوماً بعد آخر، وخيبة بعد أخرى، أشفى من سلطة ولكن ليس دون الم؟ ..اسمها عليّ، وأفرغ من وهمي الجميل في هذه اللحظة، لا أريد لهذه المدينة أن تكون أكثر من رصاصة رحمة.

ولذا أتقبّل تلك الزغاريد التي انطلقت في ساعة متقدّمة من الفجر، لتبارك قميصك الملطّخ ببراءتك، كآخر طلقة نارية تطلقها في وجهي هذه المدينة، مذهول النظرات ..فأتلقاها جامداً .ولا كاتم ضمير ..ولكن دون كاتم صوت كجثة، بينما أرى حولي من يتسابق للمس قميصك المعروض للفرجة.

دليلاً .ها هم يقدمونك لي، لوحة ملطّخة بالدم، دليلاً على عجزي الآخر على جريمتهم الأخرى.
ليس من حق مشاهد لمصارعة الثيران، أن يغير .ولكنني لا أتحرك ولا أحتجّ "وإلا كان عليه أن يبقى في بيته ولا يحضر .منطق الأشياء، وينحاز للثور "الموتادور"خلقت أساساً لتمجيد "كوريدا!
.."الدخلة"شيء ما في هذا الجو المشحون بالزغاريد والزينة وموسيقى وذلك الثور الذي .والهتافات أمام ثوب موقّع بالدم، يذكّرني بطقوس الكوريدا يعدّون له موتاً جميلاً على وقع موسيقى راقصة يدخل بها الساحة، ويموت وبأناقة قاتله ..على نغمها بسيوفٍ مزيّنة للقتل، مأخوذاً باللون الأحمر!

من منّا الثور؟ أنتِ أم أنا المُصاب بعمى الألوان، والذي لا يرى الآن غير اللون لون دمك؟ ..الأحمر

ثور يدور في حلبة حبّك، بكبرياء حيوان لا يهزم إلا خِدعة، ويدري أنه محكوم عليه بالموت المسبق.

الواقع أن دمك هذا يربكني، يحرجني، ويملأني تناقضاً.

أما كنت أتحرق دائماً لمعرفة نهاية قصتك معه، هو الذي أخذك مني، تراه أخذ منك كل شيء؟

سؤال كان يشغلني ويسكنني حد الجنون، منذ ذاك اليوم الذي وضعت فيه ووضعتك أمام قدرك الآخر .أمامك (زياد).
تراك فتحت له قلاعك المحصّنة، وأذللت أبراجك العالية، واستسلمت لإغراء رجولته؟

تراك تركت طفولتك لي، وأنوثتك له؟

..أحمر ..طريّ ..ها هو أخيراً لزج .ها هو الجواب يأتيني بعد عام من العذاب عمره لحظات ..ورديّ.

ها هو الجواب كما لم أتوقّعه، مقحماً، محرجاً، فلِمَ الحزن؟

أن أدري أنني ظلمت زياداً بظني، وأنه ..ما الذي يؤلمني الأكثر هذه الليلة مات دون أن يتمتع بك، وأنه في النهاية كان هو الأجدر بك الليلة؟
أم أن تكوني فقط، مدينة فتحت اليوم عنوة بأقدام العسكر، ككل مدينة عربية؟

ما الذي يزعجني أكثر الليلة؟ أن أكون قد عرفت لغزك أخيراً، أم كوني أدري أنني لن أعرف عنك شيئاً بعد اليوم، ولو تحدّثت إليك عمراً، ولو قرأتك ألف مرة؟

أكنتِ عذراء إذن، وخطاياك حبر على ورق؟

فلماذا أوهمتني إذن بكل تلك الأشياء؟ لماذا أهديتني كتابك وكأنك تهدينني خنجراً للغيرة؟
وأن أغتصبك ..وكذبة بعد أخرى ..لماذا علّمتني أن أحبكِ سطراً بعد سطر على ورق!

..فليكن

.كنت خيبتي الأجمل ..عزائي اليوم، أنك من بين كل الخيبات

***

لماذا أنت حزين هذا الصباح؟ :يسألني حسان

ولماذا هو سعيد اليوم؟ :أحاول ألا أسأله

ولكنه .أدري أن غياب ناصر ومقاطعته البارحة للعرس، قد عكّر نوعاً ما مزاجه ويحادث كثيراً ..، وأن يضحك"الفرقاني"لم يمنعه من أن ينسجم مع أغاني من الناس الذين لم يلتق بهم من قبل.

.وكنت سعيداً شيئاً ما، لسعادته الساذجة تلك .كنت ألاحظه

كان حسان سعيداً أن تُفتح له أخيراً تلك الأبواب التي قلما تفتح للعامة، وأن يدعى لحضور ذلك العرس الذي يمكنه الآن أن يتحدث عنه في المجالس

لأيام؛ ويصفه للآخرين الذين سيلاحقونه بالأسئلة، عن أسماء من حضروا ..وما لبست العروس ..وما قُدِّم من أطباقي
ويمكن لزوجته أيضاً أن تنسى أنها استعارت صيغتها والثياب التي حضرت بها العرس من الجيران والأقارب، وتبدأ بدورها في التفاخر على الجميع بما رأته من بذخٍ في ذلك العرس، وكأنها أصبحت فجأة طرفاً فيه، فقط لأنها دعيت للتفرّج على خيرات الآخرين.

قال فجأة:

- لا تنسَ أن تكون في البيت وقت .إن سي الشريف يدعونا غداً للغداء عنده الظهر لنذهب معاً..

قلت له بصوت غائب:

- غداً سأعود إلى باريس.

صاح:

- ما الذي ينتظرك هناك؟ ..ابقَ معنا أسبوعاً آخر على الأقلّ ..كيف تعود غداً

حاولت أن أوهمه أن لي بعض الالتزامات، وأنني بدأت أتعب من إقامتي في قسنطينة.

ولكنه راح يلحّ:

- على الأقل احضر غداء سي الشريف غداً ثم سافر ..يا أخي عيب..

أجبته بلهجة قاطعة لم يفهم سببها:

- غدوة نروّح ..فرات.

كنت أشعر مع كل كلمة ألفظها، .كان يحلو لي أن أحدّثه بلهجة قسنطينية أنه قد يمر وقت طويل قبل أن ألفظها مرة أخرى.

قال حسان وكأنه يقنعني بضرورة عدم رفض تلك الدعوة:

- مازال برغم منصبه وفيّاً لصداقتنا القديمة ..والله سي الشريف ناس ملاح. ربما يفرجها الله علينا في ذلك .أتدري أن البعض يقول هنا إنه قد يصبح وزيراً اليوم على يده..

قال حسان هذه الجملة الأخيرة بصوت شبه خافت، وكأنه يقولها لنفسه..

مسكين حسان!

أكان من السذاجة بحيث .مسكين أخي الذي لم يفرجها الله عليه بعد ذلك يجهل أن ذلك العرس هو صفقة لا غير، وأن سي الشريف لا بدّ أن يتلقّى دون نوايا مسبقة ..نحن لا نصاهر ضبّاطاً من الدرجة الأولى .شيئاً ما مقابله .

أما بالنسبة لما يمكن أن يربح حسان من وراء منصب سي الشريف فمجرد أوهام ..المحتمل.

وينال بعض ..المؤمن يبدأ بنفسه، وقد تمر سنوات قبل أن يصل دور حسان ما يطمح إليه من فتات.

سألته مازحاً:

- هل بدأت تحلم أن تصبح أنت أيضاً سفيرا؟

قال وكأن السؤال قد جرحه نوعاً ما:

- أنا لا أريد أكثر من أن "..خطف بكري ..اللي خطف" ..يا حسرة يا رجل أهرب من التعليم، وأن أستلم وظيفة محترمة في أيّة مؤسسة ثقافية أو كيف تريد أن ..إعلامية، أية وظيفة أعيش منها أنا وعائلتي حياة شبه عادية من .أنا عاجز حتى عن أن أشتري سيارة .نعيش نحن الثمانية بهذا الدخل؟ عندما أتذكّر تلك السيارات الفخمة التي كانت .أين آتي بالملايين لأشتريها؟ لقد تعبت من .مصطفّة أمس في ذلك العرس، أمرض وأفقد شهية التعليم لقد تغيّر الزمن .هذه المهنة، أنت لا تشعر بأية مكافأة مادية أو معنوية فيها كاد "اليوم حسب تعبير زميل لي ..."كاد فيه المعلم أن يكون رسولاً"الذي وخرقة لا أكثر (شيفوناً)المعلم أن يكون.

و "يدزّ"و .فالأستاذ يركب الحافلة مع تلاميذه .لقد أصبحنا ممسحة للجميع ثم يعود مثل زميلي هذا، ليعدّ .ويشتمه الناس أمامهم .مثلهم "يطبّع" دروسه ويصحّح الامتحانات في شقّة بغرفتين، يسكنها ثمانية أشخاص وأكثر.

يمكنه أن ..بينما هناك من يملك شقّتين وثلاثاً بحكم وظيفته أو واسطاته يستقبل فيها عشقياته أو يعير مفاتيحها لمن سيفتح له أبواباً أخرى.

أنت تعيش بعيدا عن هذه الهموم، في حيّك الراقي ..صحّة عليك يا خالد !.ما على بالكش واش صاير في الدنيا ..بباريس

عندما أذكر حديثنا ذلك اليوم، تصبح المرارة غصّة في الحلق، ..آه حسان
.تصبح جرحاً، تصبح دمعا، تصبح ندماً وحسرة

.كان يمكن أن أساعدك أكثر، صحيح

اطلب شيئاً يا خالد مادمت هنا، ألست مجاهداً؟ ألم تفقد " :كنت تقول
أو شاحنة، ..اطلب قطعة أرض ..ذراعك في هذه الحرب؟ اطلب محلا تجارياً
وإذا شئت دعه لي لأستفيد منه .هذا حقك .إنهم لن يرفضوا لك شيئاً
.أنت يحترمونك ويعرفونك، وأما أنا فلا يعرفني أحد ..وأعيش عليه أنا وأولادي
أكثر .إنهم لا يتصدّقون عليك بشيء .إنه جنون ألا تأخذ حقك من هذا الوطن
أنت تحمل .من واحد يحمل شهادة مجاهد وهو لم يقم بشيء في الثورة
"..شهادتك على جسدك

لم تكن .لم تكن تفهم أن هذا هو الفرق الوحيد بيني وبينهم ..إيه حسان
تفهم أنه لم يعد ممكناً اليوم، بعد كل هذه السنوات، وكل هذا العذاب، أن
.ولو مقابل أية هبة وطنية ..أطأطئ رأسي لأحد

ولكن اليوم مع مرور الزمن، أصبح ذلك .ربما كنت فعلت هذا بعد الاستقلال
.مستحيلا
لم يبق من العمر الكثير، لأطأطئ رأسي قبل .لم يبق من العمر الكثير أخي
.الموت

أريد أن يخجلوا .أريد أن أبقى هكذا أمامهم، مغروساً كشوكة في ضميرهم
عندما يلتقوا بي، أن يطأطئوا هم رؤوسهم ويسألوني عن أخباري، وهم
.يعرفون أنني أعرف كل أخبارهم، وأنني شاهد على حقارتهم

!آه لو تدري حسان

لو تدري لذّة أن تمشي في شارع مرفوع الرأس، أن تقابل أيّ شخص
.بسيط أو هامّ جداً، دون أن تشعر بالخجل

هناك من لا يستطيع اليوم أن يمشي خطوتين على قدميه في الشارع،
وكان يعبرها في موكب من السيارات .بعدما كانت كل الشوارع محجوزة له
.الرسمية

قلت .وعدته فقط كمرحلة أولى أن أشتري له سيارة .لم أقل شيئاً لحسان
لا أريد أن .تأخذها معك من فرنسا .تعال معي، واختر سيارة تناسبك" :له
".."تعيش هكذا في هذه الحالة بعد اليوم

شعرت أن ذلك كان حلمه الكبير الذي كان عاجزاً .فرح حسان يومها كطفل
ولكن كيف لي أن أعرف ذلك وأنا لم .عن تحقيقه، وعاجزاً عن طلبه مني

أزره منذ سنوات؟

عندما أذكر حسان اليوم، وحدها تلك الالتفاتة تبعث في قلبي شيئاً من السعادة، لأنني أسعدته بعض الوقت، ومنحته راحة لبضع سنوات. لم أكن أتوقع أن تكون الأخيرة ..سنوات.

عاد حسان إلى موضوعه قال:

- هل أنت مصر حقاً على السفر غداً؟

قلت له:

- نعم ..من الأرجح أن أسافر غداً ..

قال:

- فقد يسيء تفسير سي الشريف اليوم، لتعتذر منه .إذن لا بد أن تطلب سي الشريف ويأخذ على خاطره ..موقفك..

قلت لحسان .فكرت قليلاً فوجدته على حقّ:

- اطلب لي رقم سي الشريف لأعتذر إليه ..

- ولكن سي الشريف راح يرحّب بي .كنت أتوقع أن تتوقف الأمور هناك ويحرجني بلطفه، ويلحّ لأحضر لزيارته ولو في ذلك الحين..

قال:

- ثم يمكنك أن ..المهم أن نراك قبل أن تسافر ..تعال إذن وتغدّ معنا اليوم تقدم هديتك بنفسك للعروسين قبل أن يسافرا أيضاً هذا المساء..

أنا .وجدت نفسي مرة أخرى، أواجه قدري معك .لم يكن هناك من مخرج الذي قررت السفر على عجل، حتى أنتهي من العيش في هذه الأجواء التي كانت تدور كلها بطريقة أو بأخرى حولك.

ها أنا مرة أخرى ألبس بدلتي السوداء نفسها، أحمل لوحة توقّفت أمامها وأذهب مع حسان إلى الغداء .يوماً وكانت سبب كل ما حلّ بي بعد ذلك..

كنت أدري أنني سألتقي بكِ .ها هما قدماي تقودانني مرة أخرى نحوك كان هناك حدس مسبق يشعرني أننا لن نخلف هذا الموعد .هذه المرة اليوم.

ما الذي قاله سي الشريف ذلك اليوم؟ ما الذي قلته ومن قابلت من الناس؟ وماذا قدم لنا من أطباق على تلك السفرة.. لم أعد أذكر.

ولم يكن يهمني شيء في تلك اللحظة، كنت أعيش لحظات حبك الأخيرة وأن أنتهي منك في الوقت نفسه ..سوى أن أراك!

كنت أخاف أن يشتعل حبك من رماده مرة أخرى .كنت أخاف حبك ..ولكن يظلّ خطراً حتى وهو ..فالحب الكبير، يظلّ مخيفاً حتى في لحظات موته يحتضر.

وجئت..

أكثر اللحظات وجعاً، أكثر اللحظات جنوناً، أكثر اللحظات سخرية، كانت تلك التي وقفت فيها لأسلم عليكِ، وأضع على وجنتيك قبلتين بريئتين، وأنا أهنئك بالزواج، مستعملاً كل المفردات اللائقة بذلك الموقف العجيب.

كم كان يلزمني من القوة، من الصبر ومن التمثيل، لأوهم الآخرين أنني لم ألتقِ بك قبل اليوم، سوى مرّة عابرة، وأنكِ لم تكوني المرأة التي قلبت حياتي رأساً على عقب؟
المرأة التي تقاسمني سريري الفارغ منذ عدة أشهر، والتي كانت حتى الي ..البارحة!

كم كان يلزمني من التمثيل، لأهديك تلك اللوحة، دون أي تعليق إضافي، دون أية إشارة توضيحية، وكأنها لم تكن اللوحة التي بدأت بها قصتي معك منذ خمس وعشرين سنة.

وكم كنتِ مدهشة أنتِ في تمثيلك، وأنتِ تفتحينها وتلقين نظرة معجبة عليها، وكأنك ترينها لأول مرة !فلا أستطيع إلا أن أسألك يتواطؤ سري جمعنا يوماً:

هل تحبين الجسور؟

ويخيم بيننا فجأة صمت قصير، يبدو لي طويلاً كلحظة تسبق حكماً بالإعدام أو العفو ..

قبل أن ترفعي عينيك نحوي وينزل حكمكِ عليّ:

نعم أحبها -!

كم من السعادة منحتني لحظتها في كلمتين!

شعرت أنك تبعثين لي آخر إشارة حبّ.

أكثر من ليلة وهمية. شعرت أنك تهديني أكثر من مشروع لوحة قادمة.. ولمدينة تواطأت .. وأنك رغم كل شيء ستظلّين وفيّة لذاكرتنا المشتركة لتجمعنا .. معنا، ومدّت كل هذه الجسور.

أكنت حبيبتي حقاً؟ في تلك اللحظة التي كان رجل آخر فيها إلى .. ولكن يلتهمك بعينين لم تشبعهما ليلة حب كاملة، في تلك اللحظة التي . جوارك كان فيها الحديث يدور حول المدن التي ستزورينها في شهر العسل، وكنت أنا أشيّعك بصمت، لسفرك الأخير عن قلبي..

ها أنا قابلتك . انتهى كل شيء إذن .. لقد كانت تلك هزيمتك الأولى معي أخيراً، أكان هذا اللقاء يستحق كل ذلك الانتظار، كل ذلك الألم؟

كم !وكم هو اليوم مدهش ومسطّح في واقعه !كم كان حلمي به جميلاً موجع بحضورك .. كان مليئاً بانتظارك، وكم هو فارغ!

أكانت نصف النظرة التي تبادلناها بين نظرتين، تستحق كل ذلك الوجع، كل ذلك الشوق والجنون؟

تتلعثم النظرات .. تريدين أن تقولي لي شيأً، وتتلعثم الكلمات.

ولم أعد أعرف فكّ رموزك الهيروغليفية .. لقد نسيت عيناك الحديث إليّ. فهل عدنا يومها إلى مرتبة الغرباء، دون أن ندري؟
افترقنا..
وكثير من التمثيل، وألم سري .. نظرتان .. نظرة . قبلتان أخيرتان على وجنتيك صامت.

تبادلنا جميعاً كلمات المجاملة والتهاني والشكر الأخير.

تبادلنا عناويننا، بعدما أصرّ زوجك على أن يعطيني رقم هاتفه في البيت وفي المكتب في حالة ما احتجت إلى شيء.

وقراره المسبق .. وانصرفنا كل بوهمه.

عندما عدت إلى البيت بعد ذلك، نظرت طويلاً إلى تلك البطاقة التي كنت وكأنك . ومذاق ساخر للمرارة .. أتحسّسها طوال الطريق بشيء من الذهول انتقلت معها من قلبي إلى جيبي تحت اسم ورقم هاتفي جديد.

أو التعمّق في التفكير، قرّرت أن أمزّقها فوراً، مادمت ..ودون كثير من التردد أملك القدرة على ذلك، ومادمت مصمماً على أن ينتهي كل شيء هنا في .كما أردتِ يوماً، وكما أصبحت أريد أنا اليوم ..قسنطينة

***

ما الذي كنت تريدينه ذلك المساء؟ عندما جاء هاتفك فجأة ليخرجني من دوامة أفكاري وأحاسيسي المتناقضة؟

"..هناك امرأة تريد أن تتحدث إليك" :حين مدّ حسان نحوي الهاتف وقال .توقّعت كل شيء إلا أن تكوني أنتِ

:سألتكِ بدهشة

ألم تسافري بعد؟ -

:قلتِ

لقد وهبتني سعادة ..أردت أن أشكرك على اللوحة ..سنسافر بعد ساعة - ..لم أتوقّعها

:قلت لكِ

لقد أعدت لكِ لوحة كانت جاهزة لكِ منذ خمس ..أنا لم أهبك شيئاً - وأما أنا فلي هدية أخرى .إنها هدية قدرنا الذي تقاطع يوماً ..وعشرين سنة ..أتوقع أن تعجبك، سأقدمها لك ذات يوم فيما بعد

قلتِ بصوت خافت وكأنك تخافين أن يسترق أحد السمع إليك أو يسرق منكِ :تلك الهدية

ماذا ستهدينني؟ -

:قلت

.لنفترض أنني سأهبك غزالة ..إنها مفاجأة -

:قلتِ مدهوشة

!إنه عنوان كتاب -

قلت:

- أدري..لأنني سأهبك كتاباً .عندما نحب فتاة نهبها اسمنا .سأكتب من أجلك رواية .نهبها كتاباً ..وعندما نحب كاتبة .امرأة نهبها طفلاً.

أحسست في صوتك بشيء من الفرح والارتباك.. شيء من الدهشة
ثم قلتِ فجأة بنبرة عشقية لم أعهدها منك .والحزن الغامض:

- أتدري هذا؟ ..أحبك ..خالد

وانقطع صوتك فجأة، ليتوحد بصمتي وحزني، ونبقى هكذا لحظات دون كلام
قبل أن تضيفي بشيء من الرجاء .:

- لماذا لا تجيب؟ ..قل شيئاً ..خالد

قلت لك بشي من السخرية المرة:

- لأن رصيف الأزهار لم يعد يجيب..

- هل تعني أنك لم تعد تحبني؟

أجبتك بصوت غائب:

- إنه عنوان لرواية أخرى للكاتب نفسه ..أنا لا أعني شيئاً بالتحديد!

من الأرجح أن يكون هذا آخر ما قلته لك قبل أن .ماذا قلت لك بعدها، لا أذكر
أضع السمّاعة، ونفترق لعدة سنوات.

***

"فم أعد هنا ..لا تطرقي الباب كل هذا الطرق".

لا تحاولي أن تعودي إليّ من الأبواب الخلفية، ومن ثقوب الذاكرة، وثنايا
الأحلام المطويّة، ومن الشبابيك التي أشرعتها العواصف.

لا تحاولي..

لم تكن تلك الذاكرة .يوم وقعت على اكتشاف مذهل .فأنا غادرت ذاكرتي:

ذاكرة يحمل كل منا نسخة .لي، وإنما كانت ذاكرة مشتركة أتقاسمها معك منها حتى قبل أن نلتقي.

فلم يعد لي باب ..لا تطرقي الباب كل هذا الطرق سيدتي.

لقد تخلّت عني الجدران يوم تخلّيت عنك، وانهار السقف عليّ وأنا أحاول أن أهرّب أشيائي المبعثرة بعدك.

فلا تدوري هكذا حول بيت كان بيتي.

لقد سرقت كلّ شيء منّي، ولم .لا تبحثي عن نافذة تدخلين منها كسارقة يعد هناك من شيء يستحقّ المغامرة.

..لا تطرقي الباب كلّ هذا الطرق الموجع

هاتفك يدقّ في كهوف الذاكرة الفارغة دونك، ويأتي الصدى موجعاً ومخيفاً.

وادي "ألا تدرين أنني أسكن هذا الوادي بعدك، كما يسكن الحصى جوف الرمال"؟

..تمهّلي سيدتي إذن

فأية زلة قدم سترميني بسيلٍ .تمهّلي وأنت تمرّين على جسور قسنطينة وأي سهو منك سيرميك هنا عندي لتتحطمي معي .من الحجارة.

..في عطر أمي وفي خوف أمي عليّ ..يا امرأة متنكّرة في ثياب أمي

معلّق أنا مثلها بين صخرتين وبين رصيفين .كجسور قسنطينة ..متعب أنا.

أكذب الأمهات أنت، وأحمق العشاق أنا؟ ..؟ ولماذا..فلماذا كل هذا الألم

إنها ..أنا لا أسكن هذه المدينة ..لا تطرقي أبواب قسنطينة الواحد بعد الآخر هي التي تسكنني.

وحدي أنا حملتها ..لا تبحثي عني فوق جسورها، هي لم تحملني مرة.

جديد، وأغنية كانت تغنّى _لا تسألي أغانيها عنّي، وتأتني لاهثة بخبرٍ قديم للحزن فصارت تغنّى للأفراح..

ما نعطيوْ صالح ولا مالُو ***قالوا العرب قالوا "
"..ما نعطيوْ صالح باي البايات ***قالوا العرب هيهات

أعرف عن ظهر قلب ما قاله العرب، وما لم يجرؤوا اليوم على قوله.

كان آخر بايات .ثوب حدادك الأول حتى قبل أن تولدي "صالح"كان ..وأدري آخ يا وليدي تها الله لي ..يا حمودة" :وكنت أنا وصيّته الأخيرة ..قسنطينة ..آه ..آه ..في الدار".

أي دار توصيني بها؟ ..أي دار يا صالح

سرقوا حتي .وشاهدت دارك فارغة من ذاكرتها (سوق العصر)لقد زرت وظلّت ..خرّبوا ممراتها وعبثوا بنقوشها .أحجارها، وشبابيكها الحديدية واقفة، هيكلاً مصفراً يبول الصعاليك والسكارى على جدرانه.

أيّ وطن هذا الذي يبول على ذكرته يا صالح؟

أي وطن هذا؟

وها أنت ذي طفلة .ها هي ذي مدينة تلبس حداد رجل لم تعد تذكر اسمه ..لا أحد يعرف قرابتها بهذه الجسور

وارفعي عن وجهك الخمار، ولا تطرقي الباب ..بعد اليوم "ملايتك"فانزعي ..كل هذا الطرق

ولا أنا ..فلم يعد صالح هنا.

..افترقنا إذن

..الذين قالوا الحب وحده لا يموت، أخطأوا
والذين كتبوا لنا قصص حب بنهايات جميلة، ليوهمونا أن مجنون ليلى محض لا يفهمون شيئاً في قوانين القلب ..استثناء عاطفي.

إنهم لم يكتبوا حباً، كتبوا لنا أدباً فقط

ولذا .العشق لا يولد إلا في وسط حقول الألغام، وفي المناطق المحظورة ..ليس انتصاره دائماً في النهايات الرصينة الجميلة

!في الخراب الجميل فقط ..إنه يموت كما يولد

..افترقنا إذن

يا وردة البراكين، ويا ياسمينة نبتت على حرائقي .فيا خرابي الجميل سلاماً سلاماً.

لقد كان خرابك الأجمل سيدتي، لقد كان !يا ابنة الزلازل والشروخ الأرضية ..خرابك الأفظع

قتلت وطناً بأكمله داخلي، تسللت حتى دهاليز ذاكرتي، نسفت كل شيء ..بعود ثقاب واحد فقط

!من علّمكِ اللعب بشظايا الذاكرة؟ أجيبي

من أين .بكل هذه الأمواج المحرقة من النار _أيضاً_من أين أتيت هذه المرة أتيت بكل ما تلا ذلك اليوم من دمار؟

..افترقنا إذن

ولا كنتِ ..لا كنتِ عاشقة .ولا كنتِ صادقة حقاً ..لم تكوني كاذبة معي .ولا كنتِ أمي حقاً ..لا كنتِ ابنتي .خائنة حقاً

.يحمل مع كل شيء ضده ..كنت فقط كهذا الوطن

أتذكرين؟

في ذلك الزمن البعيد، في ذلك الزمن الأول، يوم كنت تحبينني وتبحثين .فيّ عن نسخة أخرى لأبيك

:قلت مرة

كما ننتظر ..انتظرتك كثيراً، كما ننتظر الأولياء الصالحين ..انتظرتك طويلاً - !أنا في حاجة إليك ..لا تكن نبياً مزيفاً يا خالد ..الأنبياء

.."أنا في حاجة إليك"قلتِ فقط .لاحظت وقتها أنكِ لم تقولي أنا أحبك

.في كل الأزمنة ..نحن في حاجة إليهم فقط .نحن لا نحب بالضرورة الأنبياء

:أجبتك

..أنا لم أختر أن أكون نبياً -

:قلت مازحة

- الأنبياء لا يختارون رسالتهم، إنهم يؤدّونها فقط!

:أجبتكِ

- قد ..ولذا لو حدث واكتشفتِ أنني نبيّ مزيّف .ولا يختارون رعيّتهم أيضاً يكون ذلك لأنني بعثت لرعية تحترف الردّة!

:وبعناد أنثى يغريها التحدّي قلت ..ضحكت

- ..أنت تبحث عن مخرج لفشلك المحتمل معي، أليس كذلك؟ هات وصاياك العشر وأنا أطبقها .لن أمنحك مبرراً كهذا.

كنت أجمل من أن تطبّقي وصايا نبي، أضعف من .نظرت إليك طويلاً يومها ولكن كان فيك نور داخلي لم أشهده .أن تحملي ثقل التعاليم السماوية ..بذرة نقاء لم أكن أريد أن أتجاهلها ..في امرأة قبلك

أليس دور الأنبياء البحث عن بذور الخير فينا؟

:قلت

- لقد جئتك بالوصية الحادية عشرة ..دعي الوصايا العشر جانباً واسمعيني فقط..

:ضحكت وقلت بشيء من الصدق

- أقسم أنني سأتبعك ..هات ما عندك أيها النبي المفلس!

"..كوني لي فقط" :وأقول لك .لحظتها شعرت برغبة في أن أستغلّ قسمك وكنت دون أن أدري قد بدأت أمثّل أمامك الدور .ولكن لم يكن ذلك كلام نبي فرحت أبحث في ذهني عن شيء يمكن أن يقوله نبي ..الذي اخترته لي :قلت ..يباشر وظيفته لأول مرة

- ليس بالضرورة بغرور، ولكن بوعي عميق ..احملي هذا الاسم بكبرياء أكبر هل تعين هذا؟ ليس من حق الرموز ..أنت وطن بأكمله .أنك أكثر من امرأة هذا زمن حقير، إذا لم ننحز فيه إلى القيم سنجد أنفسنا في ..أن تتهشّم لا تجاملي أحداً ..لا تنحازي لشيء سوى المبادئ .خانة القاذورات والمزابل !لأنك في النهاية لا تعيشين مع سواه ..سوى ضميرك

:قلت

- فقط؟ ..أهذه وصيتك لي!

قلت:

- ستكتشفين ..إن تطبيقها ليس سهلاً كما تتوهّمين ..لا تستهيني بها ذلك بنفسك ذات يوم..

وتستسهليها ..كان لا بد ألا تسخري يومها من وصية ذلك النبي المفلس إلى هذا الحد..!

على ذلك اللقاء، ذلك الوداع .مرّت ستّ سنوات على ذلك السفر.

حاولت منذ عودتي، أن أضع شيئاً .حاولت خلالها أن ألملم جرحي وأنسى أن أعيد الأشياء على مكانها الأول، دون ضجيج ولا .من الترتيب في قلبي تذمّر، دون أن أكسر مزهرية، دون أن أغيّر مكان لوحة، ولا مكان القيم القديمة التي تكدّس الغبار عليها داخلي منذ زمن.

حاولت أن أعيد الزمان إلى الوراء، دون حقد ولا غفران أيضاً.

نحن لا نغفر بهذه السهولة لمن يجعلنا بسعادة عابرة، نكتشف كم كنا ..لا ونغفر أقل، لمن يقتل أحلامنا أمامنا دون أدنى شعور بالجريمة .تعساء قبله.

ولا لهم ..ولذا لم أغفر لك.

واخترت اللامبالاة .حاولت فقط أن أتعامل معك ومع الوطن بعشق أقل عاطفة واحدة نحوكما.

كان يحدث لأخبارك أن تصلني عن طريق المصادفة، وأنا أستمع إلى من وعن صفقاته وشؤونه السرية ..يتحدث عن زوجك، عن صعوده المستمر والعلنية التي تشغل أحاديث المجالس.

وكان يحدث لأخبار الوطن أن تأتيني أيضاً تارة في جريدة، وتارة في مجالس وتارة عندما زارني حسان بعد ذلك لآخر مرة ليشتري تلك السيارة .أخرى التي وعدته بها..

وكل مرة، كنت أواجه كل ما أسمعه باللامبالاة نفسها التي لا يمكن أن يولّدها سوى اليأس الأخير.

أصبح أمره وحده .بدأت أتعلّق بحسان فقط، وكأنني اكتشفت فجأة وجوده يهمني بعدما وعيت أنه كل ما تبقّى لي في هذا العالم، وبعدما اكتشفت تلك الحياة البائسة التي كان يعيشها، والتي كنت أجهل كل شيء عنها قبل زيارتي إلى قسنطينة.

أسأله عن أخباره وعن الأولاد، وعن البيت .أصبحت أطلبه هاتفياً بانتظام الذي كان ينوي أن يقوم فيه ببعض الإصلاحات، والذي وعدته أن أتكفّل بمصاريف ترميمه وتجديده.

كان يحدثني تارة عن .كانت معنوياته تنخفض وترتفع من هاتف إلى آخر بعض مشاريعه، وعن بعض الاتصالات التي يقوم بها ليتم نقله إلى العاصمة ثم يعود ويفقد فجأة حماسه ..

كنت أعرف ذلك عندما يسألني في آخر مكالمته:

متى ستأتي يا خالد؟ -

أشعر عندئذٍ أنه باخرة تغرق، وتبعث إشارة ضوئية تطلب النجدة مني.

وبرغم ذلك، كنت أسايره فقط، وأعده كل مرة أنني قد أزوره في الصيف وكنت أعرف في أعماقي أنني أكذب، وأنني قطعت الجسور مع .القادم الوطن حتى إشعار آخر.

كان القطار يسير في .في الواقع، أصبحت عندي قناعة بانعدام الأمل أي شيء، ..الاتجاه المعاكس، وبسرعة لم يكن ممكناً معها أن نفعل شيئاً غير الذهول وانتظار كارثة الاصطدام.

وأمضي دون أن أدري في اتجاهٍ آخر أيضاً، في ..وكنت أحزم حقائب القلب الاتجاه المعاكس للوطن.

أصنع من المنفى وطناً آخر لي، وطناً ربما .رحت أؤثث غربتي بالنسيان أبدياً، عليّ أن أتعود العيش فيه.

مع جسر ..أقمت علاقات طبيعية مع نهر السين .بدأت أتصالح مع الأشياء مع كل المعالم التي كانت تقابلني من تلك النافذة، والتي كنت ..ميرابو أعيش في معاداة لها دون سبب.

بنساء ..أثثت سريري بالملذّات الجنونية .اخترت لي أكثر من عشيقة عابرة كنت أدهشهن كل مرة أكثر، وأقتلك بهن كل مرة أكثر، حتى لم يبق شيء منكِ في النهاية.

نسي هذا الجسد شوقه لك، نسي تطرّفه وحماقاته وإضرابه عن كل لذة ما عدا لذّتك الوهمية.

تعمدت أن أفرغ النساء من رموزهن الأولى.

من قال إن هناك امرأة منفى، وامرأة وطناً، فقد كذب..

والذاكرة ليست الطريق الذي يؤدي إليهن .لا مساحة للنساء خارج الجسد. يمكنني أن أجزم اليوم بهذا ..في الواقع هنالك طريق واحد لا أكثر!

اكتشفت شيئاً لا بد أن أقوله لك اليوم..

وهم نخلقه لحظة جنون .ممارسة خيالية لا أكثر .الرغبة محض قضية ذهنية نقع فيها عبيداً لشخص واحد، ونحكم عليه بالروعة المطلقة لسبب غامض لا علاقة له بالمنطق.

لعطر رائحة ..رغبة تولد هكذا من شيء مجهول، قد يعيدنا إلى ذكرى أخرى لكلمة، لوجه آخر ..أخرى..

رغبة جنونية تولد في مكان آخر خارج الجسد، من الذاكرة أو ربما من اللاشعور، من أشياء غامضة تسللت إليها أنتِ ذات يوم، وإذا بك الأروع، وإذا بك الأشهى، وإذا كل النساء أنتِ.

أفهمت لماذا قتلتك تلقائياً يوم قتلت قسنطينة في داخلي؟

ولم أعجب يومها وأنا أرى جثتك ممدة في سريري.

لم تكونا في النهاية سوى امرأة واحدة.

لماذا كتبت لي هذا الكتاب إذن؟ وسأجيبك أنني أستعير :ستقولين طقوسك في القتل فقط، وأنني قررت أن أدفنك في كتاب لا غير.

فللحب بعد الموت، رائحة كريهة .فهناك جثث يجب ألا نحتفظ بها في قلبنا أيضاً، خاصة عندما يأخذ بُعْد الجريمة.

قررت هكذا أن .لاحظي أنني لم أذكر اسمك مرة واحدة في هذا الكتاب هنالك أسماء لا تستحق الذكر .أتركك بلا اسم.

فهل مهم ..، وربما كان لها اسم آخر"حياة"لنفترض أنك امرأة كان اسمها اسمك حقاً؟

وحدها أسماء الشهداء غير قابلة للتزوير، لأن من حقهم علينا أن نذكرهم بأسمائهم كاملة. كما من حق هذا الوطن علينا أن نفضح من خانوه، وبنوا مجدهم على دماره، وثروتهم على بؤسه، مادام لا يوجد هناك من يحاسبهم.

أؤكد لك سيدتي تلك الإشاعة ما إن هذا الكتاب لك.. ستقول وأدري الإشاعة.

سيقول نقّاد يمارسون النقد تعويضاً عن أشياء أخرى، إن هذا الكتاب ليس رواية، وإنما هذيان رجل لا علم له بمقاييس الأدب.

فلا مقياس عندي سوى مقاييسهم لمقاييسهم واحتقاري أؤكد لهم مسبقاً جهلي، مقياس الألم، ولا طموح لي سوى أن أدهشك أنتِ، وأن أبكيك أنت، لحظة تنتهين من قراءة هذا الكتاب..

فهناك أشياء لم أقلها لك بعد.

وأحرقي ما في خزانتك من كتبٍ لأنصاف الكتاب، اقرئي هذا الكتاب.. وأنصاف الرجال، وأنصاف العشاق.

فليذهب إلى الجحيم كل الذين أحبوك بتعقّل، من الجرح وحده يولد الأدب. دون أن يفقدوا وزنهم ولا اتزانهم دون أن ينزفوا..

كما تتصفّحين ألبوم صور مصفرّة، لطفلة تصفّحيني بشيء من الخجل.. كانت أنتِ.

كما تطالعين قاموساً لمفردات قديمة معرّضة للانقراض والموت.

كما تقرأين منشوراً سرياً، عثرت عليه يوماً في صندوق بريدك.

واقرأيني افتحي قلبك..

عن كل ما كنت يوماً أريد أن أحدثك عن سي الطاهر وعن زياد وعن آخرين.. كنت تجهلين.

أصبح كل ولم يعد اليوم وقت للحديث عن الشهداء ولكن مات حسان..
واحد منا مشروع شهيد.

ولم "الغزلان لا تكون غزلاناً إلا عندما تكون حيّة". يحزنني ألا أهبك غزالة يبق لي ما يمكن أن أهديكِ اليوم.

وتحول .لقد أخذت مني كل من أحببت، الواحد بعد الآخر، بطريقة أو بأخرى وكأن قبر .القلب إلى مقبرة جماعية ينام فيها دون ترتيب كل من أحببت .قد اتسع ليضمهم جميعاً (أمّا)

شاهد قبر .لزياد ولحسان ..ولم أعد أنا سوى شاهد قبر لسي الطاهر .للذاكرة

كنت أدري الكثير عن حماقة القدر، الكثير عن ظلمه وعن عناده، عندما يصرّ .على ملاحقة أحد

ولكن أكان يمكن لي أن أتوقع أن شيئاً كذلك يمكن أن يحدث؟
كنت اعتقد أنني دفعت لهذا القدر الأحمق ما فيه الكفاية، وأنه حان لي بعد هذا العمر، وتلك السنوات التي تلت فجيعة زياد، وفجيعة زواجك، أن أرتاح .أخيراً

فكيف عاد القدر اليوم ليأخذ مني أخي، أخي الذي لم يكن لموته من لا كان في جبهة، ولا كان في ساحة قتال ليموت ميتة سي .منطق .أيضاً ..الطاهر، وميتة زياد، رمياً بالرصاص

***

، جاء خبر موته هكذا صاعقة يحملها خط هاتفي 88ذات يوم من أكتوبر .مشوش، وصوت عتيقة الذي تخفيه الدموع

:ظلت تجهش بالبكاء وتردد اسمي، وأنا أسألها مفجوعاً

"؟..واش صار" -

كنت على علم بتلك الأحداث التي هزّت البلاد، والتي كانت الجرائد ونشرات الأخبار الفرنسية تتسابق بنقلها مصور، مفصلة، مطوّلة، باهتمام لا .يخلو من الشماتة
كنت أعرف تفاصيلها، وأدري أنها مازالت وهي في يومها الثاني مقتصرة فمن أين لي أن أتوقّع الذي حدث؟ .على العاصمة

:كان صوت عتيقة يردد مقطّعاً

..يا وخيدتي قتلوه ..آ خالد ..قتلوه -

وصوتي يردد مذهولاً:

كيفاش قتلوه؟ ..كيفاش -

كيف مات حسان؟

هل مهم السؤال، وموته كان أحمق كحياته، ساذجاً كأحلامه.

بين الوهم ..أقرأ كل الجرائد لأفهم كيف مات أخي، بين الحلم والحلم والوهم.

هناك، هو الذي لم يزر "جماعة"ما الذي ذهب به إلى العاصمة ليقابل العاصمة إلا نادراً.

ليبحث عن نهايته ..ذهب هكذا في نهاية أسبوع.

ضاقت به قسنطينة، ولم توصله جسورها الكثيرة إلى شيء.

ستوصلك الطرق القصيرة هناك ."خيوط"في العاصمة ستكون لك " :قالوا له ."!ولن توصلك الجسور هنا ..

آخر "فلان"من قبل "فلاناً"صدّق حسان، وذهب إلى العاصمة ليقابل..

وكان مقرراً أن تحل قضيته أخيراً هذه المرة، بعد عدة سنوات من الوساطات والتدخلات، ويغادر نهائياً سلك التعليم، لينتقل إلى العاصمة ويعيّن موظفاً في مؤسسة إعلامية.

هذه المرة "ملفه"ولكن القدر هو الذي حسم.

مات حسان، خطأ برصاصة خاطئة، على رصيف الحلم "فلان"و "فلان"بين.

كان عليك ألا تحلم ..فالحلم ليس في متناول الجميع أخي!

ولهذا اختارني أنا، واختار لي كل "إن الشقاء يعرف كيف يختار صفاته"أحقاً هذه الفجائع المذهلة، لأنفرد بها وحدي.

أنا الذي لم أكن أحلم سوى بأن أهبك غزالة..

كل هذا الخراب؟ ..وأنت تهبينني كل هذا الدمار ..كيف لي أن أفعل ذلك

***

ويعود فجأة، حديث قديم بيننا إلى البال.

في ذلك الزمن الذي كنت تجدين فيه .حديث مرّت عليه اليوم ست سنوات
الرجل الذي أحببته الأكثر حسب تعبيرك، والذي ."زوربا"شبهاً بيني وبين
كنتِ تحلمين بكتابة رواية كروايته، أو حب رجل مثله.

ترى لأنك كنت عاجزة عن كتابة رواية كتلك، اكتفيت بتحويلي إلى نسخة
منه، وجعلتني مثله أتعلم أن أشفى من الأشياء التي أحبها بأكلها حتى
التقيؤ..

جعلتني أعشق الخراب الجميل، وأتعلم كطائر يذبح أن أرقص من ألمي..

ها هوذا الخراب الجميل، الذي حدّثتني عنه يوماً بحماسٍ مدهش لم يثر
شكوكي، يوم قلتِ:

"إنه تميز في الخيبات .مدهش أن يصل الإنسان بفجائعه حد الرقص
لا بد أن تكون لك .فليست كل الهزائم في متناول الجميع .والهزائم أيضاً
أحلام فوق العادة، وأفراح وطموحات فوق العادة، لتصل بعواطفك تلك إلى
ضدها بهذه الطريقة..".

آه سيدتي لو تدرين!

وما أفظع هذا الخراب الذي تتسابق قنوات .كم كانت أحلامي كبيرة
التلفزيون على نقله اليوم!

ما أفظع هذا الدمار، وما أحزن جثة أخي الملقاة على رصيف، يخترقها
رصاص طائش!

ما أحزن جثته، وهي تنتظرني الآن في ثلاجة الموتى لأتعرف عليه، وأرافقه
جثماناً إلى قسنطينة.

ها هي ذي قسنطينة مرة أخرى..
تلك الأم الطاغية التي تتربص بأولادها، والتي أقسمت أن تعيدنا إليها ولو
جثة.

في تلك اللحظة التي اعتقدنا فيها .ها هي قد هزمتنا، وأعادتنا إليها معاً
أننا شفينا منها، وقطعنا معها صلة الرحم.

ولا أنا سأقدر على الهرب منها بعد اليوم ..لا حسان سيغادرها إلى العاصمة ..

..ها نحن نعود إليها معاً

.والآخر أشلاء رجل ..أحدنا في تابوت

..أيتها الأم الصخرة ..وقع حكمك عليّ أيتها الصخرة

افسحي له مكاناً صغيراً جوار ..سآتيك بأخي .فأشرعي مقابرك، وانتظريني .كان حسان كل هذا على طريقته ..أوليائك الصالحين، وشهدائك، وباياتك

..كان غزالاً

!تعالي سيدتي وتفرّجي على كل هذا الخراب الجميل ..في انتظار ذلك

.فبعد قليل سيحضر زوربا ليمسك بكتفي ولنبدأ الرقص معاً

..تعالي

لا بد ألا تخلفي هذا المشهد، سترين كيف يرقص الأنبياء عندما يفلسون .حقاً

سأرقص اليوم كما لم أرقص يوماً، كما اشتهيت أن أرقص في ..تعالي ..عرسك ولم أفعل

سأقفز وكأن جناحينْ قد التصقا بقدمي فجأة، وكأن ذراعي المفقودة قد .نبتت من جديد لتصبح ذراعي

."عيساوة"وليعذرني أبي الذي لم أشاركه يوماً في طقوس ..تعالي في حفل جذبه ورقصه الجنوني، وغرسه ذلك السفود في جسده من طرف .بنشوة الألم الذي يجاور اللذة ..إلى آخر

فليعذرني الأنبياء .للحزن أكثر من طقس، وليس للألم وطن على التحديد !والأولياء الصالحون

لا أدري ماذا يفعل الأنبياء بالتحديد عندما يحزنون، ماذا .ليعذروني جميعا يفعلون في زمن الردّة؟

هل يبكون أم يصلون؟

..الرقص عبادة أيضاً .الرقص تواصل أيضاً .أنا قررت أن أرقص

.بذراع واحدة سأرقص لك ..فانظر أيها الأعظم

!ما أبشع الرقص بذراعٍ واحدة يا ربي !ما أصعب الرقص بذراعٍ واحدة يا ربي ولكن..

.ستعذرني أنت الذي أخذت ذراعي الأخرى

.أنت الذي أخذتهم جميعاً ..ستعذرني

!لأنك ستأخذني أيضاً ..ستعذرني

أن ترى تلك مقولة خلقت لتعلمنا الصبر فقط، ..هل المؤمن مصاب حقاً؟ لتبيعنا بدل مصائبنا فرح امتلاك شهادة بالتقوى؟

..فليكن

.شكراً لك أيها الأعظم، أنت الذي لا يُحمد على مكروه سواه

.والأتقياء منهم ..أنت الذي لا تخصّ بمصابك سوى المؤمنين من عبادك

!اعترف أنني لم أكن احلم بشهادة حسن سلوك كهذه

.أفرغ منك سيدتي وأمتلئ لحناً يونانياً

.نحوي، دعوة للجنون المتطرف "زوربا"تتقدم موسيقى

وإذا بذلك اللحن .تأتي على شريط تعودت الاستماع إليه بمتعة غامضة .القادم اليوم وسط الخراب والجثث، يأخذ فجأة بُعده الأول الحقيقي

هيا "فأنتفض فجأة من أريكتي وهو يفاجئني، وأصرخ كما في تلك القصة ..".دربني على الرقص ..زوربا

لم أكن أعتقد أن يكون .الذي جعلتنا نشتهيه "الخراب الجميل"ها هوذا !موجعاً إلى هذا الجد ..بشعاً إلى هذا الحد

.جرحاً ..جرحاً .نغمة ..وتخترقني نغمة .تزحف موسيقى تيودراكيس نحوي

.ثم سريعة كنوبة بكاء ..بطيئة

ثم جريئة كلحظة رجاء ..خجولة.

ثم نشوى كتقلبات شاعر أمام كأس ..حزينة.

ثم واثقة كأقدام عسكر ..مترددة.

أرقص كمجنون في غرفة شاسعة، تؤثثها اللوحات والجسور .فأستسلم لها .

وأقف أنا وسطها وكأنني أقف على تلك الصخرة الشاهقة، لرقص وسط الخراب، بينما جسور قسنطينة الخمسة تتحطم وتتدحرج أمامي حجارة نحو الوديان.

إيه زوربا!

وكنت أريد أن أجعلها .تزوجت تلك المرأة التي كنت أحبها، وكانت تحبك أنت نسخة مني، فجعلتني نسخة منك.

ذلك الصديق الذي اشترى هذا الشريط لأنه ربما كان يحبك أيضا ..ومات زياد من اجلها، وربما لأنه كان يتوقع لي يوماً كهذا، ويعد لي على طريقته كل تفاصيل حزني القادم.

وورثته أنا في جملة ما أورثني من أحزان ..وربما يكون تلقّاه هدية منها.

أخي الذي لم يكن يهتم كثيراً بالإغريق، وبالآلهة اليونانية ..ومات حسان.

كان له إله واحد فقط، وبعض الأسطورات القديمة.
وصوت عبد الباسط عبد ..وأم كلثوم ..مات ولا حب له سوى الفرقاني الصمد.

وثلاجة ..ولا حلم له سوى الحصول على جواز سفر للحج.

لقد أهداه الوطن ثلاجة ينتظرني فيها بهدوء .لقد تحققت نصف أحلامه أخيراً كعادته، لأشيعه هذه المرة إلى مثواه الأخير.

لو عرفك، ربما لم يكن ليموت تلك الميتة الحمقاء.

لو قرأك بتمعّن، لما نظر إلى قاتليه بكل الانبهار، لما حلم بمنصب في العاصمة، بسيارة وبيت أجمل..

لشتمهم كما لم يشتم أحداً، لرفض أن ..لبصق في وجه قاتليه مسبقاً

يصافحهم في ذلك العرس، لقال:

"- املأوا جيوبكم .لن تسرقوا دمنا أيضاً .القتلة ..السراقون ..أيها القوّادون سيبقى ..وحساباتكم بأية عملة شئتم ..أثثوا بيوتكم بما شئتم .بما شئتم بهما سنعمّر هذا ..بهما سنطاردكم ..بهما سنحاسبكم .لنا الدم والذاكرة من جديد ..الوطن".

مات زياد وها هوذا حسان يموت غدراً أيضاً ..آه زوربا.

آه لو تدري يا صديقي، لم يكن أحدهما ليستحق الموت.

كان يخاف حتى أن يحلم، .كان حسان نقياً كزئبق، وطيباً حد السذاجة وعندما بدأ يحلم قتلوه.

لو رأيت ضحكته، لو سمعته .آه كان يشبهك بعض الشيء ..وكان زياد حزناً عليهما ..لو عرفتهما، لرقصت ..يسكر ..يبكي ..يلعن ..يكفر ..يتحدث الليلة كما لم ترقص من قبل.

ربما لأنك متّ، كما في .أدري بأنك أنت أيضاً لن تحضر الليلة ..ولكن لا يهم تلك الرواية، بعد أن لعنت الكاهن الذي جاء ليناولك القربان المقدس قبل الموت..
لأنك بطل خرافي لزمن كان .أو ربما لأنك لم توجد يوماً أبداً على هذه الأرض عن آلهة إغريقية جديدة، تعلّمهم .الناس يبحثون فيه عن خرافة كهذه وعبثية الحياة ..الجنون والتحدي.

فهل مهم أن تتغيب الليلة، كما تغيبوا جميعاً؟

أنت لست مسؤولاً في النهاية عن كل ما يمكن .لن أعتب عليك يا صديقي أن يرتكب من حماقات بسبب رواية!

أنت الذي قتلت من الأتراك، وقتلوا من رفاقك الكثيرين ..ولكن أجبني فقط. هل هناك من فرق بين القتلة؟

وعلى يد الإسرائيليين مات زياد ..على يد الفرنسيين مات سي الطاهر.. وها هو حسان يموت على يد الجزائريين اليوم.

فهل هناك درجات في الاستشهاد؟ وماذا لو كان الوطن هو القاتل والشهيد معاً؟

فكم من مدينة عربية دخلت التاريخ بمذابحها الجماعية، ومازالت مغلقة

!على مقابرها السرية

!قبل أن يصبحوا مواطنين ..كم من مدينة عربية أصبح سكانها شهداء

في خانة ضحايا التاريخ، أم في خانة الشهداء؟ ..فأين تضع كل هؤلاء

!وما اسم الموت عندما يكون بخنجر عربي

***

:ما كادت كاترين تراني في ذلك الصباح حتى صاحت

!إن لك وجه رجل يستيقظ من ليلة سكر -

:ثم أضافت بشيء من السخرية والتلميح الواضح

ماذا فعلت أمس أيها الشقي، لتكون في هذه الحالة؟ -

:قلت

!ربما لم أنم فقط ..لا شيء -

قالت وهي تلقي نظرة على الصالون، وتبحث بفضول امرأة عن آثار تدلها
:على نوعية من قضيت معهم السهرة

هل استقبلت أصدقاء أمس؟ -

.نعم :ابتسمت لسؤالها، شعرت برغبة في أن أجيبها

..يحدث للحزن عندما يجاور الجنون، أن يبدأ هكذا في السخرية من نفسه

:واصلَتْ

وهل قضوا الليلة هنا؟ -

:قلت

..رحلوا ..لا -

أضفتُ بعد شيء من الصمت:

- أصدقائي يرحلون دائماً!

فراحت تواصل بعينيها البحث وسط فوضى الغرفة، والحقيبتين المفتوحتين في الصالون عن شيء ما. وربما لم يقنعها كلامي، أو زاد في فضولها فقط.

النساء هكذا دائما: لا يرين أبعد من أجسادهن، ولذا لم يكن في إمكان كاترين أن تكتشف آثار زياد وحسان وزوربا في ذلك البيت..

لقد كانت كاترين دائماً تعيش على هامش حزني في الحقيقة..
ولا ربما اقتنعت دون كثير من الكلام أنني أستيقظ من ليلة حب.

سألتني وكأنها لا تجد فجأة مبرراً لوجودها عندي في تلك اللحظة:

- لماذا طلبتني على عجل؟

قلت:

- لأسباب كثيرة..

ثم أضفت فجأة:

- هل تحبين الجسور؟ كاترين..

قالت بنبرة لا تخلو من التعجب:

- لا تقل لي إنك أحضرتني في هذا الصباح لتطرح علي هذا السؤال!

قلت:

- لا.. ولكن أود لو أجبتني عليه.

قالت:

- لقد عشت دائماً في أنا لم أسأل نفسي سؤالاً كهذا قبل اليوم.. لا أدري ما عدا باريس ربما. مدن لا جسور فيها..

قلت:

- لا يهم ..فأنا أفضّل في النهاية ألا تحبيها .يكفي أن تحبي رسمي..

أجابت:

- لقد راهنت دائماً على انك رسام استثنائي ..طبعاً أحب ما ترسمه..

قلت:

- فليكن إذن ..كل هذه اللوحات لك.

صاحت:

- أأنت مجنون؟ كيف تهبني كل هذه اللوحات؟ إنها مدينتك قد تحنّ إليها ..يوماً.

قلت:

- لم يعد هناك من ضرورة للحنين بعد اليوم، أنا عائد إليها أهبها لك، لأنني .أدري أنك تقدّرين الفن، وأنها معك لن تضيع..

قالت كاترين وصوتها يأخذ نبرة جديدة لحزن وفرح غامض:

- سأحتفظ بها جميعاً ..فلم يحدث لرجل أن أهداني يوماً شيئاً كهذا..

قلت وأنا ألقي نظرة أخيرة على جسدها المختبئ داماً تحت الأثواب الخفيفة الفضفاضة:

- ولم يحدث لامرأة قبلك أن منحتني غربة أشهى..

قالت:

- أخاف أن تندم يوماً وتشتاق إلى إحدى هذه اللوحات اعلم أنك ستجدها ..دائماً عندي.

قلت:

- ربما سيحدث ذلك ..فنحن في جميع الحالات نندم على شيء ما..

تقاطعني وكأنها اكتشفت جدية الموقف:

- Mais ce n'est pas possible .. لا يمكن أن نفترق هكذا!

لقد حكم علينا التاريخ ألا نشبع من .دعينا نفترق على جوع ..أوُ كاترين -
إنك تملكين اليوم أكثر .لأكثر من سبب ..ولا نحب بعضنا تماما ..بعض تماماً
علّقي على جدرانك ذاكرتي، حتى ولو كانت ذاكرة ..من نسخة مني
!لقد كنت أيضاً طرفاً فيها ..مضادة

.لا تفهم كاترين لماذا كل هذه الرموز اليوم

ولماذا هذا الحديث الغامض الذي لم أعوّدها عليه؟

جسدها يخرج عن .وربما فهمت، ولكن جسدها كان يرفض أن يفهم
..يطالب دائماً بالمزيد .جسدها موظف فرنسي يحتج دائما .الموضوع دائماً
.يفرط في حرية التعبير، في حرية الإضراب

..ولكن

من أين سآتي بالكلمات التي ستشرح لها حزني؟

من أين سآتي بالصمت الذي سيقول لها دون أن أقول شيئاً، إن حسان
هناك في مدينة أخرى، ينتظرني في ثلاجة، وأن أولاده الستة لم يعد لهم
.غيري
كيف أشرح لها سر قدميّ الباردتين، والصقيع الذي يزحف نحوي كلما
..تقدمت بي الساعات، وكلما راحت يداها تفتحان أزرار قميصي دون انتباه
.بحكم العادة

..ليس لي شهية للحب، اعذريني ..كاترين -
وماذا تريد إذن؟ -
.أريد أن تضحكي كالعادة -
لماذا أضحك؟ -
.لأنك عاجزة عن الحزن -
وأنت؟ -
..حزني مؤجل فقط كالعادة .وأنا سأنتظر أن تذهبي لأحزن -
؟.ولماذا تقول لي هذا اليوم -
..ولأنني سأرحل بعد ساعات ..لأنني متعب -
..لقد ألغوا كل الرحلات إلى الجزار .ولكن لا يمكنك أن تسافر -
.لا بد أن أسافر اليوم أو غدا .سأذهب، وأنتظر في المطار أول طائرة تقلع -
..هناك من ينتظرني

وأجهش "..أخي الوحي يا كاترين ..لقد مات أخي" :كان يمكن أن أقول لها
.فقد كنت في حاجة إلى أن أبكي أمام أحد يومها .بالبكاء

فالحزن قضية ..لعلها عقدة قديمة .ولكن لم أكن قادراً على ذلك معها
..شخصية، قضية أحياناً وطنية

لعلني في .وقررت أن أواصل حديثي كالعادة .ولذا احتفظت بجرحي داخلي
.الصمت اليوم أكبر .ولكن ليس اليوم .يوم آخر سأخبرها بذلك

.شعرت فجأة أنني أسأت للفراشات

:قلت

لقد كانت قصتنا جميلة، أليس كذلك؟ كانت معقدة بعض الشيء ..كاترين -
لقد كنت المرأة التي كانت دائماً، على وشك أن .ولكنها جميلة برغم ذلك ..
وربما سينجح الفراق في تحقيق ما عجزت كل سنوات .تكون حبيبتي
..القرب هذه من تحقيقه

هل ستحبني عندما نفترق؟ -

لقد كان .إنه منطق الأشياء .من المؤكد أنني سأفتقدك كثيراً ..لا أدري -
..ولا بد لي بعد اليوم أن أغيّر عاداتي .لي معك أكثر من عادة

وهل ستعود؟ -

الغربة أمّ .لا بد أن أتعلم الآن الوجه الآخر للنسيان ..ليس قبل مدة طويلة -
..أيضاً ليس سهلاً أن نجتاز الجسر الذي سيفصلنا عنها

لماذا تحيط نفسك بكل هذه الجسور؟ ..خالد -

هناك أناس ولدوا هكذا على .أنا أحملها داخلي ..أنا لا أحيط نفسي بها -
وُلِدوا وسط .جاؤوا إلى العالم بين وصيفينْ وطريقينْ وقارّتينْ .جسر معلّق
.مجرى الرياح المضادة، وكبروا وهم يحاولون أن يصالحوا بين الأضداد داخلهم
اكتشفت أنني لا .في الحقيقة دعيني أبوح لك بسرّ ..ربما كنت من هؤلاء
وأكرهها كراهيتي لكل شيء له طرفان، ووجهتان، .أحب الجسور
.ولهذا تركت لك كل هذه اللوحات .واحتمالان، وضدان

ولكن لست في شجاعة طارق بن .كنت أود إحراقها، راودتني هذه الفكرة
ربما لأن إحراق بحّار لباخرته في معركة حربية، يظلّ أسهل من إحراق .زياد
..رسام للوحاته في لحظة جنون
.وبرغم ذلك، أريد أن أحرقها حتى أقطع على قلبي طريق العودة إلى الخلف

.لا أريد أن أقضي حياتي، وأنا أسلك هذا الجسر في الاتجاهين
..أريد أن أختار لقلبي مسقطه الأخير

أريد أن أعود إلى تلك المدينة الجالسة فوق صخرة، وكأنني أفتحها من ..كما فتح طارق بن زياد ذلك الجيل، ومنحه اسمه .جديد

ووقفت .قطعت علاقتي بالتاريخ وبالجغرافية .منذ غادرتها أضعت بوصلتي .. .سنوات على نقطة استفهام، خارج خطوط الطول والعرض

أين يقع البحر وأين يقف العدوّ؟ أيهما أمامي وأيهما ورائي؟
..ولا شيء أمامي سوى زورق الغربة ..ولا شيء وراء البحر سوى الوطن
..ولا شي بينهما سواي
على من أعلن الحرب ولا شيء حولي سوى الحدود الإقليمية للذاكرة؟

..نظرت إليّ كاترين، ولم تفهم شيئاً

فافترقنا كما التقينا منذ .لقد كانت علاقتنا دائماً ضحية سوء فهم وقصر نظر ولكن ..دون أن نحب بعضنا تماماً ..أكثر من قرن، دون أن نعرف بعضنا حقاً .دائماً بتلك الجاذبية الغامضة نفسها

***

:وقلتِ

."والأدب هو كل ما لم يحدث ..الحب هو ما حدث بيننا"

..نعم ولكن

بين ما حدث وما لم يحدث، حدثت أشياء أخرى، لا علاقة لها بالحب ولا .بالأدب

ووحده الوطن .فنحن في النتيجة، لا نصنع في الحالتين سوى الكلمات .مادمنا حبره ..ويكتبنا كيفما شاء .يصنع الأحداث

وها أنا أعود إليه مذهولاً في زمن ..غادرت الوطن في زمن لحظر التنفس .آخر لحظر التجول
أتذكر وأنا أواجه وحدي هذه المرة مطار تلك المدينة الملتحفة بالحداد كلاماً .قاله حسان منذ ست سنوات واستوقفتني كلماته دون سبب واضح

لقد أصبحوا لا يأتونها سوى .إن قسنطينة فرغت من أهلها الأصليين" :قال ."في الأعراس و في المآتم

ها أنا أصبحت إذن الابن الشرعي لهذه المدينة التي ..يذهلني اكتشافي

جاءت بي مكرهاً مرتين.

فما الفرق بين الاثنين؟ لقد مات .ومرة لأدفن أخي ..مرة لأحضر عرسك أخي في الواقع مثلما متّ أنا منذ ذلك العرس.

قتلتنا أحلامنا..

هو لأنه أصيب بعدوى الأحلام الفارغة الكبيرة.

ولبست نهائياً حداد أحلامي ..وأنا لأنني غادرت وهمي.

يسألني جمركيّ عصبي في عمر الاستقلال لم يستوقفه حزني ولا فراح يصرخ في وجهي، بلهجة من أقنعوه أننا نغترب ..استوقفته ذراعي فقط لنغنى، وأننا نهرّب دائماً شيئاً ما في حقائب غربتنا..

بماذا تصرّح أنت؟ -

ولكن لم يقرأني ..كان جسدي ينتصب ذاكرة أمامه.

يحدث للوطن أن يصبح أميّاً.
كان آخرون لحظتها يدخلون من الأبواب الشرفيّة بحقائب أنيقة دبلوماسية.

وكانت يداه تنبشان في حقيبة زياد المتواضعة، وتقعان على حزمة من الأوراق ..فتكاد دمعة مكابرة بعيني تجيبه لحظتها:

يا ابني ..أصرّح بالذاكرة -..

وأجمع مسودّات هذا الكتاب المبعثرة في حقيبة، رؤوس ..ولكنني أصمت أقلام ..ورؤوس أحلام.

1988تموز _باريس

على غلاف الكتاب:

لأحلام مستغانمي، وأنا جالس أمام بركة (ذاكرة الجسد)قرأت رواية السباحة في فندق سامرلاند في بيروت.
بعد أن فرغتُ من قراءة الرواية، خرجتْ لي أحلام من تحت الماء الأزرق كسمكة دولفين جميلة، وشربت معي فنجان قهوة وجسدها يقطُر ماءً..
وأنا نادراً ما أدوخ أمام رواية من الروايات وسبب الدَوْخَة أن روايتها دوّختني. النص الذي قرأته يشبهني إلى درجة التطابق، فهو مجنون، ومتوتر، وخارج على القانون مثلي ..واقتحامي، ومتوحش، وإنساني ، وشهواني.
ولو أن أحداً طلب مني أن أوقع اسمي تحت هذه الرواية الإستثنائية لما ترددت لحظة واحدة ..المغتسلة بأمطار الشعر..

لقد كانت ..دون أن تدري (تَكتُبُني)هل كانت أحلام مستغانمي في روايتها وشراسةٍ لا حدّ لها ..مثلي تهجم على الورقة البيضاء، بجماليةٍ لا حدّ لها..
جنونٍ لا حدّ له...

بحر الحب، وبحر الجنس، وبحر ..الرواية قصيدة مكتوبة على كل البحور الإيديولوجية، وبحر الثورة الجزائرية بمناضليها ومرتزقيها، وأبطالها وقاتليها، وملائكتها وشياطينها، وأنبيائها وسارقيها..

هذه الرواية لا تختصر ذاكرة الجسد فحسب، ولكنها تختصر تاريخ الوجع الجزائري، والحزن الجزائري، والجاهلية الجزائرية التي آن لها أن تنتهي..

لا :وعندما قلت لصديق العمر سهيل إدريس رأيي في رواية أحلام، قال لي لأن أحلام إذا سمعت كلامك الجميل عنها، فسوف تُجنّ ..ترفع صوتك عالياً ...

!!لأن الأعمال الإبداعية الكبرى لا يكتبها إلا مجانين ..دعها تُجنّ :أجبته

لندن20 / 8 / 1995

نزار قباني